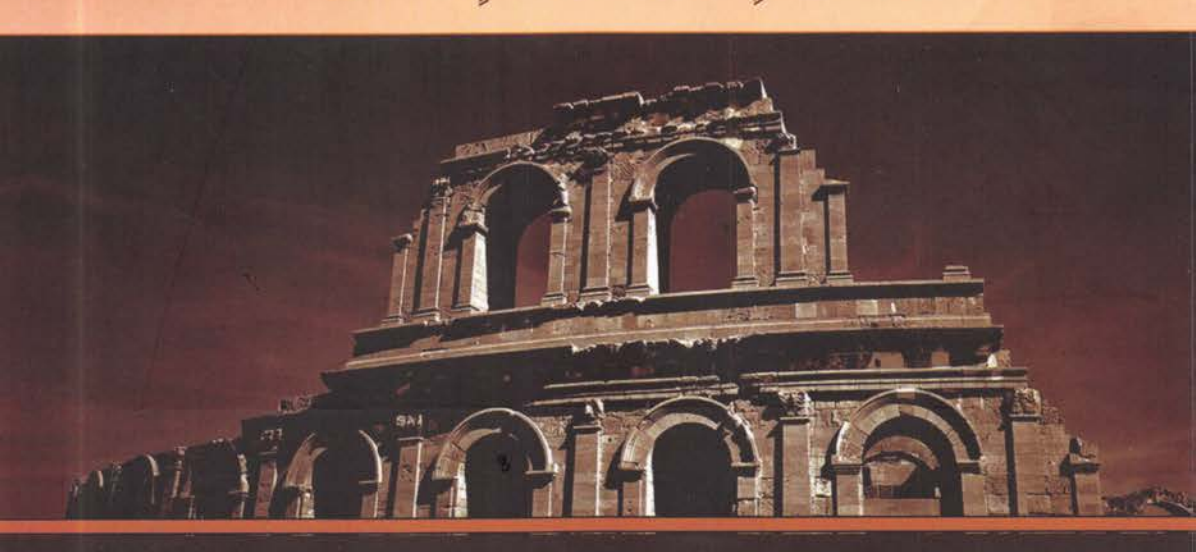




صراع الحضارات

بين عولمةٍ غربيةٍ وبعثٍ إسلامي



أ. د. جعفر شيخ إدريس

هذا الكتاب مجموعة بحوث ومقالات في صراع الحضارات وتأثير الغرب على العالم الإسلامي وماذا يمكن فعله لمواجهة هذا المد الغربي.

في هذا الكتاب يعرفنا الشيخ الدكتور جعفر بأسس الفكر الغربي ودعاماته، وكيفية تمكنه. ثم يفند هذه الأسس بحجج قوية، يبين لنا كيف نقاوم هذا الغزو الفكري وما هو طريق الريادة.

البحوث والمقالات كتبها الشيخ جعفر شيخ إدريس في مواقف مختلفة على مدى أكثر من عشرين عاماً. على رغم طول المدة إلا أن القاريء سيجد اتساقاً بين جميع الكتابات مما يدل على بعد نظرة الشيخ وقدرته التحليلة العالية.

والدكتور جعفر من أكثر العارفين بالحضارة الغربية ومن المتابعين للجديد والقديم في الفكر الغربي. ولعل ذلك نابع من دراسته لفلسفة العلوم التي مكنته من معرفة الأسس الفلسفية للحضارات، ومن دراسته للفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر، ومن تجربته العملية بمخالطة الأكاديمين والفلاسفة الغربيين والعيش في بلدان غربية دراسةً ودعوةً. كثيرون هم الذين اطلعوا على الفكر الغربي ودرسوه، ولكن يتميز الدكتور جعفر بتعمقه في علوم العقيدة الإسلامية وبخبرته العملية وبوضوح الرؤية وسهولة العبارة، بالإضافة إلى ما حباه الله به من قدرة تحليلية عالية وحجة دامغة. ولذلك فهو من أفضل من ينتقد الفكر الغربي من وجهة نظر إسلامية.



مكتب مجلة البيان - ص.ب ٣٦٩٧٠ـ الرياض ١١٤٩٦
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف: ٠٠٩٦٦١٤٥٤٦٨٦٨

صراع الحضارات
بين عولمةٍ غربية و بعثٍ إسلامي

تأليف

أ. د. جعفر شيخ إدريس

الطبعة الأولى

ح مجلة البيان، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

إدريس ، جعفر شيخ

صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي./ جعفر شيخ إدريس - الرياض، ١٤٣٣هـ

ص ٢٤٤ ؛ ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٧ - ٠٨ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - العولمة ٢ - صراع الحضارات

٣ - الإسلام والحضارة أ. العنوان

ديوي ٣٢٧ ١٤٣٣/٤٣٧

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٤٣٧

ردمك: ٧-٠٨-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذا الكتاب عبارة عن مجموعة بحوث ومقالات في صراع الحضارات وتأثير الغرب على العالم الإسلامي وماذا يمكن فعله لمواجهة هذا المد الغربي.

في هذا الكتاب يعرفنا والدنا الشيخ الدكتور جعفر بأسس الفكر الغربي ودعاماته، وكيفية تمكنه. ثم يفند هذه الأسس بحجج قوية، يبين لنا كيف نقاوم هذا الغزو الفكري وما هو طريق الريادة.

البحوث والمقالات كتبها والدنا الشيخ جعفر شيخ إدريس في مواقف مختلفة على مدى أكثر من عشرين عاماً. على رغم طول المدة إلا أن القارئ سيجد اتساقاً بين الكتابات جميعها وهو ما يدل على بعد نظرة الشيخ وقدرته التحليلية العالية.

الدكتور جعفر شيخ إدريس من أكثر العارفين بالحضارة الغربية وأسسها وقيمها ومن المتابعين للجديد والقديم في الفكر الغربي. ولعل ذلك نابع من دراسته فلسفة العلوم التي مكنته من معرفة الأسس الفلسفية للحضارات، ومن دراسته الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر، ومن تجربته العملية بمخالطة

الأكاديميين والفلاسفة الغربيين والعيش في بلدان غربية دراسةً ودعوةً. كثيرون هم الذين اطلعوا على الفكر الغربي ودرسوه، ولكن يتميز عليهم الدكتور جعفر بتعمقه في علوم العقيدة الإسلامية وبخبرته العملية وبوضوح الرؤية وسهولة العبارة، بالإضافة إلى ما حباه الله به من قدرة تحليلية عالية وحجة دامغة. ولذلك فهو من أفضل من ينتقد الفكر الغربي من وجهة نظر إسلامية.

اخترنا للكتاب عنوان صراع الحضارات بين عولمة غربية وبعث إسلامي، وكما سمعنا مرات عدة من الشيخ جعفر أن الإسلام دين والغرب منطقة جغرافية، ولكننا نعني بالغرب هنا الفكر الغربي الحديث. ولأن البحوث والمقالات واللقاءات في هذا الكتاب ألقيت وكتبت في مناسبات متعددة، فقد حاولنا قدر الإمكان ترتيبها بطريقة موضوعية يستفيد منها القارئ حسب المواضيع، فجاء الكتاب في ثلاثة أقسام:

القسم الأول يركز على التعريف بالحضارات وموقف الإسلام من الحضارات الأخرى والعلاقات الدولية في الإسلام، وأسباب صراع الحضارات وواقعه، وأسباب التبعية للغرب. والقسم الثاني تحليل للأسس الفكرية التي يقوم عليها الفكر الغربي المعاصر.

أما القسم الثالث فيعنى بكيفية مواجهة المد الغربي وبعث حضارة الإسلام من جديد.

ولعل القارئ يلاحظ أن فصول الكتاب ليست مقسمة بهذا التقسيم الموضوعي الذي ذكرنا؛ لأن المقالات حين كتبها الشيخ قصد لكل منها أن يكون شاملاً لموضوعه وليس مقتصراً على موضوع معين. فقد تجد تداخلاً بين موضوعات كل قسم وتكراراً غير ممل فما ستجده مجملاً في مقال أو بحث ستجده مفصلاً في مكان آخر. وقد حرصنا ألا نحذف أو نعدل في كلام الشيخ.

وبالله التوفيق

عبد الرحمن جعفر شيخ إدريس

القسم الأول

الحضارات..
صراع أم تعايش؟



العولمة وصراع الحضارات

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالصراع سنة ماضية، والصراع بين الحضارات إنما هو في جوهره صراع بين معتقدات، لا بين طبقات ولا عرقيات. فأصحاب الطبقة الواحدة، والمنتمون إلى قومية واحدة بل قبيلة واحدة قد يقتل بعضهم بعضاً إذا اختلفت معتقداتهم. على هذا تدل الآية الكريمة التي تشير إلى اعتداء أناس من قبيلة هي أشرف قبائل العرب على أناس آخرين من هذه القبيلة نفسها؛ لأنهم خالفوهم في معتقدهم. وهذا هو الذي توصل إليه دارسو الحضارات من الغربيين؛ فإنهم يكادون أن يكونوا مجمعين على أن الحضارة وإن تكونت من عناصر كثيرة إلا أن أهم عنصر فيها هو العنصر الثقافي، وأن أهم عنصر في الثقافة هو الدين. ويلاحظون أن كبرى الحضارات كانت إلى حد كبير مرتكزة على أديان. فما الحضارة؟ وما الثقافة؟ وما العولمة؟ وما علاقة الصراع بين الحضارات بها؟

الحضارة والثقافة والعولمة:

كلمات الحضارة والمدنية والثقافة والعولمة وإن كانت عربية إلا أنها جعلت في استعمالنا الحديث رموزاً تدل على المعاني والمفهومات نفسها التي تدل عليها الكلمات الغربية التي جعلناها ترجمة لها. فلننظر في تلك المعاني والمفهومات كما هي عند أهلها.

وأنسب ما نبدأ به هو الأمريكي هنتنجتون أول من أشاع تعبير صراع الحضارات في مقال مشهور نشر في صيف عام ١٩٩٣م في مجلة Forign Affaris بهذا العنوان، ثم نُشر موسعاً في كتاب بالعنوان نفسه. ينقل هنتنجتون عن عدد كبير من العلماء الغربيين تعريفهم لما أطلقنا عليه كلمة المدنية أو الحضارة، civilization، والفرق بينها وبين ما نسميه ثقافة culture؛ فما الحضارة أو المدنية وما الثقافة؟ يمكن أن نلخِّص مجمل أقوال من نقل عنهم هنتنجتون في مفهوم الحضارة والثقافة فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حداً فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومُثُله العليا وخاصياته الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. لكن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان في هذا؛ فهم يرون أن الحضارة والثقافة كليهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة، وأن كليهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الدين هو أهم العناصر المكونة للحضارة، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العِرْق؛ فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة، كما أن الحضارة الواحدة - كالحضارة الإسلامية - قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال. والحضارة هي أوسع وحدة ثقافية؛ فأهل قريةٍ إيطاليّةٍ مثلاً قد يتميزون ثقافياً عن قرية إيطالية أخرى، لكنهم يشتركون في

ثقافةٍ إيطاليةٍ تميزهم عن أهل القرى الألمانية. والألمان والإيطاليون ينتمون إلى ثقافة أوروبية تميزهم عن الجماعات الصينية والهندية. هذا الذي يجمع الأوروبيين هو حضارتهم التي تميزهم عن الحضارات الصينية والهندية. فالحضارة هي أعلى تجمُّع ثقافي للناس، وأوسع مستوى للهوية الثقافية لهم. وليس فوق الانتماء الحضاري للناس إلا انتماؤهم إلى الجنس البشري(١).

أما العولمة فيمكن أن نقول إنها في أساسها: (تصيير المحلي عالمياً)؛ فهي وصف لعمل مستمر تدل عليه كلمة Globalization لكنها في الوقت نفسه وصف لبعض نتائج هذا التعولم. النتيجة النهائية المثالية للتعولم أن تكون للعالم كله لغة أو لغات مشتركة، وأن تكون التجارة فيه مفتوحة ومتيسرة بين كل بلدان العالم، وأن يسود فيه نظام اقتصادي واحد، ونظام سياسي واحد، وأن تسود فيه عقيدة واحدة، وأن تكون للناس فيه قيم مشتركة في مسائل كحقوق الإنسان والعلاقة بين الجنسين، وأن يكون هنالك أدب عالمي يتذوقه الناس كلهم، وأن يسود فيه تبعاً لذلك نظام تعليمي واحد، وهكذا. وأن تكون كل هذه الأمور التي تعولمت مناسبة للناس من حيث كونهم بشراً، ومساعدة لهم على تحقيق طموحاتهم المادية والروحية، أي تكون للعالم حضارة عالمية واحدة. هذا هو الهدف النهائي المثالي، لكن العولمة قد تكون ناقصة، وقد تكون تامة من غير أن تكون مناسبة للبشر، بل مفروضة عليهم لظروف طارئة.

المهتمون بقضية العولمة متفقون تقريباً على أنه وإن كانت الكلمة جديدة إلا أن ما تصفه ليس بجديد، بل يرى بعضهم أن السير نحو هذه العالمية بدأ منذ مئات السنين.

فإذا كانت هذه هي العولمة فما وسائلها التي تجعلها ممكنةً وتُحرِّكها؟ يذكر بعض المؤرخين أنه كان للعولمة في الماضي سببان رئيسان هما الهجرة والغزو.

---

(1) Samuel P. Hintington, The Clash of Civilizations, Simon & Schuster, 1997, pp. 41-43.

ولكن لنا أن نسأل: لماذا يهاجر الناس؟ ولماذا تغزو بعض البلاد بعضاً؟ إنهم يفعلون ذلك؛ لأنهم يرونه - بحسب قيمهم - في مصلحتهم المادية أو الروحية. هذا إذن هو الدافع الأول المحرك للهجرة أو الغزو أو أي نوع آخر من أنواع الاتصال بين أمة وأمة. لكن الناس إنما يقرّرون الهجرة إلى مكان معين أو غزو أمة معينة بحسب ما يصلهم من معلومات عنها، وبحسب إمكانية الوصول إليها. هذان إذن عاملان آخران هما المعلومات ووسائل الانتقال؛ وهذان يعتمدان كثيراً على مستوى التقنية الذي تصل إليه الأمة المهاجرة أو الغازية أو الساعية لأي نوع آخر من أنواع العلاقات أو التأثير.

دوافع أمةٍ لغزو أمةٍ أخرى أو هجرة بعضهم إليها هي في غالبها دوافع اقتصادية، لكن بعضها قد يكون ثقافياً. والأمران متشابكان؛ فحتى الغازي لأسباب اقتصادية ينقل معه ثقافته وقد يفرضها على المهزومين إذا كان غازياً ذا إمكانيات كبيرة، وقد يتأثر بثقافة من غزاهم، بل قد يتبناها ويترك ثقافته، وقد يكون التأثر والتأثير متبادلين. والمهاجر أو الغازي لأسباب ثقافية قد يستفيد فوائد اقتصادية، وقد يحدث لثقافته التي هاجر من أجلها ما يحدث للمهاجر.

كان غزو المسلمين للعالم مثالاً للغزو بدافع حضاري؛ فقد كانوا يعُدُّون أنفسهم أصحاب رسالة موجهة للعالم كله كلفوا هم بتبليغها إليه بالوسائل السِّلميّة ما أمكن، وإلا باللجوء إلى الحرب. لكن حتى المسلمين الذين كانوا يهاجرون طلباً للرزق كانت مهمتهم الرسالية ماثلةً أمامهم، فأثّروا في البلاد التي هاجروا إليها تأثيراً كبيراً، فنقلوا إليها - كما نقل الغزاة قبلهم - دينهم ولغتهم ولم يتأثروا بهم إلا في أمور لا تتعارض مع دينهم، بل قد يكون بعضها من مقتضيات الدعوة إليه، كتعلُّم لغتهم.

أما المسلمون الذين يهاجرون إلى البلاد الغربية في أيامنا هذه فإنهم يفعلون ذلك

لأسباب في غالبيتها العظمى اقتصادية، وتجربتهم تدل على أن الغالبية العظمى منهم تفقد هويتها الثقافية - لغة ومظهراً وديناً - وتذوب في المجتمعات الغربية. لكن أكثر ما يحتفظون به ويؤثرون به في تلك المجتمعات هو طعامهم. غير أن قلة من هؤلاء الذين هاجروا لأسباب اقتصادية كانت - مع القلة التي تسافر لأسباب دعوية أو دراسية - سبباً في قبول بعض الغربيين للإسلام، وفي انتشار بعض المظاهر الإسلامية كالمساجد والمدارس والمكتبات والحجاب.

أما الغربيون الذين ذهبوا إلى العالم الإسلامي غزاة أو لأسباب اقتصادية فإن قلة قليلة منهم هي التي تأثرت بالثقافة الإسلامية أو اعتنقت الإسلام. ولذلك كان دخول بضعة آلاف من الجنود الأمريكان في الإسلام في المدة القصيرة التي قضوها في السعودية إبان حرب الخليج أمراً ملفتاً للنظر شاذاً عن القاعدة. لكن دخول غير الغربيين المهاجرين إلى العالم الإسلامي كان ولا يزال أمراً معتاداً.

أما غزو الغرب للعالم فقد كان في أساسه لأسباب اقتصادية، لكن الدافع الرسالي كان أيضاً حاضراً فيه حضوراً بيناً. فالغربيون كانوا يرون أن لهم رسالة هي أن يُحضِّروا العالم ويجعلوه نصرانياً. وهم يرون أن حضارتهم تفوق الحضارات الأخرى لما تمتاز به من عقلانية لا توجد في غيرها، وأن هذه الميزة هي التي تؤهلها لأن تكون الحضارة العالمية. يرى أحد الأساتذة الأرجنتينيين أن أحسن من يعبر عن هذا الاعتقاد هو هيجل وينقل عنه قوله: (إن الروح الألمانية هي روح العالم الجديد). ويقول: إن هيجل يرى أن الروح الأوروبية التي هي روح ألمانيا هي الحقيقة المطلقة التي تحقق نفسها بنفسها من غير أن تكون مدينة لأحد سواها[1]. ويقول: (إن هذه القضية - يعني

---

(1) Enrique Dussel Beyond Eurocentrism: The World-System and the Limits of Modernity in Fredrick Jameson and Masao Miyoshi, Editors, The Culture of Globalization, Duke University Press, London and Durham, 1998, pp 3-4

قضية هيجل - لم تفرض نفسها على أوروبا والولايات المتحدة فحسب؛ بل على كل المجال الفكري لأطراف العالم). ويقول أستاذ بجامعة ديوك الأمريكية: (إنه لأمر عجيب وإنها لحركة في غاية التعصب العنصري أن تعتقد أوروبا أن عليها منذ عام ١٥٠٠م أن تحضِّر عالماً ظلت فيه منذ قرون حضارات «مثل الحضارة الصينية والهندية والإسلامية...» قبل أن تجعل من نفسها مركزاً جديداً للعالم باسم النصرانية، وأوروبا زمرة من الجماعات الهمجية الصاعدة)[١]، وأحسن من عبر عن الجمع بين الدافعين الاقتصادي والحضاري هو المؤرخ الأسباني الذي سوّغ ذهابه وزملائه لغزو الجزر الهندية بقوله: (خدمة لله ولصاحب الجلالة، ولنقل النور إلى أولئك الجالسين في الظلام، ولنصير أغنياء كما أن كل إنسان يريد أن يصير)[٢].

استطاعت أوروبا أن تفرض نفسها وكثيراً من جوانب حضارتها على تلك الحضارات بالغزو والاحتلال والاستعمار، ثم بوسائل الإعلام والضغوط الاقتصادية، والتهديدات العسكرية. يقول مؤرخهم المعاصر بشيء من الزهو:

(إن التغيير الذي حدث في تاريخ العالم بعد عام ١٥٠٠م لم يكن له سابقة. لم يحدث من قبل ذلك أبداً أن انتشرت حضارة واحدة في أرجاء الأرض كلها؛ فمنذ أقدم مسارح ما قبل التاريخ المشاهدة كان الميل دائماً نحو التنوّع. أما الآن فإن التيار الثقافي بدأ يتحول. إن جوهر ما كان يحدث كان بادياً حتى منذ أواخر القرن الثامن عشر. فالأمم الأوروبية - بما فيها روسيا - كانت في ذلك الوقت قد ادَّعت لنفسها أكثر من نصف سطح الأرض، وكانت - بدرجات متفاوتة - قد سيطرت بالفعل على

---

(1) Op cit. pp. 32-33, Walter D. Mingnola, Globalization, Civilization Processes and the Relocation of Languages Cultures

(2) J. M. Roberts, The Penguin History of the World, Penguin Books, 1995, p.608

ما يقرب من ثلثه. ففي غرب الكرة الأرضية كانوا قد ازدرعوا جماعات مستوطنة تكفي بأعدادها الكبيرة لإنشاء مراكز حضارية جديدة؛ فقد خرجت أمة جديدة من المقاطعات البريطانية السابقة في أمريكا الشمالية، وفي الجنوب استطاع الأسبان أن يحطِّموا حضارتين ناضجتين ليغرسوا حضارتهم)[1].

ثم يذكر أنه كان هنالك في ذلك التاريخ ما يقرب من عشرين ألف هولندي في جنوب إفريقيا، وأن أستراليا كانت قد بدأت تستقبل مستوطنيها الجدد. وأن الزائر الأوروبي لشرق إفريقيا وإيران والهند وأندونيسيا كان سيجد فيها أوروبيين جاؤوا ليتاجروا ثم ليرجعوا إلى بلادهم في المدى القريب أو البعيد ليستمتعوا بالأرباح التي حققوها. في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان الاستعمار الغربي قد شمل إفريقيا كلها، وأحكم سيطرته على شبه القارة الهندية وبقية آسيا. وفي أوائل القرن العشرين أخضع الشرق الأوسط كله - عدا تركيا - لسيطرته المباشرة، ومع نهاية عام ١٩٢٠م كانت الإمبراطورية العثمانية قد قُسِّمت بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا. في غضون هذا التوسع قضى الغرب قضاءً كاملاً على حضارتي (Mesoamerican) و(Andean)، وأُخضعت الحضارات الهندية والإسلامية وأُخضعت إفريقيا. وتُوغل في الصين وجُعلت تابعة للنفوذ الغربي لمدة أربعمائة عام تمثلت العلاقة بين الحضارات في خضوع المجتمعات غير الغربية للحضارة الغربية[2].

ذلك ما كان حتى عام ١٩٢٠م؛ فماذا حدث بعده؟ استمر الغرب في تفوقه التقني واستمر في تأثيره الكبير على كل مجتمعات العالم لا سيما بعد الطفرة التي حدثت في تقنية الاتصالات والانتقال والتي زادت في إمكانية العولمة.

---

(1) Ibid. p. 605
(2) Huntington, op.cit. p. 51

مظاهر الهيمنة الغربية على العالم:

تتمثل هذه الهيمنة الغربية الآن - كما لخصها كاتب أمريكي[1] - في أن الأمم الغربية:

- تملك النظام المصرفي العالمي وتديره.
- وتسيطر على كل أنواع العملة الصعبة.
- وأنها الزبون العالمي الأول.
- وأنها التي توفر للعالم معظم بضائعه الجاهزة.
- وأنها تسيطر على أسواق الرأسمال العالمية.
- وأنها تمارس قدراً كبيراً من القيادة الأدبية في كثير من المجتمعات.
- وأن لها قدرة على التدخل العسكري العظيم.
- وأنها تسيطر على المضائق البحرية.
- وأنها تقوم بمعظم البحوث والتطوير للتقنية المتقدمة.
- وأنها المتحكِّمة في التعليم التقني الفائق.
- والمهيمنة على المدخل إلى الفضاء.
- وعلى صناعة الطيران.
- وعلى وسائل الاتصال العالمية.
- وعلى التقنية العالية لصناعة الأسلحة.

(1) Jeffery R. Barnet, Exclusion as National Security Policy, Parameters, 24 (Spring1994), 54, as quoted by Huntington, op. cit. 81

العولمة لم تكن - كما كان يرجى لها إذن - أن تسود في العالم ثقافةً إنسانيةً تناسب كل الناس وتساعد على تعاونهم وتطورهم والاستفادة من خيرات بعضهم بعضاً. بل كادت العولمة وكاد التحديث أن يكون تغريباً بسبب هذا التفوق الغربي وعدم تسامح حضارته مع الحضارات الأخرى.

إلى متى سيستمر هذا التفوق وهذه الهيمنة الغربية؟

يرى كثير من المفكرين الغربيين أنها لن تستمر طويلاً - على الأقل بهذا القدر الكبير. لماذا؟ هذا موضوع كبير لا يسعنا هنا إلا أن نشير إليه مجرد إشارات، فنقول:

١ - لأن سبب تلك القوة لم يكن لمجرد أسباب داخلية في الحضارة الغربية، وإنما كان أيضاً لظروف خارجية مواتية. أما الآن فإن ظروفاً خارجية أخرى لا قِبَلَ للغرب بتغييرها جعلته يضعف ضعفاً نسبياً للازدياد النسبي في القوة الاقتصادية والتقنية لبلاد غير غربية.

٢ - يزداد تقديرنا لأهمية هذا الضعف النسبي للقوة المادية للدول الغربية إذا ما تذكرنا ما يقوله كثير من مفكريها بأن السبب الأساس لسيطرتها لم يكن قيماً ولا فكراً ولا ديناً وإنما كان هذه القوة. يقرر هنتنجتون هذه الحقيقة في صراحة عجيبة إذ يقول: (لم يغلب الغرب العالم بتفوق في أفكاره أو قيمه أو دينه «الذي لم تعتنقه إلا قلة من أبناء الحضارات الأخرى» وإنما غلب بتفوقه في العنف المنظم. إن الغربيين كثيراً ما ينسون هذه الحقيقة، لكن غير الغربيين لا ينسونها أبداً)[1].

بيد أننا يمكن أن نستدرك على هنتنجتون ومن يرى رأيه بأن الغرب وإن لم يكن في الأمر نفسه متفوقاً في تلك المجالات إلا أن أهله كانوا يعتقدون فيه هذا التفوق، وأن هذا الاعتقاد الباطل كان دافعهم، مع الدوافع الاقتصادية للخروج لغزو العالم كما ذكرنا سابقاً.

---

(1) Ibid. p. 51

٣ - أما الآن فإن هذا الضعف النسبي في القوة المادية للغرب يصحبهَ وربما سبقه فتور في الدافع الرسالي؛ فحماس الغربيين لدينهم المسيحي في بداية قرنهم الواحد والعشرين لم يعُد كما كان في القرن الثامن عشر، ولم يطرأ هذا الفتور في الحماس الديني بسبب التأثر بالحضارات الأخرى في المكان الأول، وإنما كان في أساسه:

- بسبب دراساتهم العلمية لأصول دينهم التاريخية، تلك الدراسات التي شككت في الثبوت التاريخي لكثير من نصوصه، والتي أثبتت أن في هذه النصوص تناقضاً ومخالفة لبعض الحقائق العلمية نشأ عنه انقسامهم إلى أصوليين ـ أكثرهم من العوام ـ يؤمنون بحرفية ما في كتابهم المقدس، وليبراليين يعتقدون أنه ما كل ما فيه من عند الله، وأنه تأثر بالظروف الثقافية للزمن الذي كتب فيه.

- ثم كان التطور في مجال العلوم الطبيعية سبباً آخر؛ لأن منهج هذه العلوم يقوم على عقلانية لا وجود لها في دينهم.

- ثم زاد من ضعف الإقبال على الدين أو الاهتمام به النظام السياسي العلماني الذي يفصله عن الدولة، بل وعن الحياة العامة كلها.

٤ - كان كثير من المفكرين الغربيين يأملون في أن يحل العلم الطبيعي محل الدين، وينجح في حل مشكلات البشرية التي عجز الدين عن حلها. لكن تجربة الحربين العالميتين العظميين، واعتمادهما على التقنية الحربية التي وفرها العلم الطبيعي أضعفت من هذا الأمل. ثم كانت كارثة هيروشيما، فاقتنع كثير من المفكرين والعوام الغربيين بأن العلم الطبيعي إنما هو سلاحٌ يعتمد حسن استعماله أو سوؤه على قيمٍ لا تؤخذ منه هو، فلا بد أن يكون لها مصدر آخر.

٥ - والشيوعية ـ التي هي نتاج غربي ـ والتي تعلّق بأوهامها الآلاف المؤلفة من الناس في الشرق والغرب؛ باءت هي الأخرى بإخفاق ذريع.

٦ - لم يبق للغرب الآن مبدأ يتعلق به ويدافع عنه ويعتز به إلا الديمقراطية الليبرالية وما يصاحبها من نظام رأسمالي. لكن حتى هذين يجدان كثيراً من النقد والمراجعة لعدم وفائهما ببعض القيم الإنسانية، ولا سيما إنصاف الفقراء، ولما نتج عنهما من تعميق للروح الفردية وما يصحبها من مشكلات اجتماعية.

٧ - الروح السائدة في الغرب الآن ليست روحاً متفائلة، بل إن التشاؤم قد يصل بهم إلى الحد الذي عبر عنه كاتب فرنسي أزعج ذلك الشعب وأثار تشاؤمه حين كتب يقول كما نقل عنه مؤلف إنجليزي: (إن أوروبا بدأت تدخل في عصر ظلام جديد يتميز بالأوبئة والمتسولين وانهيار المدن، وبعث الخرافة، وعودة التهديد القادم من الشرق، من آسيا ومن الإسلام)[1].

ولعلنا نستطيع أن نقول إنه حتى لو لم يطرأ هذا الفتور في حماس الغربيين لدينهم ولرسالتهم، فإنه ما كان لحضارتهم أن تصير حضارة عالمية إذا ما فقدت القوة المادية؛ لأنها لا تملك في نفسها مقومات العالمية. لكن هذا موضوع آخر لا يسعنا الدخول في تفاصيله الآن، غير أن كثيراً من هذا القصور سيتضح إذا ما أظهرنا بعض مقومات عالمية الإسلام؛ إذ بضدها تتميز الأشياء. إلى هذا نتجه الآن وبه نختم مقالنا هذا.

ما الذي يؤهِّل الحضارة الإسلامية لأن تكون حضارة عالمية؟

أرى أننا ينبغي أن نميز أولاً بين الإسلام والحضارة الإسلامية؛ لأنه إذا كانت الحضارة هي في جوهرها المعتقدات والقيم والتصورات المتمثلة فعلاً - أو قل إلى حد كبير - في واقع أمة من الأمم، فما كل ما جاء به الدين المنزل من عند الله متمثلاً في الأمة التي تعلن إيمانها به. فالدين دينان: دينٌ منزَّل من عند الله لا يتغير ولا يتبدل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ودينٌ متمثِّل في واقع الناس يقترب

---

(1) Ruling Brittania, pp 316 -7.

من الدين المنزل أو يبتعد عنه، ولا يطابقه إلا في الرسول الذي جاء به، والذي صدق عليه قول زوجه أم المؤمنين: (كان خلقه القرآن)[1]، أما غيره فمنهم من يقرب منه قرباً شديداً، ومنهم من يبتعد عنه بعداً كبيراً وإن كان منتسباً إليه. فالحضارة الإسلامية المتمثلة في واقع المسلمين تتأهل للعالمية بقدر قربها من الدين المنزل الذي تنتسب به.

مقومات العالمية في هذا الدين:

ما مقومات العالمية في هذا الدين؟ إنها مقومات كثيرة وعظيمة، لكننا نكتفي في هذا المقال بالإشارة إلى بعضها:

١ - أنه بينما كان الرسل من أمثال موسى وعيسى - عليهم صلوات الله وسلامه - يرسلون إلى أقوامهم خاصة فإن محمداً ﷺ أُرسل إلى الناس كافة، أُرسل رحمةً للعالمين، وجعله الله خاتماً للنبيين. فحتى لو كان اليهود والنصارى المنتسبون إلى هذين الرسولين مستمسكين بدينهم الحق؛ لما جاز لهم أن يجعلوا منهما دينين عالميين بعد نزول الدين الخاتم؛ لأن الله ـ تعالى ـ إنما أرسل هذين الرسولين إلى قومهما خاصة وإلى فترة محدودة. فالمسلم المستمسك بدينه العارف بهذه الحقيقة يستبشر بالتطور الذي حدث في وسائل الاتصال والانتقال الذي جعل من العالم قرية واحدة كما يقولون. يستبشر به؛ لأنه يرى فيه تصديقاً لنبوة محمد ﷺ؛ فلا أحد غير الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يمكن أن يعلم أن العالم سيتقارب هذا التقارب فلا يحتاج إلا إلى رسول واحد.

٢ - أن إمكانية تقريب المسافات أمر حاضر في حسِّ المؤمن الذي يقرأ قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، وحين يذكر كيف أن المكذِّبين به ﷺ ضاقت أعطانهم عن

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: ٧٤٦، وأحمد في المسند، رقم: ٢٣٤٦٠، واللفظ له.

أن يروا إمكان ذلك، وحسبوا أن الممكن محصور في المألوف. ويقرأ المؤمن في كتاب ربه أن رجلاً عنده علم من الكتاب استطاع أن ينقل عرشاً بأكمله في أقل من طرفة عين من اليمن إلى الشام، ثم يقرأ في كتاب ربه ما هو أعجب من ذلك أن الرسول ﷺ عُرج به إلى السماء السابعة ورجع في ليلة واحدة؛ وهي مسافة لو قطعها مخلوق بسرعة الضوء لاستغرقت منه البلايين من السنين الضوئية. ويصدق المسلم قول رسوله ﷺ: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها)[1].

٣ - أن هذا الدين هو فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ فهو يخاطبهم بوصفهم بشراً وضع الله في قلوبهم أساسه؛ فهو ليس بالأمر الغريب عليهم. وما أكثر الذين شعروا بهذا حين أسلموا وفاضت أعينهم مما عرفوا من الحق.

٤ - ومما يزيد المسلم اقتناعاً بعالمية دينه أنه أثبت في الواقع أنه ليس بالدين الذي تحده ظروف جغرافية أو مناخية، أو زمانية أو ثقافية؛ فقد اعتنق هذا الدين أناس بينهم كل أنواع تلك الاختلافات، فلم يجدوا في شيء منها ما يحول بينهم وبين الإيمان به أو وجدانهم شيئاً غريباً عليهم. فالمسلمون في كل بقاع الأرض الآن أقرب إلى دينهم من النصارى أو اليهود لدينهم. فما زال المسلمون رغم كل تلك الظروف المختلفة يصلون الصلوات الخمس، ويصومون شهر رمضان، ويحجون إلى بيت الله الحرام، ويقرؤون الكتاب المنزل على رسولهم من غير تحريف ولا تبديل.

٥ - وإذا كان تطور العلوم الطبيعية يقف الآن حجر عثرة في طريق بعض الأديان الباطلة؛ فإنه يقف شاهداً على صدق هذا الدين؛ لأنه لا يجد فيه ما يخالف شيئاً من حقائقه، بل يجد فيه تقريراً لبعض تلك الحقائق قبل أن يتمكن الإنسان من اكتشافها

---

(١) أخرجه مسلم، رقم: ٢٨٨٩.

بوسائله البشرية. ولا يجد فيه مخالفة لمنهجه العقلاني التجريبي؛ إذ يجده ديناً لا يأتي بمحالات العقول، ولا ينكر ما يشهد به الحس. فإذا ما شعر الناس بأهمية الدين ـ كما يشعر بذلك كثير منهم الآن ـ وإذا ما صدهم عما عرفوه من أديان تناقضها المنطقي، أو مخالفتها للواقع المحسوس فسيجد ديناً فيه كل ما يريد من هدى واستقامة وراحة نفسية، وهو خالٍ من تلك النقائص. فسيكون العلم الطبيعي بإذن الله تعالى سبباً من أسباب دخول الناس في هذا الدين على المستوى العالمي.

٦ - والغرب وإن كان في مجموعه مهيمناً تلك الهيمنة التي ذكرناها سابقاً إلا أنه ليس شيئاً واحداً منسجماً متعاوناً، وإنما هو شعوب ودول وجماعات تختلف مصالحها ويثور التنافس والتحاسد بينها، ويرتاب بعضها من قوة بعضها ويخشى من سيطرتها.

عوائق في طريق عالمية الدين:

إذا كانت تلك هي بعض المقومات التي تؤهل الإسلام ليكون دين القرية العالمية، ومركز حضارتها؛ فإن في واقع الأمة المنتمية إليه الآن ما يعرقل سيرها بدينها نحو تلك العالمية:

١ - أول تلك العوائق هو كون الحضارة الغربية قد نجحت في جعل بعض المنتسبين إليه عملاء لها في داخل الأوطان الإسلامية، ومكنت لهم فيها؛ فهم الذين قسّموا الأمة وجعلوها متنازعة، وشغلوها بصراعات داخلية سياسية واجتماعية، فحالوا بذلك بينها وبين أن تسعى متكاتفة إلى الأخذ بأسباب التقدم المادي من علم طبيعي وتقنية وإنتاج؛ لأن وحدة الأمة ـ وإن كانت كافرة ـ شرط في هذا كما تشهد بذلك تجارب اليابان والأمم الغربية.

٢ - وثانيها أن هذا النزاع كان وما يزال السبب في فقدان القدر اللازم من الحرية التي هي أيضاً شرط لذلك التقدم. لكن الغربيين الذين كانوا سبباً في فقدانها يعزون

هذا الفقدان الآن إلى طبيعة العرب أو طبيعة الإسلام! وقديماً قال العربي: (رمتني بدائها وانسلَّت).

٣ - وثالثها أن كثرة كاثرة من المنتمين إلى الإسلام قد حادوا عن جوهره التوحيدي، ففقدوا بذلك الشرط الذي علق الله - تعالى - نصره لهم عليه في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٤ - ورابعها أن الغرب يبالغ في خوفه من الإسلام، ويزيد في هذا التخويف أناس يبالغون في خطر البعث الإسلامي الجديد متخذين من هذا التخويف وسيلة لتحقيق مآرب لهم لا تمت إلى مصلحة الغرب في شيء؛ وأكثر من يعينهم على هذا ويعطيهم أدلة يفرحون بها أناس لا عقل لهم ينتمون إلى حركة البعث هذه يكثرون من التهديد والوعيد للغرب من غير أن تكون لهم مقدرة على تحقيق أدنى شيء منه. وبسبب هذا الخوف المَرَضي من الإسلام يبالغ الغرب في ضغطه على الدول الإسلامية والتدخل في شؤونها ليقضي على كل بادرة نهضة إسلامية تطل برأسها فيها: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

٥ - مع كل هذا الخطر الغربي فإن بعض الدعاة عندنا يتصرفون وكأنه لا وجود للغرب نفسه؛ فلا يتتبعون أخباره ولا يهتمون بمعرفة سياساته ومخططاته، ولا يفكرون في الرد على أفكاره، وكأنهم لم يسمعوا بمثل ما قال عالم الجزيرة الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: (إن معرفة أحوال الكفار من أعظم أبواب الجهاد). وصار هؤلاء الدعاة - بسبب هذه الغفلة - مشغولين بمحاربة أناس هم معهم في صف البعث الإسلامي. إنّ نقدَ الخطأ - ولا سيما ما كان في مسائل العقيدة - أمر واجب وعمل عظيم؛ لكن نقد أخطاء المسلمين شيء، وجعلها الشغل الشاغل عن الخطر الداهم شيء آخر.

موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى

صدام الحضارات: هل هو أمر لازم؟

إننا نعيش في عصر ما تزال وسائل المواصلات والاتصالات فيه تتزايد سرعتها وكفاءتها يوماً بعد يوم، فيزداد بازديادها انتقال الناس والأشياء والأفكار سهولة وسرعة، فيزداد بذلك تشابك مصالح الناس، ويكثر اعتماد بعضهم على بعض، ويقوى تأثير بعضهم في بعض. لم يعد من الممكن لأية أمة تريد تحقيق مصالحها أن تعيش منعزلة غنية بنفسها عن غيرها، مهما كانت قوتها الاقتصادية وإمكانياتها العلمية والتقنية والبشرية. بل أصبح من الضروري لكل أمة أن تكون ذات نظرة عالمية، وأن تهتم لذلك بسياستها الخارجية اهتمامها بالسياسة الداخلية.

لكن الناس في عصرنا ما زالوا تتقاسمهم -حتى داخل البلد الواحد- الأديان والثقافات، وربما يقال وتتقاسمهم على المستوى العالمي مختلف الحضارات. هل من الممكن لسكان هذه القرية الأرضية المنقسمين هذا الانقسام أن يعيشوا مع ذلك متسالمين آمنين متعاونين على تحقيق مصالحهم؟ أم أن الصراع بين ثقافاتهم على المستوى المحلي

وبين حضاراتهم على المستوى العالمي ضربة لازب لا مفر منها؟ لا أحد يستطيع أن يجزم، فعلم المستقبل عند الله تعالى، وتصرفات البشر يصعب التنبؤ الجازم بها لما يعتريها من عدم العقلانية في كثير من الأحيان. لكن الأمر من الخطورة بمكان يستدعي النظر والتأمل. فلا بد للعلماء والمفكرين ورجال الدولة المسلمين من أن يولوه من العناية ما يستحق نظراً وعملاً وتخطيطاً.

المفكرون في الدول الكبرى من أكثر الناس اهتماماً بهذه القضية لأنهم يقدرون من خطرها ما لا يقدر غيرهم. ويمكن تلخيص توقعاتهم في أربعة آراء:

- فمنهم من يرى أن الصدام بين الحضارت آت لا محالة، فهو ينصح قومه بإعداد العدة للدفاع عن الحضارة الغربية[١].

- ومنهم من يرى أن الصراع الثقافي قد بدأ في داخل الحضارة الغربية نفسها فلم تعد الحضارة التي كانت قبل[٢].

- ومنهم من يرى أن الحضارة الغربية في شكلها الأمريكي المتفوق، والمتمثل في الليبرالية السياسية، واقتصاد السوق هي مطمح أنظار الأمم، والغاية التي يتسابقون إليها، وحين يصلونها فتلك نهاية التاريخ في هذا المضمار[٣].

- ومنهم من يرى أن التعايش السلمي بين الثقافات والحضارات ممكن إذا اتخذ الناس سبيل الديمقراطية العلمانية التعددية.

---

(١) مقال صراع الحضارات، صامويل هنتغتون:
Samuel Hintington, Clash of Civilizations? Foreign Affairs, Summer 1993.

(٢) أنظر مثلاً:
James Kurth, The Real Clash, The National Interest, No. 34, Fall 1994.

(٣) هذا هو رأي فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ، الذي أثار جدلاً كثيراً في الغرب حين صدوره.
Ftancis Fukuyama, The End of History and the Last Man, The Free Press, New York. 1992.

طبيعة العصبيات الثقافية:

ما الموقف الذي يجب على المسلمين اتخاذه إزاء الثقافات والحضارات المخالفة للإسلام في عصرنا هذا وفي ظروفنا هذه؟ إن الناس يهتدون في اتخاذهم لمواقفهم بما عندهم من علم وبما وهبهم الله من عقل. لكن المسلمين يهتدون إلى جانب ذلك بما حباهم الله تعالى به من هداية القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. وهداية القرآن ليست هداية دينية بالمعنى المحدود الشائع في عصرنا لهذه الكلمة. إنها هداية تشمل كل ما يحتاج إليه الناس أفراداً وجماعات في أمورهم الروحية والجسدية، في حياتهم الدنيوية والأخروية. من أنواع هداية القرآن المتصلة بموضوعنا هذا أن يعطينا حقائق عامة عن المجتمعات البشرية من النوع الذي يحاول علماء الاجتماع أن يصلوا إليه بدراساتهم التجريبية. يهتدي المسلمون بهذه الحقائق في نظرتهم للكون البشري، وفي تفسيرهم لما يحدث فيه، وفي تعاملهم معه. لا أقول إنهم يستغنون بهذه التوجيهات القرآنية عن دراسة الواقع واستخلاص الحقائق منه، لكن الهداية القرآنية تعطيهم في هذا الصدد حقائق كلية مهمة قد لا يستطيعون الوصول إليها بجهدهم البشري. من هذه الحقائق الاجتماعية:

أولاً: أن كل جماعة من البشر ترى أن ما هي عليه من المعتقد والقيم والعمل أفضل مما عليه غيرها، مهما كان ما هي عليه باطلاً بمقياس الشرع الحق:

﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[الأنعام: ١٠٨].

ثانياً: أنه كلما كان غيرهم أقرب إليهم كان أحب إليهم:

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

ثالثاً: أنهم لا يرضون رضىً كاملاً إلا عن من كان على شاكلتهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

رابعاً: أن حرصهم على أن يكون غيرهم معهم يدفعهم للضغط على المخالف -ولا سيما مخالفاً يُساكنهم- بأنواع من الضغوط تصل أحياناً حد الضرب أو السجن أو النفي أو حتى القتل:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

خامساً: أن من أهل الأديان والحضارات من يَعدُّ دينه أو حضارته من خصائص قوميته أو عرقه فلا يريد للآخرين أن يشركوه فيها، بل لا يراهم مساوين له حتى من الناحية الإنسانية فلذلك لا يرى نفسه مُلزماً بأن يلتزم في تعامله معهم بالقيم الخُلقية:

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

سادساً: لكن أولئك وهؤلاء جميعاً يريدون لمعتقداتهم أو لحضارتهم أن تكون هي المسيطرة وأن يكون أصحاب الحضارات الأخرى خداماً لمصالحهم. هذه الرغبة في السيادة والسيطرة تدفعهم لأن يعدوا العدة لضمان بقاء حضارتهم وللدفاع عنها في حال وجود خطر يهددها، وللعمل لإخضاع الآخرين لها. وهم يستعملون في ذلك كل إمكانياتهم التي يرونها مساعدة لتحقيق هذه الأهداف بما في ذلك اللجوء إلى الحرب.

أوضح مثال في عصرنا على هذه الرغبة الجامحة في السيطرة، وفي الحرص على ضمان دوامها؛ هي حال الغرب ممثلاً في دولته الكبرى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث إنهم لا يخفون شيئاً من هذا الذي ذكرناه، بل يعلنون عنه في صراحة، ويفصلون الأمر فيه تفصيلاً تظنه حين تقرؤه كلاماً لخصومهم أو لأعدائهم. وهذا نفسه إنما هو من فرط ثقتهم بأنفسهم. فالأستاذ هنتجتون مثلاً يقرر في مقاله الذي طبقت شهرته الآفاق أن الغرب هو المسيطر الآن على المؤسسات العالمية السياسية والاقتصادية، وأن القرارات التي تتخذها الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب تبرز للعالم على أنها المعبرة عن مصالح المجتمع الدولي. بل إن عبارة المجتمع الدولي (التي حلت محل عبارة العالم الحر) صارت هي نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة وسائر القوى الغربية. فعن طريق مؤسسة النقد وسائر المؤسسات الاقتصادية الدولية يسعى الغرب لخدمة مصالحه ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها مناسبة[1].

ويقول:

إن الهدف من الحد من انتشار الأسلحة إبان الحرب الباردة كان تحقيق توازن عسكري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها والاتحاد السوفيتي وحلفائه. أما في عالم ما بعد الحرب الباردة فقد صار الهدف الأول من الحد من انتشار الأسلحة هو منع الدول غير الغربية من تطوير قدرات عسكرية قادرة على تهديد المصالح الغربية. يحاول الغرب أن يحقق هذا عن طريق الاتفاقيات الدولية، والضغوط الاقتصادية، والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد[2].

---

(١) هنتجتون ص ٣٩، مرجع سابق.
(٢) هنتجتون ص ٤٦، مرجع سابق.

الموقف الإسلامي من حيث المبدأ:

تلك هي مواقف الأديان والحضارات من بعضها بصفة عامة. فما موقف الإسلام منها؟ مهمتي هنا ليست مهمة عالم السياسة الذي يصف المواقف الفعلية أو المتوقعة للأمم والشعوب والدول المنتمية للإسلام. إن المطلوب مني إنما هو بيان موقف الإسلام من حيث هو دين، أي الموقف الذي تهدي إليه نصوص الكتاب والسنة. إن سلوك المنتسبين إلى الإسلام متأثر بهذه النصوص على درجات متفاوتة، لكنه ليس بالضرورة متوافقاً معها دائماً. فما الموقف الذي تهدي إليه هذه النصوص الكريمة؟

أولاً: من المعتقدات:

أول ما يلاحظه الناظر في هذه النصوص أنها تميز بين الحكم على المعتقدات ومعاملة المعتقِدِين. إن معتقدات الناس -دينية كانت أو غير دينية- متعددة مختلفة، لكن الذي يعطيه الإسلام منها أهمية، ويقدمه على ما سواه، ويقسم الناس بمعياره تقسيماً أساساً، هو المعتقدات المتعلقة بالخالق سبحانه: موجود هو أو غير موجود؟ يُعبد وحده أم يُشرك في عبادته معه غيره؟ أحد هو في ذاته وصفاته أم يشركه في بعض ذلك بعض مخلوقاته؟ أرسل رسلاً وأنزل كتباً يجب أن تُتبع أم ترك الناس سدى؟

القول الأول من هذا كله هو الحق، والقول الثاني هو الباطل، ولا واسطة بينهما إذ (ماذا بعد الحق إلا الضلال). وكل ما كان لازماً عن المعتقد الحق فهو حق أيضاً، سواء كان صاحبه مؤمناً بالحق الأساس أو غير مؤمن، وكل ما كان لازماً عن المعتقد الباطل فهو باطل سواء كان صاحبه معتقداً للباطل الأساس أو غير معتقد. والمسلمون مدعوون لقبول الحق حتى لو قال به غير مسلم، ولإنكار الباطل حتى لو قال به عالم مسلم. ذلكم هو حكم الإسلام على المعتقدات.

ثانياً: من المعتقِدين:

أ - من المسلمين:

أما المعتقدون فهم فريقان: أصحاب المعتقد الحق وأصحاب المعتقدات الباطلة.
أصحاب المعتقد الحق هم المسلمون وهم نوعان:

- مسلمون بالمعنى العام؛ وهم كل من اتبع نبياً بعثه الله تعالى ولم يكذب بأحد من الأنبياء الذين سمع بهم.

- ومسلمون بالمعنى الخاص؛ وهم أتباع النبي محمد ﷺ من كل الجنسيات وكل الأقطار وفي كل الأمصار، منذ مبعثه وإلى قيام الساعة.

أصحاب المعتقد الحق هؤلاء مأمورون بأن يوالي بعضهم بعضاً موالاة كاملة قلبية وعملية، من أي جنس كانوا وفي أي عصر أو مصر وجدوا، أحياءً كانوا أو أمواتاً:

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولأنهم إنما اجتمعوا على الحق فموالاة بعضهم لبعض لا تكون إلا لنصرة الحق، أي إنهم مأمورون بأن لا يتعاونوا على باطل حتى لو كان ضد عدو لهم يمقتونه أشد المقت:

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

بل إن الموالاة تقتضي ليس فقط عدم التعاون والتناصر على الإثم والعدوان، وإنما تقتضي أن يمنع بعضهم بعضاً من ارتكاب الظلم والعدوان، وإن أدى ذلك إلى حمل السلاح على المعتدي المسلم:

قال الله تعالى:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [**الحجرات**: ٩].

وقال ﷺ: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قالوا: يارسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه[١].

ب – من غير المسلمين:

أما أصحاب المعتقد الباطل فهم كل من سوى أهل المعتقد الحق من أهل الشرك والإلحاد والكفر بأنبياء الله والتمرد على شرع الله. فما الموقف منهم؟ إن مما يلفت نظر الإنسان في الإسلام في هذا الصدد كونه يعترف بوجود ما يُسمى الآن بالآخر، بل بدوام وجوده. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [**يوسف**: ١٠٣].

والإسلام يختلف في هذا عن الأديان والأيدلجيات التي لا مكان فيها للآخر. بل قد نستطيع أن نجزم بأنه لا يوجد في دين أو أيدلجية غير الإسلام ما يوجد فيه من اهتمام بهذا الآخر وتفصيل للمواقف التي تتخذ معه في أحواله وأحوالهم المختلفة. فالشيوعية كانت تعد قبول الناس جميعاً لها أمراً حتمياً. وقريب من هذا رأي فوكوياما الذي يعد الليبرالية والرأسمالية نهاية المطاف لكل النظم المخالفة لها. إن مثل هذه التنبؤات تجعل صاحب المعتقد الذي تنبأ بها يضيق بالآخر ويعده سائراً ضد حركة

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، في كتاب المظالم.

التاريخ، ومحكوماً عليه بالفناء، فلا يبالي بالكيفية التي يعامله بها، بل قد لا يبالي بالتخلص منه معتقداً أنه إنما يساعد بذلك حركة التاريخ.

ماذا نفعل مع هؤلاء المخالفين لنا بعد أن أُمرنا بالاعتراف بوجودهم؟ كيف نتصرف إزاءهم في عصرنا هذا وفي ظروفنا هذه؟ أقول في عصرنا هذا وفي ظروفنا هذه بهذا التقييد لأن الإسلام يضع لكل حال موقفاً أو حكماً يصلح له ولا يصلح لحال تضاده. فمن فقه هذا الدين اختيار الموقف المناسب للحال التي يكون عليها الفرد أو تكون عليها الجماعة. هذه الخاصة من خواص الإسلام يمكن أن نطلق عليها بالتعبير الحديث العقلانية. وهي صفة يظن كثير من الناس -بل حتى من المتدينين- أنها أبعد ما تكون عن الدين. إذ المتدين في نظر هؤلاء إنسان يعتقد أن أوامر دينه ونواهيه كلها أوامر مطلقة، لا تعطي اعتباراً لزمان أو مكان، ولا تراعي ظرفاً ولا تأبه بنتائج مهما كانت خطيرة.

لكن السلوك العقلاني عكس ذلك تماماً. فالعقلاني إنسان يجعل السلوك والأعمال وسائل لتحقيق غايات، ويجعل هذه الغايات هي التي تحدد نوع السلوك وقيمته. لكن هنالك فرقاً بين ما يمكن تسميته بالعقلانية الشكلية والعقلانية الحقيقية. العقلانية الشكلية هي التي يلتزم صاحبها بما ذكرنا لكنه لا يضع اعتباراً لنوع الغاية التي يتغياها من عمله. فالسارق الذي يحذق الطريقة التي يحقق بها سرقته ويغيرها بحسب الظروف والملابسات، ويزن الخسائر والأرباح فلا يقدم على المخاطرة بسرقة تكاليف سرقتها أكثر من المسروق. عقلاني من الناحية الشكلية الظاهرية لكنه ليس عقلانياً في حقيقته. وكذلك الشخص الذي يُوصف بالانتهازية؛ إنه عقلاني من حيث كونه يسلك الطرق المناسبة لتحقيق مآربه مهما كانت، ومن غير تقيد بخلق في اختيار الوسائل. بعض المفكرين الغربيين صب جام غضبه على العقلانية وعدّها من

أسباب كثير من المصائب التي حلت بالغرب لأنه لم ينظر إلا إلى العقلانية الشكلية هذه، بل جعل العقلانية مخالفة بالضرورة للقيم والاعتبارت الروحية[1].

لكن العقلانية الإسلامية التي نتحدث عنها عقلانية خَيِّرة. ذلك بأن الإسلام، هو الهدى المنزل من عند الله، يحدد للناس غاياتهم الكبرى ويمدهم بالموازين التي يزنون بها وسائلهم، ولا يترك الأمر كله لتقديراتهم وآرائهم وأهوائهم. كثيراً ما يعبر العلماء عن غاية الإسلام الكبرى بقولهم إن الدين إنما جاء لتكميل المصالح وتقليل المفاسد. المصالح بمعناها الشرعي العام الذي يتضمن على وجه الخصوص مصالحهم الروحية. من ذلك مثلاً أنه في ظرفٍ أَمر المسلمين بأن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ولا يحملوا السلاح حتى على من اضطهدهم، وفي مرة أذن لهم بمقاتلته، وفي ثالثة أمرهم بقتاله دفاعاً عن أنفسهم، وفي أخرى أمرهم بجهاد الطلب. رضي من أقوام الجزية ولم يرض من آخرين، عاهد أقواماً ولم يعاهد آخرين. هَمَّ الرسول ﷺ ذات مرة أن يتنازل للكفار عن بعض أموال المسلمين، وهكذا. إن الذي ينظر في هذه المواقف إذا سردت هكذا سرداً يظنها متناقضة متضاربة. لكنه إذا نظر في ظروفها وملابساتها علم أن وضع واحد منها موضع الآخر هو التناقض. نعم إن بعض الناس جعل الأمر بالقتال هو الأمر الناسخ لكل ما سبقه، نسخاً أبدياً يبطل أحكامها، ولا يُبقي للمسلمين خياراً إلا القتال مهما كانت الأحوال والظروف. لكن هذا ليس بالرأي السديد. فكثيراً ما سالم المسلمون وكثيراً ما عاهدوا حتى بعد تمام الدين وموت الرسول الكريم ﷺ، وكثيراً ما أفتى لهم علماؤهم حتى بالتنازل عن بعض حقوقهم، وكان رائدهم في هذا كله تلك العقلانية الإسلامية التي تجعل الغاية من التصرفات تحقيق أكبر قدر من المنافع ودفع أكبر قدر من المفاسد بقدر المستطاع. إن الهدف الأعلى من كل هذه المعاملات

(1) Voltaire's Bastards, London, 1992

إنما هو إعلاء كلمة الله تعالى. إن الهدف ليس تحقيق مصلحة لقوم معينين ولا لعرق معين، ولا لبلد أو أرض مُعَينة، وإن كان تحقيق المصالح الدنيوية داخلاً بالضرورة في المعاملات البشرية.

الموقف في الظروف الراهنة:

لعلنا نستطيع - مهتدين بتلك القواعد الإسلامية - أن نلخص المواقف التي يجب علينا اتخاذها في ظروفنا هذه إزاء الحضارات الأخرى في أربعة واجبات: دعوتهم إلى الإسلام، وإعداد القوة لرد المعتدي منهم، والجنوح إلى السلام، وتبادل المنافع.

أولاً: الدعوة إلى الحق:

بما أن الهدف الأسمى للمسلمين إنما هو إعلاء كلمة الله، فإن أول واجب على أهل الحق نحو غيرهم هو دعوتهم إلى هذا الحق. إنه ما أن يدخل الإسلام قلب امرئ إلا ويجد نفسه مدفوعاً لدعوة الآخرين إليه؛ لأن هذه الدعوة هي جزء من دينه الذي يتقرب به إلى ربه. لكن الهداية عمل قلبي لا يمكن أن يجبر الإنسان عليه، ولذلك يقرر القرآن الكريم أنه: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ [**البقرة**: ٢٥٦].

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بَيِّن واضح دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول ليه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بينة. ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرهاً مقسوراً.

لذلك لا يستعمل في الهداية إلا الوسائل التي تجعل المدعو يقبل الحق بإرادة واختيار.

هذه الوسائل المناسبة هي تلك التي أجملتها الآية الكريمة الشهيرة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

يدخل في الحكمة استعمال الأدلة والبراهين العلمية والعقلية. ويدخل في الموعظة الحسنة كل ما من شأنه أن يلين قلوب المدعو ويعطفه على قبول الحق. ويدخل في المجادلة بالتي هي أحسن حسن الاستماع إلى ما عند الآخر من أدلة، والاعتراف له بما يقرره من حق، وعدم إحراجه، وسوقه بلطف من الحقائق التي يُسلم بها إلى تلك التي ينكرها، وهكذا.

إن الدعوة نقيض الاعتزال؛ فكل من يهتم بدعوة الناس إلى حق أو باطل، إلى أمر ديني أو دنيوي، لابد أن يتصل بهم ويهتم بهم اهتماماً يدعوه إلى دراسة تاريخ من يدعو من الأقوام، ومعرفة لغاتهم وثقافاتهم، وتقويم قدراتهم، وتقدير فضائلهم ومزاياهم، وهكذا. انظروا كيف تهتم الدول الكبرى في عصرنا بهذا كله لما لها من مصالح دنيوية فيه. فما دام الإسلام دين دعوة إلى الحق، كيف يكون دين اعتزال عن الخلق؟

مما يشجع المسلم على دعوة الآخرين والإحسان إليهم وعدم اليأس من هدايتهم؛ اعتقاده بأن الإنسان مخلوق خير في أصله، فكل ما فيه من خير هو مما فطره الله عليه في أصل خلقته، وكل ما فيه من شر فأمر عارض اكتسبه ببعده عن تلك الفطرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

ويقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة».

تتمثل هذه الخيرية أساساً في كون الإنسان خُلق ليكون عبداً لله، وكون هذه الحقيقة مركوزة في فطرته، لا تتم إنسانيته ولا تكتمل سعادته إلا بتلبية مقتضياتها. لكن هذه الخيرية الجوهرية يتصل بها ويدور في فلكها كل ما في الإنسان من أنواع الخير الأخرى: عقلانيته، حسه الخلقي، ذوقه الجمالي، حرصه على ما ينفعه، أريحيته، وهكذا. فالإنسان في التصور الإسلامي ليس مادة هلامية تشكلها الظروف والثقافات، كما تقول بذلك بعض النظريات الغربية، ولا هو مفطور على الشر أو وارث له كما تدعي بعض تلك النظريات أيضاً؛ وإنما هو مخلوق ذو فطرة ثابتة لا تتغير: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

نعم إن واقع الإنسان الخارجي لا يكون دائماً متسقاً مع جوهره الإنساني، لكن ذلك الجوهر يبقى كما هو، ويبقى معه الأمل في أن يعود الإنسان إليه مهما كانت انتماءاته وتصوراته الراهنة. وإذن فإن المسلم البصير بدينه، لا ينكر واقع الناس وتفرقهم ديانات وحضارات وشيعاً وأحزاباً، لكن بصره يظل يخترق هذه الحجب الواقعية، لينفذ إلى ما وراءها من حقيقة الناس الأصلية: إنهم عباد لله، فطرهم الله على معرفته وعبادته، وكل خير يدعون إليه. فدعوتهم إلى الخير وإن تعارضت مع ثقافة أو مصلحة طارئة يتعلقون بها، فهي متوافقة مع إنسانيتهم، وليست غريبة عنهم ولا مستوردة إليهم من مصدر غريب عليهم، وإنما هي مكبر لصوت الفطرة الذي يناديهم من داخل قلوبهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

إن تأكيد الإسلام على ثبات الفطرة وخيريتها، يجعلها هي السابقة على الانتماءات الدينية والثقافية والحضارية. فليست الثقافات والحضارات هي التي تصنع فطرة الإنسان وتحدد سلوكه وطرائق تفكيره، كما تقول بذلك بعض النظريات

الغربية، وإنما فطرته هي المعيار الذي يمكنه من الحكم على تلك الثقافات والحضارات. فما وافقها كان موافقاً للإنسان وسبباً لسعادته وما خالفها كان من أسباب شقائه؛ فهو مخير بين البقاء عليه أو الانفكاك عنه. فالانتماء الثقافي أو الحضاري ليس ضربة لازب، كما تُصوره تلك النظريات وتقسم الناس بسببه تقسيمات يحسبها الناظر في كلامهم تقسيمات طبيعية باقية ما بقي الليل والنهار والجبال والأنهار.

والدين الحق النازل من السماء على أنبياء الله جميعاً منذ نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ دين موافق لهذه الفطرة.

ثانياً: إعداد القوة الرادعة:

إن الواجب على المسلمين في كل عصر أن يكون لهم من القوة ما يحقق لهم أمرين اثنين:

أولهما: إرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه بغزوهم أو الاعتداء عليهم بأي شكل من أشكال الاعتداء:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [**الأنفال**: ٦٠].

هذا الإرهاب هو المسمى في الاصطلاح الحديث بالردع (deterrence) لا (terrorism).

وثانيهما: عدم فتنة الكفار. لقد كان من دعاء إبراهيم عليه السلام وقومه: **﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** [**الممتحنة**: ٥].

وكان من دعاء موسى عليه السلام وقومه: **﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** [**يونس**: ٨٥].

قال ابن كثير :

أي لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك .

ومن هنا كان إعداد القوة الرادعة أمراً مكملاً للدعوة إلى الحق ، لأنه بغير هذه القوة تكون الحال صادة عما يدعو إليه المقال . إن واقع عالمنا يؤكد لنا أهمية هذا الذي يهدينا إليه كتاب ربنا . إن دول العالم تتسابق الآن كلها على اقتناء السلاح ، منها ما يفعل ذلك بغرض الدفاع عن نفسه في حالة الاعتداء عليه ، ومنها من يفعل ذلك لمجرد الردع ، ومنها من يفعل ذلك لاكتساب المواقع الاستراتيجية ولنشر ما يؤمن به من مبادئ وقيم ونظم ، حتى تكون هي المبادئ والقيم والنظم العالمية .

ولأن أرضنا أصبحت كالقرية الواحدة التي تتشابك مصالح الناس فيها تشابكاً كبيراً لم تعد المنافسة على السيطرة فيها قاصرة على أجزاء محدودة منها بل صارت عليها كلها . لكن السيطرة العالمية هذه لها تكاليفها الباهظة . خذ مثالاً الولايات المتحدة مرة ثالثة . يخبرنا الأستاذ ستيفن آمبروز صاحب كتاب النهوض إلى العالمية : سياسة أمريكا الخارجية منذ عام ١٩٣٨م :

أنه بعد نصف قرن من الحرب العالمية الثانية أصبح للولايات المتحدة جيش ضخم من القوات العاملة البرية والجوية والبحرية ، وأن ميزانية وزارة الدفاع زادت عن ٣٠٠ بليون دولار . وأنه أصبح للولايات المتحدة تحالفات عسكرية مع أكثر من خمسين أمة ، وأن لها أكثر من مليون جندي من المشاة والطيارين والبحرية في أكثر من مائة قطر . وأن لها مقدرة هجومية كفيلة بأن تدمر العالم عدة مرات . وأنها استعملت قوتها العسكرية للتدخل في الهند الصينية ، ولبنان ، وجمهورية الدومينيكان ، وجرانادا ، وأمريكا الوسطى ، والخليج ، وأنها أعانت على غزو لكوبا ، وأنها وزعت

كميات كبيرة من الأسلحة على دول صديقة في العالم، وأنها خاضت حروباً باهظة في كوريا وفيتنام. ولكن بالرغم من كل الأموال التي صُرفت على الأسلحة، ومهما كان بعد المدى الذي بسطت عليه أمريكا قوتها؛ فإن الأمن القومي لأمريكا ظل في خطر دائم(1).

ثالثاً: الجنوح للسلم:

لكن إعداد القوة لتلك الأهداف التي ذكرناها يجب ألا يمنعنا من الجنوح المخلص للسلم ودعوة العالم كله إلى حل مشكلاته كلها بالتفاهم والعدل والقسط. إنه لا يمكن لإنسان عاقل يعرف ما لا يزال العالم ينتجه ويخزنه من أسلحة الدمار، ويعرف الأضرار البالغة الناتجة عن استعمالها، إلا أن يكون مع الداعين إلى تجنب الحروب، محلية كانت أو عالمية. لكن تجنب الحروب يقتضي تجنب أسبابها من كل أنواع الظلم والعدوان. هذا أمر لا تجدي فيه القرارات السياسية وحدها، بل ينبغي أن تتضافر الجهود لجعله جزءاً من ثقافة الناس وقناعاتهم التي يلتزم بها قادتهم ورؤساؤهم.

ونحن المسلمين أولى الناس بهذه الدعوة لتلك المصالح التي يشاركنا فيها غيرنا، ولسبب آخر خاص بنا، وهو أن السلم سيساعد بإذن الله على نشر هذا الحق الذي حبانا الله بمعرفته والإيمان به، وكلفنا بالدعوة إليه. كيف؟ إن أهم ما يميز عالمنا المعاصر هذا هو التوسع العظيم في العلوم الطبيعية. وقد كان لهذه العلوم جوانب ثلاثة؛ أحدها: الحقائق التي اكتشفتها وجعلتها جزءاً من ثقافة الناس ومعارفهم، وثانياً: المنهج العقلاني الذي سلكه العلماء للوصول إلى تلك الحقائق، والذي صار أمراً مسلماً بصوابه عند عامة المثقفين، وثالثها: التقنية التي بنيت على تلك الحقائق والتي جعلها الله سبباً لتيسير الحياة في كثير من جوانبها. لذلك كله أُولع الناس ولا سيما الغربيين منهم بهذا العلم أيما إيلاع حتى كانوا يظنونه إلى مطلع هذا القرن سيحل حتى

(1) Stephen Ambrose, Rise to Globalis, Penguin Books. 1993, p. xi.

المشكلات الخُلُقية والروحية، فيحل بذلك محل الدين. لكن هذه الثقة تزعزعت بعد الحرب العالمية الأولى، ثم بدأت تتضاءل كلما رأى الناس أن التطور العلمي لم يصحبه تطور خُلقي ولا روحي، بل واكبه تقهقر روحي وتدهور خُلقي. لهذا بدأ الناس في العالم كله يبحثون عن الدين مرة أخرى، حتى صار ما يُسمى بالأصولية ظاهرة عالمية، فما من أهل دين إلا وقد بدؤوا يرجعون إلى دينهم ينشدون فيه ما لم يجدوه في العلوم الطبيعية. لكن الناس -ولاسيما المثقفين منهم- لا يمكنهم أن يعودوا إلى الدين مخلفين وراءهم ذلك المنهج العلمي الذي زودتهم به تلك العلوم، ولا يمكنهم أن يمحوا من ذاكرتهم الحقائق التي أطلعتهم عليها. بيد أنهم إذا ما تزودوا بزاد المنهج العلمي وحملوا معهم حقائقه في عودتهم إلى دينهم واجهتهم مشكلة هي أن أديانهم تقوم على دعاوى لا برهان عليها، وعلى معتقدات لا اتساق فيها، وكلا الأمرين لا يقبله المنهج العقلاني الذي رسخته في أذهانهم العلوم الطبيعية. ثم وجدوا تلك الأديان تقرر مسائل أثبت هذا العلم بطلانها. لقد نتج عن هذه الرغبة في العودة إلى الدين مع البقاء على المنهج العلمي مجالاً جديداً من الدراسات صار مقرراً في بعض الجامعات، أعني دراسة الصلة بين الدين والعلم التجريبي، ومحاولة التوفيق بينهما. إن لسان حال هؤلاء العقلاء من الدارسين يقول: أيا ليت لنا ديناً لا يأتي بمحالات العقول، ولا بما يكذبه الواقع المشهود، ويكون مع ذلك محققاً لما نرجوه من الدين من إشباع لأرواحنا واستقامة لأخلاقنا. وسيقول لهم المسلمون إن ما تمنيتموه عندنا فهاؤم اقرؤوا كتاب ربنا وسنة نبينا.

كلي أمل في أن يثوب كثير من الغربيين إلى الإسلام عن هذا الطريق كما يثوبون إليه عن طرق أخرى. ويوم ذاك لن تكون الحضارة الغربية حضارة نصرانية يهودية فحسب كما هي الآن، بل إسلامية أيضاً. وإذا كان الدين هو أهم مكون للحضارة كما يقول هنتجتون فإن الشقة بين الحضارة الغربية والإسلامية ستضيق ويضيق بسببها احتمال الصدام.

رابعاً: تبادل المنافع:

إن التعايش السلمي بين أهل الأديان والحضارات كلها يُيسر عليهم تبادل المنافع المادية والفكرية، كما ييسر عليهم التعاون على حل المشكلات التي يبتلون بها جميعاً. إن ضمور العالم من حيث الاتصالات والمواصلات لم يخل من كثير من الآثار السيئة. فالأمراض تنتقل بسرعة من بلد إلى آخر، وتنتقل كذلك المخدرات والمجرمون، وأفلام الرذيلة والضلال. ثم هناك مشكلة تلوث البيئة وما نتج عنها من خرق لطبقة الأوزون، وما يُقال إنه سيترتب على ذلك من مشكلات على مستوى الكرة الأرضية كلها. كل هذه المصائب المشتركة تستدعي تعاوناً بين الناس في المجتمع الدولي.

لكن التعاون لا يقتصر على مواجهة هذه المصائب المشتركة، بل إن التعايش السلمي يساعد كل أمة على أن تتعاون مع من شاءت من الأمم التي ترى في تعاونها معها تحقيقاً لمصلحة الطرفين.

غير أنه من البديهي أن هذه الصورة المثالية للتعاون لن تتحقق إذا ظل أهل الحضارة الغربية على خوف دائم من أن تضعف أو تزول سيطرتهم، وعلى حرص دائم لذلك بأن لا يتطور غيرهم. إن هنتنجتن يرى أن الصدام القادم سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية من جهة أخرى، أي أن الحضارتين الإسلامية والكنفشيوسية ستتعاونان على مواجهة الحضارة الغربية. لماذا تتعاون هاتان الحضارتان؟ ألأن الصلة بينهما أقوى من صلة كل منهما بالحضارة الغربية؟ إن هنتنجتن يُخبرنا بأن أهم مكون للحضارة هو الدين. فهل يقول إن الكنفشيوسية أقرب إلى الإسلام من النصرانية؟ ما أظن أحداً يعرف الديانتين، ويعرف مكانة النصرانية واليهودية في الإسلام بالنسبة إلى غيرهما من الأديان، يمكن أن يقول هذا. وإذن فإن السبب الحقيقي لهذا التعاون إن حدث لن يكون نابعاً من طبيعة الحضارتين، بل

من معاملة الحضارة الغربية لهما. أريد أن أقول إن الحضارة الغربية هي التي تدفع الآخرين لمعاداتها حين تعمل على الوقوف في طريق التطور الطبيعي لغيرها، وحين تعد كل ما عداها خطراً عليها فتتحدث عن الغرب والآخر The West and the rest تماماً كما كان بعضهم ولعله لا يزال يصف كل من ليس على دينه بالأميين ولا يرى أنه مُلزم في التعامل معهم بخلق ولا دين.

صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية

إذا أردنا للحديث عن صراع الحضارات أن يكون حديثاً تبنى عليه مواقف فكرية وعملية فيحسن أن لا يكون حديثاً عاماً، بل يحسن أن نشير فيه إلى وقائع وحالات محددة. لذلك نقول:

ما الحضارات التي يقال إنها تتصارع الآن؟

لكي نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نتفق على ما نعنيه بكلمة الحضارة، في بحثنا هذا على الأقل. الحضارة كما نستعملها هنا هي الكلمة العربية المقابلة للكلمة الإنجليزية civilization. فالحضارة بحسب ما نراه هنا مكونة من جوهر ومظهر. أما الجوهر فهو معتقداتها وقيمها وأنماط السلوك الشائعة فيها، وأما مظهرها فهو إنجازاتها المادية من قوة عسكرية واقتصادية، ونظم سياسية وعمران.

الحضارة بهذا المعنى مفهوم محايد، أعني أنه لا يدل بنفسه على مدح أو ذم، شأنه في ذلك شأن عبارات الأمة، والأئمة، والخُلق والدين وغير ذلك. فالأمة قد توصف بالاستقامة أو الزيغ، والأئمة قد يكونون هداة إلى الحق أو موردين لمتبوعهم

إلى النار، والخُلق قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، والدين قد يكون حقاً وقد يكون باطلاً. وكذلك الحضارة قد توصف بالمادية أو الإيمانية، وبالقوة أو الضعف.

لا نستطيع ـ فيما أرى ـ أن نشير في واقعنا الراهن إلى حضارة ماثلة محددة المعالم إلا حضارة واحدة هي الحضارة الغربية. وذلك أننا حين نتحدث عن الحضارة الغربية نستطيع أن نشير إلى دولٍ قائمة تتمثل فيها هذه الحضارة: فهنالك دول أوربا الغربية، والولايات المتحدة، وكندا، وأستراليا، ونيوزيلاندا. يجمع بين هذه الدول كونها كلها ذات نظام سياسي واحد هو الديمقراطية الليبرالية العلمانية، وأن بينها علاقات وتعاون، وأن لها تاريخاً واحداً مشتركاً، وأن الديانة النصرانية هي أكثر الديانات انتشاراً بين شعوبها. بل إن هذه الدول لتشترك شعوبها حتى في أزياء رجالها ونسائها، وفي كثير من أذواقها الأدبية والفنية. هذه الدول في مجموعها هي أقوى دول العالم اقتصاداً، وسلاحاً، وتأثيراً إعلامياً. حضارتها هذه هي الحضارة الغالبة المهيمنة على العالم.

هل نستطيع أن نقول مثل هذا عن أية حضارة أخرى في واقعنا الراهن؟ كلا. نستطيع أن نشير إلى أقطارٍ أخرى إشارات سلبية بأن نقول إن حضارتها ليست غربية بالمعنى الكامل. فاليابان تشبه دول الحضارة الغربية في نظامها السياسي وفي تقدمها الاقتصادي، وتخالفها في تاريخها، وفي الدين السائد بين أهلها. وهي صديقة للغرب ومتعاونة معه لا مصارعة. وقل مثل ذلك عن الهند.

أما الصين فإنها تشبه الدول الغربية من حيث نموها الاقتصادي، بيد أنها تخالفها في نظامها السياسي والاقتصادي. لكن حتى هذين النظامين ليسا بنابعين من ثقافة صينية أو تاريخ صيني وإنما هما مستوردان من فكر غربي هو الفكر الماركسي.

مجموعة الدول التي كانت تسمى بالاتحاد السوفيتي كانت متشابهة في نظامها السياسي والاقتصادي، وكانت لها قوة عسكرية ورسالة أيدُلوجية ومطامع توسعية، فكانت هي فعلاً المنافسة للغرب، لكنها حتى في أوج عظمتها لم تكن تمثل حضارة متميزة. أما بعد تفكك اتحادها وسقوط نظامها السياسي والاقتصادي وذهاب بريقها الأيدلوجي؛ فقد صارت دولاً ضعيفة تحاول أن تتأسى بدول الحضارة الغربية في أنظمتها، كما تحاول تحسين علاقاتها بتلك الدول، ولا سيما الولايات المتحدة، طمعاً في مالها وجاهها.

ماذا بقي؟ بقيت الدول الإسلامية. هل نستطيع أن نقول إنها تمثل اليوم حضارة بالمعنى الذي وصفنا به الحضارة الغربية؟ نقول آسفين: كلا. فإنه ليس لها نظام سياسي واحد إسلامياً كان أو غير إسلامي، وليست ملتزمة كلها بالإسلام في نظمها الاقتصادية أو التعليمية أو الإعلامية أو غيرها. وليس بينها تعاون حقيقي يذكر رغم انضمامها كلها إلى عضوية المؤتمر الإسلامي.

فليس هنالك إذن حضارة إسلامية قائمة قياماً مادياً يميزها تمييزاً كاملاً عن الحضارة الغربية، ودعك أن تكون في صراع معها. نعم كانت لنا في الماضي حضارة، بل كانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الوحيدة إلى بداية القرن السابع عشر الميلادي، حضارة اعترف معاصروها بوجودها وقوتها، ويعترف بوجودها المؤرخون والمختصون بالدراسات الإسلامية حتى من الغربيين المعادين.

وعليه فنستطيع أن نقول إنه ليس هنالك في واقع الأمر صراع بين حضارة غربية وأخرى إسلامية؛ لأنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية بالمعنى الذي توجد به حضارة غربية، أو بالمعنى الذي كانت توجد به حضارة إسلامية.

فما مشكلتنا مع الحضارة الغربية إذن؟

مشكلتنا أن الحضارة الغربية ليست راضية حتى بهذا القليل الذي تبقى لنا من الحضارة الإسلامية، بل تريد لنا ولغيرنا أن لا نكون عقبة في طريق مصالحها القيمية أو المادية، بل أن نكون تابعين في كل ذلك لها. ومع أنه لا توجد اليوم حضارة إسلامية، إلا أن الحضارة الغربية ذات حساسية بالغة من أية بادرة بعث لتلك الحضارة لسبب تاريخي. إن قادة الفكر الغربي لا ينسون، كما أن كثيرين منا لا ينسون، أن الحضارة الإسلامية كانت كما قلنا هي الحضارة العالمية حتى القرن السابع عشر الميلادي. استمع إلى المستشرق اليهودي برنارد لويس وهو يقول في شيء من شماتة:

ظل الإسلام لقرون طويلة أعظم حضارة على وجه الأرض وأغنى حضارة، وأقواها، وأكثرها إبداعاً في كل حقل ذي بال من حقول الجهد البشري. عسكرها، أساتذتها وتجارها كانوا يتقدمون في موقع أمامي في آسيا وإفريقيا وأوروبا، ليحملوا ما رأوه من الحضارة والدين للكفار البرابرة الذين كانوا يعيشون خارج حدود العالم الإسلامي.

ثم يمضي ليقول:

ثم تغير كل شيء. فالمسلمون بدلاً من أن يغزو الدول المسيحية ويسيطروا عليها، صاروا هم الذين تغزوهم القوى المسيحية وتسيطر عليهم. مشاعر الإحباط والغضب لما عدوه مخالفاً للقانون الطبيعي والشرعي ظلت تتنامى لمدة قرون، ووصلا قمتهما في أيامنا[1].

---

(١) لويس، برنارد. جرية الواشنطن بوست ١٠ سبتمبر ٢٠٠٢م.

For many centuries Islam was the greatest civilization on Earth -- the richest, the most powerful, the most creative in every significant field of human endeavor. Its armies, its teachers and its traders were advancing on every front in Asia, in Africa, in Europe, bringing, as they saw it, civilization and religion to the infidel barbarians who lived beyond the Muslim frontier. (The Washington Post, Tuesday, Sept. 10, 2002, p. A15).=

فقادة الحضارة الغربية يخشون على حضارتهم من كل بادرة إحياء لتلك الحضارة التي كانت سائدة. ومما يزيد من خوفهم قول المختصين منهم في التاريخ الإسلامي، إن للإسلام مقدرة عجيبة على العودة كلما هُزم.

ما الإجراءات التي يجب أن تتخذ لضمان عدم عودته؟

اختلفت الإجراءات في تفاصيلها بحسب الظروف العالمية، وبحسب التكتيكات الوقتية، لكن أمرين استراتيجيين اثنين لم يتغيرا، هما ضمان عدم رجوع الأمة إلى فهم صحيح للقرآن الكريم، وضمان استمرارها ضعيفة محتاجة إلى الغرب، أي ضمان عدم توفر الشرطين اللازمين لتمكين الأمة ومن ثم لحضارتها، وهما الكتاب الهادي والسيف الناصر[1]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

في عهد الاحتلال المباشر لبلدان العالم الإسلامي، كان أول ما فعله المستعمرون إقصاء العلم الشرعي عن المدارس والجامعات، وحصره في دوائر ضيقة روعي أن لا يكون لها علاقة بالمجتمع ولا بالعصر. وفي هذا العهد استغلت ثروات البلاد لتغذي مصانع أوربا وتقوي اقتصادها.

=And then everything changed, and Muslims, instead of invading and dominating Christendom, were invaded and dominated by Christian powers. The resulting frustration and anger at what seemed to them a reversal of both natural and divine law have been growing for centuries, and have reached a climax in our own times (The Washington Post, Tuesday, Sept. 10, 2002, p. A15).

(١) لكن هذا لا يعني أن الحضارة الغربية هي السبب الوحيد لفقدان المسلمين لهذين الشرطين، فمن أسباب ذلك ما قد يكون محلياً، بل ما لا بد أن يكون محلياً، لأن ضعف الأمة الديني والمادي كان هو السبب في هزيمتها. ولما عرف العدو ذلك حرص على استمرار أسباب الضعف وساعدته على ذلك عوامل محلية في الأمة نفسها.

بعد انتهاء عصر الاستعمار والدخول في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، انشغل الغرب بعدو ماثلٍ أكبر، فلم ير بأساً من التعاون التكتيكي مع بعض حملة هذا الفهم الصحيح كما حدث في أفغانستان. لكن الهدف الاستراتيجي لم يُنس أبداً؛ فقد ظل الغرب الديمقراطي بقيادة الولايات المتحدة هو - إلى حد كبير - الذي يصنع الحكومات غير الديمقراطية ويدعمها، مراعاة لمصالحه، وخوفاً من أن تكون الديمقراطية ذريعة لوصول الإسلام إلى السلطة.

أمريكا والنظام العالمي الجديد:

وبسقوط الاتحاد السوفيتي واستتباب الأمر للحضارة الغربية، دخل العالم مرحلة جديدة، مرحلة القوة العالمية الكبرى الواحدة، التي لا تدانيها من حيث إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية والتقنية والإعلامية قوة أخرى. وبدأت تظهر تبعاً لذلك معالمُ نظامٍ عالميٍّ جديد، ما تزال تفاصيله محل نقاش كبير في الولايات المتحدة. لكن يمكن تلخيص اتجاهات هذا النقاش في اتجاهين كبيرين: الدعوة إلى الانفرادية، وضرورة الاستمرار في العمل ضمن الأطر العالمية السائدة.

الاتجاه الانفرادي:

يرى أصحاب الاتجاه الانفرادي الذي تقوده عصبة ممن يسمون بالمحافظين الجدد، أن تستبد الولايات المتحدة باتخاذ ما تراه من قرارات وسياسات تحقق مصالحها، وتنشر قيمها من غير تقيد بأعراف ولا قوانين دولية، ولا بمؤسسات عالمية كالأمم المتحدة. وهم يعتمدون في تسويغهم لهذا الرأي وتسويقه على أمرين:

أولهما: القوة الاقتصادية والعسكرية الهائلة للولايات المتحدة التي لم تعد تدانيها فيها قوة أخرى، هذه القوة التي جعلت الجميع يعترفون بأنه لم تعد توجد الآن إلا قوة عالمية كبرى واحدة. لكن الأعراف الدولية والقوانين العالمية السائدة حتى الآن هي

- في رأي المحافظين الجدد - من مخلفات نظام عالمي قديم، اقتضتها ظروف لم يعد لها الآن وجود. ولذلك فلا جناح على الولايات المتحدة أن لا تلتزم بها ما دام الأمر قد استتب لها. إن الولايات المتحدة قد بلغت من القوة شأواً لا تدانيها فيه دولة أخرى. فميزانية وزارة الدفاع هي أكبر من مجموع ميزانيات الدول الاثنتين والعشرين التي تأتي بعدها، ويقولون إنها ستكون بحلول عام خمسة بعد الألفين أكبر من مجموع ميزانيات الدفاع في كل أنحاء العالم! وإذا كانت عادٌ قد قالت فيما مضى ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فإن أمريكا تقول اليوم: لا أحد أشد منا قوة في الحاضر، ولم يكن أحد أشد منا قوة في الماضي. ولكن كما قال ربنا لعاد، نقول لمن أطغتهم القوة اليوم: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

يقول أصحاب هذا الرأي من المحافظين الجدد: إن على أمريكا أن تكون هي لا المنظمات العالمية، ولا حتى حُلفاؤها من الدول الغربية، التي تقرر ما هو حسن وما هو سيئ بالنسبة للعالم، وأن تتصرف بحسب حكمها من غير التزام بقرارات يفرضها عليها غيرها. فلسان حالهم يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. هذا لا يعني - كما يقولون - أن لا تستشير الولايات المتحدة غيرها، وأن لا تتعاون مع من يريد التعاون معها، ولكنه يعني بصورة حاسمة أنه لا أحد له الحق الآن في أن يلزمها بما لا تلزم به نفسها. ولئن لم تفعل هذا فسيكون مثلها كمثل جلفر Gulliver الذي تقيده أقزامُ لليبوت، كما قال أحدهم.

وثانيهما: أن عامة الأمريكان يعتقدون أنهم أصحاب رسالة عالمية. رسالتهم هي رسالة الحرية، فهم لا يرون أنفسهم بأقوى الدول فقط، وإنما هم أخيرها، بل هم خير أمة عرفها التاريخ البشري، فهم بزعمهم أكثر الناس تديناً، وأشدهم استمساكاً بالأخلاق الفاضلة. نظامهم السياسي كما يرون أحسن نظام، ودستورهم أحسن

وثيقة كتبت في التاريخ، ونظامهم الاقتصادي أنجح نظام، وقضاؤهم أعدل قضاء، ونظامهم التعليمي أرشد نظام، ونظامهم الصحي أفيد نظام، بل سجونهم أكثر السجون إنسانية. أمريكا هي بلد الأحرار وبلد الشجعان وبلد الفرص. وعليه فإن استبدادهم بالأمر سيكون لخير البشرية؛ لأن الأمريكان كما قال أحد مفكريهم هم "حداة البشرية في سيرها نحو الكمال" لا يملك المرء إلا أن يذكر مرة أخرى مقالة فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ولهذا تجد زعماءهم السياسيين يستغلون فيهم هذه النزعة الرسالية وإن شئت فقل الحمية، حمية الجاهلية، فيحرضون شعبهم - ولا سيما العسكريين منهم - على التضحية من أجل هذه المُثل العليا، لا من أجل المصلحة الوطنية بالمعنى المحدود؛ لأنهم يعلمون أن الذي يحرك الإنسان هو الاعتقاد في مثل هذه المثل، لا مجرد الدفاع عن أرض أو مصلحة مادية.

وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب الذي ألقاه الرئيس جورج بوش لخريجي كلية وست بوينت العسكرية. فمن العبارات التي جاءت في ذلك الخطاب، الذي أنصح بقراءته:

أن أمريكا تدافع عن الحرية، وأن العَلَم الأمريكي حيثما رُفع فلن يكون رمزاً لقوتنا فحسب ولكن للحرية. لقد كانت أهدافنا دائماً أكبر من مجرد الدفاع عن أنفسنا. إننا كلما حاربنا فإنما نحارب من أجل سلام عادل، سلام يختار الحرية الإنسانية. سنداقع عن السلام ضد تهديدات الإرهابيين والحكام المستبدين. إننا نريد لغيرنا ما نريد لأنفسنا؛ أمن من العنف، خيرات الحرية، والأمل في حياة أحسن. إن محاربة الإرهاب تحتاج إلى صبر، ولكنها تحتاج أيضاً إلى هدف خُلقي. إن أعداءنا اليوم كما كانوا أيام الحرب الباردة شموليون، يؤمنون بمبدأ القوة التي لا مكان فيها للعزة الإنسانية. لقد كان الوضوح الخُلقي ضرورياً في انتصارنا في الحرب الباردة.

يرى بعضهم أنه ليس من الدبلوماسية، وربما كان من سوء الأدب، أن نتحدث عن الحق والباطل. لكنني أختلف معهم. نعم إن الظروف المختلفة تقتضي وسائل مختلفة لكنها لا تقتضي أخلاقاً مختلفة. إن الحقيقة الخُلقية واحدة في كل ثقافة وفي كل زمان، وفي كل مكان. إن هنالك صراعاً بين الحق والشر، وستسمى أمريكا الشر باسمه[1].

لكن الذي يشكو منه كثير من الأمريكان أن هذا الشعور بقيمة أمريكا وتميزها بدأ يضعف جداً في أجيال الشباب الذين هم الآن في المدارس والجامعات. فقد انتشرت بينهم انتشاراً مخيفاً فواحش الإباحية، والشذوذ الجنسي، وتعاطي المخدرات، وما استتبعه ذلك من غلبة للاتجاه الفردي والسخرية بالخُلق والمثل.

دل استطلاع لبعض المدارس قبل جيل مضى بأن أكبر المشكلات التي يعانيها الطلاب هي: عدم احترام الممتلكات، والكسل وعدم أداء الواجبات المنزلية، والحديث في الفصل وعدم الانتباه، والتراشق بكور الورق المبلول بالبصاق، وترك المنافذ والأبواب مفتوحة. فلما أعيد ذلك الاستطلاع للمدارس نفسها قبل سنوات قليلة، كانت النتيجة أن أكبر المشكلات هي: الخوف من القتل العنيف بالبنادق أو السكاكين في المدرسة، والاغتصاب، والمخدرات، والحمل، والإجهاض[2].

ولهذا صار كثير من الأمريكان لا يرسلون أولادهم إلى المدارس العامة، بل يفضلون لهم التعليم المنزلي.

وكثيراً ما يحزن المرء حين يرى مسلماً حاز على البطاقة الخضراء فطار بها فرحاً

---

(١) نص خطاب الرئيس الأمريكي منشور في موقع البيت الأبيض
http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html.

(2) Peter Kreeft, Ecumenical Jihad, Ignatius Press, 1966, San Francisco, pp.61-2.

إلى أمريكا ليقذف بالبنين والبنات من أطفاله في هذا المستنقع الآسن.

ومع انتشار الثقافة الغربية، وضعف الوازع الديني بدأ هذا الفساد ينتشر في بلدان العالم كله، بما في ذلك بلادنا الإسلامية.

الاتجاه الائتلافي:

أما الاتجاه الائتلافي فلا يجادل أصحابه إخوانهم الانفراديين في كون الولايات المتحدة هي القوة العالمية الكبرى الوحيدة، ولا فيما يتميز به الشعب الأمريكي من صفات، لكنهم يرون أن الانفراد غير ممكن عملياً وإن أمكن فليس في مصلحة بلادهم. ومما يذكرونه في هذا الصدد:

- أن ما صار يوصف الآن بالنظام العالمي القديم كان إلى حد كبير من صنع الولايات المتحدة، وقد كان نظاماً ناجحاً حقق لها ما تريد فما الداعي الآن للانقلاب عليه وتقويضه؟

- أن القوة الحربية للولايات المتحدة ذات علاقة وثيقة باقتصادها، واقتصادها ليس أمراً محلياً تستطيع أن تصنع فيه ما تشاء، بل له ارتباط كبير بالأمم الأخرى. فالأسلحة لا ينتجها البنتاجون وإنما تنتجها شركات تجارية. لكن هذه الشركات تعتمد في استمرار حياتها على السوق العالمي، بل إن منتجاتها العالية التقانة لها الآن نصيب الأسد فيما يبيعه الاقتصاد الأمريكي في السوق العالمي. على سبيل المثال فإن مبيعات هذه الشركات من الحاسوبات الرفيعة في السوق العالمي تمثل نصف دخلها.

- أن هذا سيؤدي إلى فوضى عالمية. فإذا جاز لنا أن نبدأ بشن حرب وقائية على العراق، فلماذا لا تفعل الصين ذلك بالنسبة لتايوان، أو الهند بالنسبة لباكستان؟

- وإذا أعطينا أنفسنا حق تغيير النظم، فهل سنعطيها حق الإتيان بنظم نرضى عنها؟ ماذا إذا لم يختر الناس من نريد؟ هل نعود لعصر الاحتلال؟

كيف يكون التعامل مع المسلمين، ولا سيما العرب منهم؟

حوادث الحادي من سبتمبر أكدت للغرب، وللولايات المتحدة بالذات خطر الإسلام لأنه مهما قيل عن الخطأ الذي ارتكبه من قاموا بتلك العملية إلا أن الحقيقة تبقى أنهم شباب متدينون، وأنهم ابتغوا بعملهم الشهادة، وأنهم فعلوا ما فعلوا انتقاماً للمسلمين من ظلم الحضارة الغربية متمثلة في دولتها الكبرى وقائدتها. لذلك عاد الحديث جذعاً عن المواقف التي ينبغي أن تُتخذ لدرء الخطر الإسلامي. ومن المسائل التي ذكروها في ذلك:

المسألة الأولى: محاربة ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام:

ما أسموه بالفهم الحرفي للإسلام هو في رأيهم الذي يغذي عداوة المسلمين للحضارة الغربية. ومن هنا كثر الحديث عن الإسلام الراديكالي، وعن الوهابي وعن السلفية. يقولون إنه لا يمكن أن يقال للمسلمين تنكروا لدينكم، ولكن الذي يقال لهم هو أن يفهموه فهماً لا يجعله في صدام مع مقومات الحضارة الغربية. مشكلة المسلمين المتشددين، بحسب هذا الرأي، هي أنهم رافضون للحداثة modernity التي تتطلب - فيما تتطلب - أن تكون الدولة دولة علمانية تعددية. فالمطلوب من المسلمين إذن أن يفعلوا ما فعله الغرب ليكتمل لدينهم التصالح مع هذه الحداثة كما تم للمسيحية والنصرانية.

كيف يكون ذلك؟

أولاً: بأن لا يعتقد المسلمون أن نصوص دينهم صالحة لكل زمان ومكان بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، بل عليهم أن يتذكروا كما فعل الليبراليون من النصارى واليهود أن هذه النصوص ذكرت في ظروف تاريخية وثقافية معينة، فلا يمكن أن تكون بحرفيتها مناسبة مع ظروف تاريخية وثقافية مختلفة عنها. ما الحل إذن؟ الحل هو أن

نعيد تفسير هذه النصوص لتتناسب مع العصر، بأن نقول حتى عما يبدو أنه وصف لواقع كقصة قوم لوط: إن هذا إنما كان كلاماً مجازياً. فلم يحدث أن دمر الله تعالى قرى أو عاقب قوماً لتوجههم الجنسي. (قال أوريلى مدللاً على أن القصة كانت رمزية لا حقيقية: لماذا لم يدمر الله سان فرانسيسكو إذن؟).

وثانياً: بأن يفهم المسلمون بأن الحقيقة الدينية حقيقة نسبية، لأنك إذا اعتقدت أن الحق كله معك - كما يعتقد المسلمون اليوم - فستعتقد أن مخالفيك على باطل ويستحقون لذلك أن يقتلوا، هكذا قال الرئيس السابق كلنتون في محاضرة ألقاها في جامعة جورج تاون بواشنطن بعد أحداث الحادي عشر. وهذا يعني أن يكون الأفراد داخل الدين الواحد متسامحين مع مخالفيهم في فهم دينهم؛ لأن لكل إنسان الحق في أن يفهم دينه كيف شاء، وأن يرى الحقيقة من منظاره. وعلى المنتمين إلى الأديان المختلفة أن يكونوا أيضاً متسامحين مع مخالفيهم معتقدين بأن كل دين يهدي إلى الحقيقة بطريقته.

وثالثاً: أن يُمنع بالقانون نشر مثل هذا الفكر وتغلق كل المؤسسات التعليمية التي تنشره، وأن يعاقب الذين يروجون له أو يمولون مؤسساته.

ومما يساعد الغرب على تحقيق هذه الأهداف أن الأفكار التي تعتمد عليها قد شاعت منذ زمان بين المثقفين المسلمين، بل بين بعض الإسلاميين منهم. فقد صار الكثيرون منا جزءاً من الحضارة الغربية في فكرهم وقيمهم وطموحاتهم السياسية وعاداتهم وتقاليدهم بل أزيائهم الرجالية والنسائية؛ لأنهم صاروا يعتقدون أن الحضارة الغربية هي حضارة العصر التي لا يكون الناس متحضرين إلا بها.

المسألة الثانية: معالجة الأسباب الاجتماعية التي أدت إلى معاداة المسلمين للغرب:

يرى بعض المفكرين السياسيين الغربيين أن هنالك أوضاعاً اجتماعية وسياسية بغيضة إلى الناس في العالم العربي بالذات، وأن الغرب ـ ولا سيما الولايات المتحدة ـ هو ـ في نظرهم ـ الذي يقف وراء هذه الأوضاع الظالمة ويدعمها فمن الطبيعي أن يكرهوه. ماذا نفعل إذن؟

يقول بعضهم: إن الحل واضح هو أن نعمل على تحويل أنظمة العالم العربي إلى أنظمة ديمقراطية حقيقية يكون الحكم فيها للأغلبية، وتصان فيها الحريات، ويحارب فيها الفساد المالي. يقول الرئيس بوش في خطابه الشهير في كلية وست بوينت:

عندما يأتي الأمر إلى حقوق الناس رجالاً ونساء وحاجاتهم فليس هنالك صدام حضارات. إن متطلبات الحرية تصدق على إفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي كله. إن جماهير الناس في الأمم الإسلامية يريدون ويستحقون أن يعطوا كل الحريات والفرص التي للناس في كل أمة. وعلى حكامهم أن يستجيبوا لطموحاتهم[1].

يقول آخرون: لكن لا تنسوا أن أغلبية الناس في هذه البلاد كارهون لنا، وعليه فإن الحكومات التي يختارونها في النظام الديمقراطي ستكون معادية لنا.

يقول أصحاب الاقتراح أولاً: إن هذا الأمر ربما يكون كذلك في البداية، ولكن سيظهر لهذه الحكومات أن من مصلحتها ومصلحة شعوبها أن تتعاون مع الغرب وتكون صديقة له. وثانياً إنه ليس من الصعب علينا أن نأتي بحكومات أغلبية حقيقية تكون في الوقت نفسه صديقة لنا. هنالك وسائل كثيرة لتحقيق ذلك.

هذا ما يراه بعض الساسة الأمريكان، أما نتنياهو ـ رئيس الوزراء الإسرائيلي ـ فله نصيحة أخرى للولايات المتحدة. فهو نصحها بأن تغزو العراق وتغير نظامها

(1) http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/20020601-3.html.

من غير اعتبار للأمم المتحدة، وأما بالنسبة لإيران فإنه يقول فض الله فاه: إنه بإمكان الولايات المتحدة أن تُحرض على إحداث ثورة ضد النظام الإسلامي المحافظ في إيران بأن تستغل وجود الآلاف المؤلفة من الأطباق الفضائية فيها لتوجيه برامج أمريكية قذرة كتلك التي تذيعها قناة فوكس يظهر فيها شباب وشابات حسان في حالات مختلفة من حالات العري، يعيشون حياة مادية بهيجة ويمارسون الجنس بطرق إباحية. هذه مادة هدامة. إن الأولاد في إيران سيحبون أن تكون لهم مثل تلك الملابس الجميلة التي يرونها في تلك الأفلام. سيحبون أن تكون لهم أحواض سباحة وأساليب تلك الحياة الفاتنة[١][٢].

المسألة الثالثة: القضية الفلسطينية:

قضية العلاقة مع إسرائيل قضية حساسة بالنسبة لغالبية السياسيين الأمريكيين، لكن هذا لم يمنع بعضهم من أن يقول إن موقف الولايات المتحدة المنحاز لإسرائيل هو

---

(١) في كلمة له في مجلس النواب الأمريكي ألقاها أمام لجنة الإصلاح الحكومي. وهذا هو أصل الفقرة التي ترجمناها:

Benjamin Netanyahu told the House Government Reform Committee that the United States could incite a revolution against the conservative Iranian clergy through the use of such Fox Broadcasting staples as "Melrose Place" and "Beverly Hills 90210" -- both of which feature beautiful young people in varying states of undress, living, glamorous, materialistic lives and engaging in promiscuous sex.

"This is pretty subversive stuff," Netanyahu told the committee. "The kids of Iran would want the nice clothes they see on those shows. They would want the swimming pools and fancy lifestyles".

http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=20020912-034109-6371r.

(٢) يرى آخرون غير نتنياهو أن الديمقراطية وجو الحرية الذي بدأ يسود في إيران سيؤدي إلى إنهاء الحكم الإسلامي بطريقة سلمية ديمقراطية.

من الأسباب الرئيسة لعداوة الشعوب الإسلامية ولا سيما العربية للولايات المتحدة. وأنه ما لم تحل هذه القضية حلاً يراه العرب والمسلمون منصفاً فإن هذه الكراهية ستستمر، وسيستمر باستمرارها الإرهاب.

الفكر الأمريكي المعارض:

ما ركزنا عليه حتى الآن هو الاتجاهات الشائعة أو الغالبة في أمريكا، لكن أمريكا بلد شاسع لا يسود فيه اتجاه واحد سيادة كاملة، بل ما من رأي ديني أو سياسي أو اقتصادي شائع، إلا وله معارضون أشداء قلَّ عددهم أو كثر. وكثيراً ما تكون آراء الفئات المعارضة هذه أقرب إلى الهدي الإسلامي من غيرها. وإليك بعض الأمثلة:

- فمنهم من يرى كما نرى أن ما يُسمى بالفهم الحرفي للنصوص الدينية هو الفهم الصحيح الأمين لها. فنحن نوافقهم في المنهج ونستطيع لذلك أن نناقشهم في نصوص كتبهم التي نراها مجانبة للصواب، لكننا لا نستطيع أن ندخل في حوار مثمر مع من كلما ناقشته في صحة نص قال إنه مجازي وأعطاه من المعاني ما يوافق هواه.

- بل إن من هؤلاء من يدعو كما ندعو إلى تطبيق الحدود المذكورة في العهد القديم كرجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، حتى قال أحد الصحفيين المعارضين إذا طبقنا هذه القوانين فسنقتل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكي!

- ومنهم من يرى أن العلمانية هي العدو الأكبر، وما دام المسلمون يوافقوننا على ذلك فيجب أن نعدهم أصدقاء لا أعداء في مواجهة هذا العدو.

- ومن غير المتدينين، بل من العلمانيين من يدرس عيوب المجتمع الأمريكي دراسة علمية ممتازة، ينبغي أن يتعلم منها المسلمون المبهورون بالحياة الغربية، فالعاقل من اتعظ بغيره. من هؤلاء فوكوياما في كتابه الانفراط العظيم.

• وهنالك من ينتقد الممارسة الواقعية للديمقراطية ويرى أنها قد حادت عن المفهوم الصحيح لها. إن الكتب والدراسات في هذا المجال تعد بالمئات إن لم نقل الألوف.

• وهنالك من ينتقد الرأسمالية إما أصلاً أو ممارسة.

• وهنالك من لا يداهن في نقده للسياسة الأمريكية الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بإسرائيل.

• ثم هنالك إخواننا الدعاة المسلمون الذين يهدي الله تعالى بهم ما يقدر بخمسين شخصاً في كل يوم! فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت العالم الإسلامي، فإن الإسلام يدخل الآن قلوب الآلاف المؤلفة ممن هم في أرضها، لأن الناس يجدون فيه ما لا يجدون في حضارته رغم قوة سلطانها المادي ورغم سيطرتها وقوة تأثيرها على بقية بلدان العالم.

البعث الإسلامي الحضاري:

إذا لم تكن في الأرض اليوم حضارة إسلامية قائمة فعلاً؛ فإن فرص بعثها ما زالت متوفرة ومشجعة. إن المسلمين ما زالوا بحمد الله تعالى قادرين على الأوبة إلى الكتاب الهادي، وقادرين على السعي لامتلاك السيف الناصر. وذلك:

أولاً: لأن انحراف الأمة عن دينها لم يكن ـ وما كان له أن يكون ـ ردة كاملة عامة عن الدين الحق. فهذا دين تكفل الله تعالى بحفظ كتابه كما تكفل بحفظ العاملين من علمائه. فإذا كان الله تعالى قد قال وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ فإن رسوله ﷺ قد قال ـ غير ناطق عن هوى ـ: لا تزالُ طائفة من أمتي ظَاهرين على الحق لا يَضُرهم من خالَفهم ولا من خَذَلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

ثانياً: لأنه إذا كان جوهر الحضارة - أو المدنية - وأساسها الذي يُشيَّدُ عليه بنيانها هو رسالتها؛ هو المعتقدات والقيم التي تستمسك وتعتز بها؛ فإن الجوهر والأساس الإسلامي ما يزال أقوى من منافسه العلماني الغربي. إن الإسلام ما يزال يبرهن عبر تاريخه الطويل بأنه فعلاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. فليس على وجه الأرض دين عبر الحواجز الجغرافية والثقافات المحلية ليبقى بين المستمسكين به - في جملته - الدين الذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ. فكتابه هو الكتاب الذي أنزل على رسوله، وصلوات الناس هي الصلوات كانت تقام في زمن النبي ﷺ، وزكاته هي الزكاة، وحجه وصيامه هما كما كانا في أشكالهما ومواقيتهما. وبالرغم مما أضيف إلى هذا الدين من بدع إلا أنه يظل رغم ذلك أكثر الأديان احتفاظاً بحقيقته، وقد كان هذا وحده مما أغرى بعض الباحثين عن الحق بالدخول فيه.

ثالثاً: وما يزال هذا الدين يؤكد هذه الحقيقة بسرعة انتشاره المذهلة حتى في موطن الحضارة الغربية. فهم يقولون إن معدل سرعة انتشاره أكبر من معدل سرعة الزيادة في سكان العالم.

رابعاً: لأنه باعتباره دين الفطرة، ما يزال هو الدين الذي يجد الناس في آيات كتابه عِلماً بالإله الحق الموصوف بكل صفات الكمال المُنزَّه عن كل صفات النقص من الولد والوالد التي تطفح بها بعض الأديان، وهدياً بأنه هو وحده المستحق للعبادة الهادي إلى أنواعها وكيفياتها. ويجدون في آيات كتابه وأحاديث رسوله ﷺ عِلماً بحقيقة أنبياء الله وما كانوا عليه من كمال بشري أهَّلَهُم لأن يكونوا الأسوة التي يتأسى بها كل سالك طريق إلى الله. لكن الأديان المحرفة تجعل من بعضهم آلهة وأنى للبشر أن يتأسى بالإله؟ وتنسب إلى بعضهم جرائم يستنكف عن ارتكابها عامة عباد الله، فأنى يكونون أسوة لغيرهم؟

خامساً: ولأنه دين الفطرة فلا يجد الناس فيه تصادماً بين مقتضيات العقول التي فطرهم الله عليها، ولا مخالفة لحقائق الخلق التي يشاهدونها ويجربونها. فالعقل فيه نصير الدين لا خصيمه، كما هي حاله في بعض الأديان. والعلم التجريبي يشهد له ولا يشهد عليه كما يفعل مع بعض الأديان.

سادساً: ولأن الناس كما يجدون فيه حاجتهم إلى الإيمان الخالص والعبادة السليمة والأخلاق الحسنة فإنهم يجدون فيه هدياً لتنظيم الحياة الاجتماعية تنظيماً يتوافق مع ذلك الإيمان وتلك العبادة وهاتيك الأخلاق، ويعبر عنها ويؤكدها ويحميها؛ فهو الدين الوحيد الذي لا يحتاج إلى علمانية تكمل نقصه، أو تتصالح معه.

سابعاً: وهو الدين الذي ما يزال يشهد لأحقيته سلوك المهتدين من أبنائه. فهؤلاء هم أكثر أهل الأرض ذكراً وعبادةً لله، وأبعدهم عن مساخط الله، وأكثرهم بذلاً لأنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وأكثرهم رحمةً بصغير وتوقيراً لكبير وصلةً لرحم.

وقد اعترف بهذه الحقيقة حتى بعض علماءِ النصارى، ومن أعجبهم بيتر كريفت أستاذ الفلسفة بكلية بوستن، الذي يحث إخوانه النصارى على أن يعدوا المسلمين أصدقاء وأعواناً لهم في حربهم ضد العلمانية التي يرى فيها العدو اللدود للدين والخطر الأكبر على الحياة الاجتماعية. يقول هذا الرجل:

لماذا ينتشر الإسلام بهذه السرعة المذهلة؟ سيسارع علماء الاجتماع وعلماء النفس والمؤرخون والاقتصاديون والديمغرافيون والسياسيون إلى تفسير ذلك النمو تفسيراً دنيوياً كل بحسب تخصصه. لكن الإجابة بدهية لكل مسيحي ذي صلة بالكتاب المقدس: إن الله تعالى يفي بوعده، ويبارك أولئك الذين يطيعون أوامره ويخشونه، ويعاقب الذين لا يفعلون ذلك. إن الأمر في غاية من البساطة التي يعسر

على الأساتذة الأكاديميين رؤيتها: قارن بين كميات الإجهاض، وزنى المحصنين وغير المحصنين والشذوذ بين المسلمين والنصارى. ثم قارن بين كمية العبادة[1].

ثامناً: ولأن كثيراً من الناس في الغرب بدؤوا يشعرون بالخطر الذي تسوقهم إليه الحياة العلمانية المجردة عن الدين، خطر تمكينها للاتجاه الفردي في الناس، وإضعافها للوازع الخلقي، وعبادتها للجنس، وتحويلها الحياة إلى جهد لا معنى له ولا غاية. كل هذا يسبب للناس أنواعاً من الشقاء الروحي، فذهب الكثيرون منهم يبحثون عن دين ينقذهم فلم يجد كثير ممن عرف الإسلام منهم أكثر منه إجابة لمطالبهم الروحية والخلقية بالطريقة التي أشرنا إليها سابقاً.

وعليه فإذا كانت الحضارة الغربية قد غزت بلادنا فكرياً وخلقياً وجعلت جزءاً من الصراع بيننا وبينها صراعاً على أرضنا، وبيننا وبين أقوامنا؛ فإن الإسلام الآن يفعل الشيء نفسه، إنه يغزو أرض الحضارة الغربية ويجعل الصراع بينه وبينها صراعاً على أرضها وبينها وبين من كانوا بالأمس حماتها المدافعين عن حياضها.

---

(١) تصرفت قليلاً في بعض الكلمات التي لم أجد لها في العربية مقابلاً يفي بغرض الكاتب؛ لذلك يحسن أن أضع نص حديثه بين يدي من يريدون الاطلاع عليه في لغته الانجليزية:

Why is Islam spreading so spectacularly? Sociologists and psychologists and historians and economists and demographers and politicians are quick to explain this growth with "expert" worldly wisdom from each of their specialties; but to any Christian familiar with the Bible, the answer is obvious: because God keeps His promises and blesses those who obey His laws and fear Him and punishes those who do not. Much too simple for scholars to see. Compare the amounts of abortion, adultery, fornication, and sodomy among Muslims and among Christians. Then compare the amounts of prayer. Ecumenical Jihad, 1996, Ignatius Press, San Francisco, p.38.

تلك بعض فرص الدعوة إلى الإسلام وإلى بعث حضارته، وهنالك وسائل كثيرة لاستغلال هذه الفرص، لكنني لا أريد الآن الدخول في تفاصيلها، ولا في تفاصيل السعي لامتلاك السيف الناصر، فلتفاصيل كل ذلك مجال آخر. وإنما أريد أن أختم هذه المقالة بالتذكير بقواعد للعمل الإسلامي لما أرى من خطورتها ومن عدم الاهتمام الشديد بها. وهي:

أولاً: أن أمر العودة للإسلام وحضارته ليس بالحمل الخفيف الذي يمكن أن ينهض به أفراد، أو تقوم به جماعة واحدة أو دولة واحدة، وإنما هو عبءٌ ثقيلٌ يجب أن تتضافر على حمله الجهود. لذلك لا بد أن يقنع كل فرد عامل للإسلام وكل جماعة وكل دولة بأن التعاون بين الساعين لتحقيق هذا الهدف أمر لازم، وأن التشاور فيما بينهم أول خطوات ذلك التعاون، ثم يأتي التنسيق وتوزيع المهام.

ثانياً: وإذا كان التعاون أمراً لازماً فيجب أن يكون السعي لبعث الحضارة الإسلامية أبعد شيء عن الحزبية. إن بعض الناس يخلط بين العمل الجماعي المنظم - وهو أمر لا بد منه - وبين الحزبية التي تحول التنظيم إلى غاية كثيراً ما يُضحى في سبيلها بالغاية التي أُنشئ من أجلها والتي كان في البداية مجرد وسيلة إليها. الحزبية أن تحصر علاقات الأخوة الإسلامية وواجباتها فيمن دخلوا ضمن إطار التنظيم، وأن لا يعان على عمل خير بل لا يعترف به إلا إذا كان من منجزات الجماعة المنظمة.

ثالثاً: الالتزام الصارم الشديد بقيم العدل والصدق والأمانة والوفاء حتى في معاملة الأعداء؛ لأن هذه القيم قيم مطلقة لا تختص بحال دون حال. قال تعالى:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢].

قال المفسر الكبير ابن كثير: إن العدل واجب على كل أحد، مع كل أحد، في كل حال.

لكن بعض العاملين للإسلام اليوم يحيدون عن هذه القيم، ويسلكون سلوك السياسيين الميكيافليين. ناسين أن هذه القيم قيم يحبها الله، وأن الالتزام بها - حتى مع الأعداء - عبادة لله. وأنك لا يمكن أن تنصر دين الله بارتكاب مساخط الله.

رابعاً: على الأفراد وعلى الجماعات غير الحكومية أن تلتزم التزاماً معلناً وصارماً بالطرق السلمية. هذا هو الذي يدل عليه شرع الله، وهو الذي ينتهي إليه كل من اتعظ بالتجارب المريرة للجماعات التي دخلت في صراعات دموية لم تكن لها بكفء. إنك لا تحمل السلاح على من أنت تحت سلطانه، وإنما الذي يشرع لك هو الدعوة مع كف الأيدي وإقامة الصلاة، فإذا كانت لك أرض مستقلة وقوة مادية فآنذاك:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

أستغفر الله، وأصلي وأسلم على خاتم رسل الله. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

علاقة الغرب الاستعمارية بالعالم

يتكون سكان الأرض من أفراد ينتمون إلى مجموعات أو دول لكل منها سلطة تحكم تصرفات هؤلاء الأفراد. أما المجموعات أو الدول فلا سلطة عالمية تحكم تصرفاتها وتنسق العلاقات بينها.

وليست هذه المجموعات أو الدول على مستوى واحد من حيث القوة المادية، بل إن بعضها أشد قوة من بعض. فكيف يكون التعامل بينها. إنه إما أن يكون بما يسمى بشريعة الغاب التي يعتدي فيها القوي على الضعيف فيسلبه أرضه، وينهب خيراتها، ويسخر أهلها لخدمة ما يراه مصلحة له وإما أن يكون بشريعة العدل التي لا اعتداء فيها، لقد كان الخيار بين هذا وذاك وما يزال إلى حد كبير متروكاً للدول القوية. الذي ركنت إليه كل الدول القوية الجاهلية عبر التاريخ هو شريعة الغاب.

ولعل خير مثال لها هم عاد الذين وصل بهم الغرور أن قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. وعلى شريعة الغاب هذه تأسست كل الإمبراطوريات الجاهلية. أما المجموعات والدول التي اهتدت بهدي الله فاختارت شريعة العدل التي أنزلها الله تعالى.

وشريعة العدل كانت -بداهة- في مصلحة الدول الضعيفة التي لا مقدرة لها على الاعتداء، بل لا على حماية نفسها من المعتدين.

الاستعمار الغربي القديم:

ولما كانت الحضارة الغربية حضارة جاهلية لم يكن غريباً أن تسلك مسلك أخواتها الجاهليات السابقات. بل إنها حاولت أن تؤصل الاعتداء تأصيلاً فكرياً ودينياً وخلقياً واقتصادياً وسياسياً، تأصيلاً كان كالإجماع بين كل قادة الرأي والعمل فيها: فلاسفتها ورجال دينها وساستها وعسكرها بل أدبائها[1].

لعله لم تسبق الحضارة الغربية حضارة أخرى في مثل هذا الإجماع على الاعتداء، ولا في تعدد مسوغاته، ولا في سعة الأراضي التي استولت عليها واستعمرتها أو حتى احتلتها. مقالنا هذا ليس تأريخاً للاستعمار الغربي وإنما هو بيان موجز للفكر الذي كان وما يزال يسنده مع مناقشة موجزة له.

كان من المرتكزات التي اعتمدت عليها تلك المسوغات:

أولاً: العنصرية:

فقد انتشر بين تلك الفئات التي ذكرناها انتشاراً واسعاً الاعتقاد بأن الجنس الأبيض جنس متفوق بعنصره على الأجناس الأخرى وأنهن من حقه لذلك بل من واجبه أن يحكم تلك الشعوب ويقودها إلى طريق الحضارة. كان لهذه العنصرية دعاة يزينونها وينشرونها ويقنعون بها شعوبهم. من هؤلاء المفكر الفرنسي جول هارمان (Jules Harman) الذي ظل حتى عام ١٩١٠ يقول:

من الضروري إذن أن نقبل من حيث المبدأ، وبداية انطلاق حقيقية أن هناك هرماً للأجناس والمدنيات، وأننا ننتمي إلى الجنس الأعلى والمدنية العليا مع الاعتراف بأنه

---

(١) كان الأستاذ إدوارد سعيد من أول - بل لعله أول- من نبه إلى صلة الأدب الغربي - حتى الرفيع منه- في كتابه:

Culture and Imperialism, Vintage Books, New York, 1994.

إذا كان السمو يعطي حقوقاً فإنه في المقابل يفرض واجبات صارمة. إن الذي يبيح لنا غزو مواطني البلاد الأخرى هو اعتقادنا في تفوقنا، لا تفوقنا الميكانيكي والاقتصادي والعسكري فحسب، بل تفوقنا الخُلقي. إن عزتنا تعتمد على هذه الخاصة، وهي التي يعتمد عليها حقنا في توجيه بقية الإنسانية. إن القوة المادية ليست سوى وسيلة لتحقيق تلك الغاية[1].

ثانياً: احتقار الشعوب الأخرى:

وذلك أن الشعور بالتعالي والاستكبار لا ينفك عن احتقار الآخرين. قال ﷺ: "الكبر بطر الحق وغمط الناس". لذلك كثر في كتابات مسوغي الاستعمار وصف الشعوب التي يستعمرونها أو يريدون استعمارها بكل أنواع المثالب. من أمثلة ذلك ما قاله الفرنسي بوليي Paul Lerory Beaulieu في كتاب له عن الاستعمار نشر عام ١٨٩١[2].

من المحال أن لا يعد الاستعمار مهمة فرضت على الدول المتحضرة في القرون الأربعة الماضية وبالأخص في عصرنا هذا. ينقسم عالم اليوم إلى أربعة أقسام بالنسبة إلى نوع حضارته. [عدد هذه الأنواع الأربعة ثم مضى ليقول]:

حال العالم هذا يستلزم بالنسبة للناس المتحضرين حق التدخل... في شؤون الناس المنتمين إلى النوعين الأخيرين... إنه ليس من الطبيعي ولا من العدل بالنسبة للناس المتحضرين الغربيين أن يظلوا إلى الأبد محصورين ومكتظين في الأماكن التي كانت مأواهم الأول. وليس من الطبيعي ولا من العدل أن يجمعوا هنالك روائع العلم الطبيعي والفنون والحضارة، وأن يروا معدل الفائدة يتناقص كل يوم لعدم

---

(1) ترجمتي Quoted in Edward Said, Ibid, p. 17.

(2) S. Rollard et el, Documents of European economic History, Vol 2, pp. 165-67. (http:/ web. jjay. cuny. edujobrien/referebce/Ob 38. html.

وجود فرص جيدة للاستثمار، بينما يتركون نصف العالم تقريباً لمجموعات صغيرة من أناس جهلاء غير مؤثرين هم بمنزلة الأطفال الضعفاء، أو لأناس منهوكي القوى لا نشاط لهم ولا هدف كأنهم أناس عجائز.

ثالثاً: نشر المسيحية التي كانوا يعتقدون أنها خير دين وأن الأديان الأخرى - التي لم يكونوا يعرفون عنها شيئاً - أديان باطلة لشعوب متخلفة.

رابعاً: التنافس والتكاثر بين الدول الغربية التي لم تكن ترضى الواحدة منها بأن يكون نصيبها من البلاد المستعمرة أو المحتلة أقل من نصيل غيرها.

خامساً: الضرورات الاستراتيجية التي أدى إليها ذلك التنافس بين الدول الغربية المستعمرة.

سادساً: الطمع المادي الذي كان يراه بعضهم السبب الحقيقي أو الرئيس للاستعمار، وأن كل ما ذكرنا من أسباب إنما كان لتجميل وجه هذا الطمع. يرى هؤلاء أن الثورة الصناعية أدت إلى سرعة في إنتاج السلع وزيادة فيها، فأصبحت من الكثرة بحيث لا يمكن أن تُستهلك في الأقطار المنتجة لها، فلا بد إذن من البحث عن أسواق خارجية لها. كما أن المصانع كانت بحاجة إلى مادة خام لا تتوفر في أقطارها، فكان لابد من البحث عن دول تتوفر فيها تلك المواد، فتؤخذ منها لتصنع ثم ترد إليها لتشتريها سلعاً. كما أن الرغبة في زيادة أرباح تلك المصانع استدعى البحث عن أيدٍ عاملة زهيدة الأجور.

هذا هو التفسير الاقتصادي للاستعمار كما ذكره الاقتصادي البريطاني هوبسن J. A. Hobson ثم توسع فيه القائد الشيوعي لينن Lenie في كتابه الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية.

هذه المسوغات كلها غير مقبولة خُلقاً وغير قائمة على أسس علمية:

فقد أثبتت الدراسات العلمية الغربية نفسها أن دعوى تفوق لون على لون أو جنس على جنس أمر لا مستند له، وأيدت بذلك صحة المبدأ الإسلامي أنه لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى. لكن هذا الاعتقاد العنصري الباطل ما يزال شائعاً بين الناس في كل بلدان العالم تقريباً ولا سيما أمريكا[1]. أما القول بأن بعض الشعوب متخلفة بالنسبة لغيرها من حيث العلم الطبيعي أو المستوى الاقتصادي، أو القوة العسكرية، فقول صحيح لكن ربط هذا بعنصرهم وعدّه أمراً لازماً لهم، ليس له ما يؤيده من علم ولا من تجربة. بل إن تجارب التاريخ تدل على عكس ذلك، فقد ظل الشعب الإنجليزي مثلاً شعباً متخلفاً إلى أن غزته الإمبراطورية الرومانية فأدخلت في مجتمعه من وسائل المدنية ما لم يكن له به علم ولا خبرة، وقل مثل ذلك عن شعوب أخرى. التخلف الاقتصادي إذن مسوغاً خلقياً لغزو شعب من الشعوب. والحاجة إلى سوق للبضائع أو مصدر للمواد الخام أو عمالة رخيصة ليست أيضاً بمسوغ للاستعمار، وإلا لكانت حاجة الفرد إلى زيادة دخله أو الارتفاع بمستوى معيشته مسوغاً لسرقته لمال غيره. ولكن كما أن هذا لا يجوز خُلقاً، فذاك لا يجوز خُلقاً. إن الذي يقتضيه الخلق الكريم هو أن تتكرم الدول المتقدمة بمساعدة الشعوب المتخلفة مساعدة إنسانية لا أن تستعمرها وتذلها وتأكل خيراتها، وتسلبها أرضها. إنه إذا كانت الشعوب التي استُعمرت متخلفة مادياً، فإن الذي يستعمرها ويأكل خيراتها متخلف خُلقياً وإنسانياً. فأنّى يكون عنصراً سامياً أو متفوقاً؟

---

(١) كانت أول صدمة شخصية لي بهذا التعصب العنصري أني ناقشت أحد الشباب الأمريكان وكنا جميعاً طلاب دراسات عليا في جامعة لندن، ناقشته في مسألة فلسفية فيها شيء من التعقيد. ففاجأني في نهاية المناقشة بأن قال لي: أحب أن أعترف لك بشيء. قلت: ما هو؟ قال: لم أكن أظن أن أناساً من أمثالكم يمكن أن يكون لهم مثل هذا الفكر.

ظل هذا الاستعمار وظل معه هذا الفكر الذي يسنده إلى ما بعد منتصف القرن العشرين الميلادي تقريباً .

ثم حدثت ظروف محلية في الدول الغربية المستعمِرة ، وعالمية في الدول المُستعمَرة أدت إلى إنهاء عهد الاستعمار المباشر وبداية ما سمي بالدول العظمى .

الاستعمار الغربي الجديد:

ظن الناس أن عهد الاستعمار والغزو قد انتهى ، وأن دول العالم صغيرها وكبيرها ستنعم بعد ذلك بالاستقرار وتعيش في أرضها بسلام وتكون لها السيادة عليه ، وأن القوانين الدولية التي تُحرّم التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة ، والتي تحرم ما يسمى بالضربة الاستباقية على أية دولة ؛ ستكون موضع احترام بين الدول التي تعد كلها أعضاء في هيئة الأمم .

لكن كل هذه الأماني بدأت الآن تتبدد ، وبدأت تظهر أفكار جديدة تدعو إلى استعمار جديد . من الذين دعوا إلى هذا الاستعمار الجديد شخصان مهمان أحدهما بريطاني والآخر أمريكي ، تأتي أهميتهما من حيث كونهما من المنظرين القريبين من السلطة الحاكمة ، وأنهم من الذين يضعون الأسس الفكرية التي تبنى عليها السياسة العملية . داعيا الاستعمار الجديد هما البريطاني روبرت كوبر ، والأمريكي هنري كيسنجر .

يوصف كوبر بأنه دبلوماسي عامل رفيع المستوى ، وأنه من أهم مستشاري رئيس الوزراء توني بلير ، وأنه الذي صاغ فكرة العالمية الجديدة التي تمثل النظرة البريطانية الجديدة للعالم والتي كانت لذلك وراء مشاركة بريطانيا في ضرب أفغانستان والعراق .

يرى كوبر أن الدول في العالم الآن ثلاثة أنواع ، أرقاها ما أسماه بالدولة فوق الحديثة ، ثم الدولة الحديثة ، ثم الدولة قبل الحديثة . وتتكون الدولة فوق الحديثة من

أقطار عدة اختارت أن تجتمع وتتعاون، ورضيت في سبيل هذا التعاون أن تتنازل عن كثير مما كان يعد من ضرورات السيادة في الدولة الوطنية الحديثة. فهي أقطار يعتمد بعضها على بعض وتتعامل بشفافية تقتضي أن تفتح كل منها أبوابها للتفتيش عن الأسلحة، وأن تلتزم بالقوانين التي تصدرها هيئاتها التشريعية، وأن مما تمتاز به الدولة فوق الحديثة هو أنه لن تكون بينها حروب، ولن يطمع بعضها في استعمار بعض. ويرى أن خير مثال لهذه الدولة الحديثة الاتحاد الأوربي. ومن الدول التي تعد حديثة أيضاً كندا واليابان وإن كان موقعهما لا يساعد على استكمال مقومات الدولة الحديثة. أما عن الولايات المتحدة ففي أمرها شك؛ لأن الذي يبدو أنها لا ترى ضرورة ولا مصلحة في الاعتماد المتبادل ولا الانفتاح ولا التدخل المتبادل بينها وبين غيرها.

يلخص كوبر مزايا الدولة فوق الحديثة في المسائل التالية:

١ - إزالة الفارق بين الشؤون الداخلية والشؤون الخارجية.

٢ - التدخل المتبادل فيما كان يُعد شؤوناً محلية لكل دولة، وكذلك المراقبة المتبادلة.

٣ - رفض العنف وسيلة لحل المشكلات.

٤ - اعتماد الأمن على الشفافية والانفتاح والنقد المتبادل واعتماد البعض على البعض.

٥ - عدم أهمية الحدود.

أما الدولة الحديثة فهي الدولة الوطنية القطرية التقليدية التي تلتزم بكل مقومات السيادة الوطنية والتي تضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار. لكن مشكلة الدول من هذا النوع أنه يمكن أن تثور حروب بينها، أو بينها وبين الدولة فوق الحديثة، وخير مثال لهذه الدول هو الهند وباكستان.

وأما النوع الأخير من الدول فهو الدول الفاشلة التي لا تستطيع أن تضبط الأمور في حدودها والتي تكون لذلك مطمعاً للجماعات الإرهابية المتاجرين بالمخدرات.

نأتي الآن إلى أهم ما قاله الدبلوماسي البريطاني من كلام مثير دفع بالكثيرين في بلده وحتى من حزبه إلى نقده، ويحسن أن نترجم كلامه ترجمة حرفية. قال:

إن التحدي الذي يواجهه العالم بعد الحديث هو أن يعتاد فكرة المعيارين. فيما بيننا نتعامل على أساس القوانين والتعاون الأمني المنفتح. وأما حين نتعامل مع الدول من النوع الأكثر عتاقة خارج القارة الأوربية فوق الحديثة؛ فإننا بحاجة إلى أن نعود إلى الطرق الخشنة التي كانت سائدة في العهود الماضية - العنف، الضربة الاستباقية، الخداع، وكل ما هو ضروري للتعامل مع أولئك الذين ما يزالون يعيشون في عالم القرن التاسع عشر، عالم كل دولة لنفسها، فيما بيننا نتعامل بالقانون، أما حين نتعامل مع الغابة فيجب أن نلجأ لقوانين الغابة أيضاً[1].

ويقول هذا الدبلوماسي في أماكن أخرى من مقاله: إن كل مسوغات الاستعمار التي كانت سائدة في القرن العشرين قائمة الآن. لكن فكرة الاستعمار بمعناه القديم صارت غير مقبولة الآن حتى في الدول الأوربية، فلابد إذن من استعمار جديد يتناسب مع القيم التي صارت سائدة الآن، قيم الحرية وحقوق الإنسان.

وإذا كان الدبلوماسي البريطاني في شك من أمر الولايات المتحدة؛ فإن منظريها وصانعي القرار فيها ليسوا في شك من أمرهم. فقد كتب هنري كيسنجر مقال هو كالمسوغ الفكري لسياسة الولايات المتحدة الجديدة، قال كلاماً فحواه أن كل القوانين والأعراف والهيئات الدولية القائمة الآن تمت إلى عصر قد مضى، وأنه قد طرأت الآن

---

(1) The New Liberal Imperialism, Guardian Unlimited, Sunday, April 7,2007.
(http:/www.co.uk/worldvies/O.11581. 680059, 00, html).

ظروف جديدة أهمها أن الولايات المتحدة صارت الآن هي القوة العالمية الوحيدة، وأنه لذلك لا يلزمها أن تتقيد في مراعاتها لمصالحها القومية والاستراتيجية بتلك القوانين، ولا بقرارات الأمم المتحدة. من حق الولايات المتحدة إذن أن تلجأ إلى الضربة الاستباقية التي يحرمها القانون الدولي القائم.

ما العمل؟

ماذا نفعل نحن المسلمين والعرب منا بخاصة إزاء هذه الأفكار الجديدة التي بدأت تُكون واقعاً جديداً؟

إن أول ما ينبغي أن نفعله هو أن نضع أمام أبصارنا قول الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**الأنفال**: ٥٣].

ولقد كان من أكبر نعم الله علينا أن جعلنا أمة عزيزة مستقلة مرهوبة الجانب، قدوة تحتذي بها الأمم في كل ما يصلحها من دين وخلق وسياسة واقتصاد وتقدم علمي وتقني. ثم سلبنا الله هذه النعمة فأبدلنا بها تبعية واستعماراً وضعفاً وتشتتاً وتخلفاً في العلوم والتقنية والقوة الاقتصادية والعسكرية. وما فعل الله ذلك بنا إلا بسبب تغيير أحدثناه في نفوسنا. ولا يمكن أن يكون التغيير الذي استتبع كل هذا العقاب الدنيوي الأليم تغييراً طفيفاً أو جزئياً، فما كان الله تعالى ليعذب أمة بهذا العذاب الذي نذوقه بسبب ذنب صغير أو تغيير طفيف، لقد كان التغيير إذن في الأمر الذي رتب الله عليه تلك النعمة الكبرى، أعني أمر الإيمان الاعتقادي والعملي المذكور في قوله تعالى:

﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [**النور**: ٥٥].

السبب الأول لما نحن فيه من ضعف الآن هو إذن سبب يتعلق بأصل الدين. سيقول بعض الناس لكن السبب هو أننا لم نأخذ بأسباب التقدم الحديث وأننا تفرقنا ولم نتحد وأننا وأننا . . . وكل هذه قد تكون أسباباً صحيحة أيضاً، لكننا تعلمنا من كتاب ربنا أن نُفرق بين الأسباب الأصلية الأولية والأسباب الثانوية التي هي بمنزلة نتائج للأسباب الأولية. لقد حدثت للمسلمين في زمان النبي ﷺ نكسات في حروبهم مع أعدائهم، وكان لتلك النكسات أسباب ظاهرة، لكن القرآن الكريم كان دائماً يوجه المسلمين إلى الأسباب الأولية، وكثيراً ما تكون أسباباً نفسية.

قال الله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

لقد كان لهذه المصيبة أسباب مادية كثيراً ما يركز عليها الناس، وهي تحرك الرماة من المكان الذي أمرهم الله تعالى بالثبات فيه. لكن القرآن يقول في سبب الهزيمة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فإرادة الدنيا التي كانت الدافع وراء عصيان أمر الرسول ﷺ كانت هي السبب الأساسي. وكذلك الأمر في تعليل نكسة حنين. كان لها بالطبع أسباب حسية ظاهرة. لكن القرآن الكريم رد السبب إلى حالة نفسية، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

فلنعالج السبب الحقيقي إذن. لكن معالجة السبب الأصلي لا تعني إغفال الأسباب الثانوية فلنعتن بها أيضاً. لنعرف ما الأسباب الثانوية التي تجعل الأمة في عصرنا أمة قوية، ولا نصد عنها بالانشغال بأسباب لا علاقة لها بها. لننظر في الأسباب الحقيقية للتقدم المادي للدول الغربية، ولا نلتهي عنها بالتركيز على أحوال صاحبت ذلك التقدم لكنها لم تكن من أسبابه، بل ربما كان التقدم رغماً عنها لا بها.

لكن هذه الظروف المصاحبة والتي لا علاقة لها بالتقدم المادي هي التي يزينها لنا بعض الناس ويريدون لنا أن ننشغل بها عن تلك الأسباب الحقيقية.

إن من أهم الأسباب الحقيقية لتقدم الغرب الاقتصادي والعسكري هو تقدمه الهائل في مجال العلوم الطبيعية بتحقيقه لما يستدعيه هذا التقدم من شروط. فالتقدم في مجال هذه العلوم هو الذي أدى إلى التقدم التقني الذي أدى بدوره إلى التقدم الاقتصادي. فعلينا إذن أن نأخذ بكل الأسباب التي تجعل من بعض أبنائنا علماء كباراً في مجالات العلوم الطبيعية، وأن نعمل على توطين هذه العلوم في بلادنا لكي لا نظل أبداً تابعين فيها للعلماء والمؤسسات الغربية. ومما يستدعيه هذا أن نهتم بالنابغين فيها من أبنائنا وبناتنا، وأن نرعاهم رعاية خاصة، ونوفر لهم كل الظروف التي تساعدهم على تكريس جهودهم لما نبغوا فيه من هذه العلوم. ومما يساعد على هذا أن لا يكون هذا الجهد جهداً قطرياً بل عملاً عربياً ثم إسلامياً مشتركاً. أقول عربياً أولاً لكي تكون لغة هذه العلوم كلها عندنا هي اللغة العربية الفصيحة. ليس من العسير أن نحول هذا الكلام العام إلى مشروعات مفصلة متجددة تحقق لنا ما نريد.

ولما كان هذا الذي نسعى إليه هو تطورنا بوصفنا أمة مسلمة؛ فلا بد أيضاً من الاهتمام بالنابغين من أبنائنا وبناتنا في مجالات العلوم الإسلامية والعربية. وأن يكون من هؤلاء المختصون في كل العلوم الاجتماعية الحديثة من قانون وعلم اجتماع وعلم نفس وإعلام واقتصاد وفلسفة وغير ذلك، حتى تكون كل هذه العلوم في إطار إسلامي لا إطار إلحادي كما هي الحال في العلوم الغربية.

بل إن ذلك وهذا لا يتحققان إلا إذا كانت هنالك ثقافة مشتركة بين الفريقين. أعني أن يكون لعلماء الطبيعة من أبنائنا وبناتنا إلمام بالثقافة الإسلامية. وأن يكون للمختصين بالعلوم الإسلامية والاجتماعية إلمام بالثقافة العلمية الطبيعية حتى يتمكن الفريقان من فهم بعضهم بعضاً.

لكن هذا الجهد لا يؤدي ثماره كاملة ويجعل منا أمة متقدمة ديناً وخلقاً وعلماً وتقنياً واقتصادياً إلا إذا كان جهداً مشتركاً لا أمراً يقوم به كل قطر مستقلاً عن الأقطار الأخرى.

لماذا لا نكون من الدول التي وصفها كوبر بالدول بعد الحديثة؟

فإذا كانت الدول الغربية قد اجتمعت رغم اختلاف لغاتها، فلماذا لا نجتمع نحن أصحاب اللغة الواحدة؟

وإذا كانت قد تصالحت رغم ما كان بينها من حروب طاحنة، فلماذا لا نتصالح نحن الذين لم تكن بيننا مثل تلك الحروب؟ وإذا كانوا قد ائتلفوا رغم ضعف استمساكهم بدينهم، فلماذا لا نأتلف نحن الذين لم يبلغ ضعف استمساكنا مبلغهم؟ وإذا كانوا قد رأوا في الاجتماع حاجة رغم قوة كل دولة منهم، فلماذا لا تشعر دولنا الضعيفة بحاجتها إلى الاجتماع؟ وإذا كانوا قد رضوا بأن يبدؤوا في التخلي عن مقتضيات الدولة القطرية الوطنية التي كانوا هم مخترعيها، فلماذا لا نرضى نحن في سبيل قوتنا بالبدء في التخلي عنها وقد كانت أمراً فرضه الغرب علينا لم تكن له جذور في ديننا ولا تاريخنا؟

ومما يساعدنا كذلك أن الأفكار التي عبر عنها كل من كوبر وكسنجر وأضرابهما لها معارضون أشداء في البلاد الغربية فلنوثق صلتنا بهم ولنتبادل الرأي معهم، ولنحرص على كسب مناصرتهم.

ولكن إذا كان كل ما ذكرنا مما يساعدنا على الاجتماع والتعاون بل الاتحاد، فلا بد من الاعتراف بأن هناك عوامل لا تساعد عليه، منها: أن الغرب لا يريد لنا هذا الاجتماع والتقدم ولا يراه في مصلحته، وأن ضعف أقطارنا يجعل الكثير منها يتردد في الإقدام على أمر لا ترضى عنه تلك الدول.

ومنها: أن العلاقات الاقتصادية بين كل قطر من أقطارنا والدول الغربية استمر إلى مدة طويلة تجعل تحويله من علاقة قطرية إلى علاقة قومية أمراً صعباً.

ومنها: أن مستويات دولنا الاقتصادية متفاوتة جداً تجعل من العسير على الدول الغنية نسبياً أن تفتح أبوابها لأن تتعاون تعاوناً كاملاً مع الدول الأكثر فقراً. لكن إذا اقتنعنا بأننا أمة واحدة، وأنه لا مفر لنا من أن نجتمع ونتعاون إذا أردنا أن نعيش في عالم التكتلات؛ فلننظر إلى الأقطار الأقل تقدماً كما ننظر إلى المناطق المتخلفة في داخل القطر الواحد فنعمل على مساعدتها والرقي بها لأن في ذلك مصلحة لنا جميعاً.

لكن كل هذا لا يمنع من بداية السير في الطريق، ومن سار على الدرب وصل. وقد بدأنا السير فيه بحمد الله، وقامت علاقات تعاون كبير بيننا لكنها كلها قائمة على افتراض دوام الدولة القطرية. والذي أراه أنه قد آن الأوان أن نبدأ - من حيث الفكر على الأقل- في الدعوة إلى اجتماع نكون مستعدين في التخلي عن مقتضيات الدولة القطرية الوطنية. يجب أن نقتنع بأن هذا أمر لازم لنا إذا كنا نريد أن نكون أمة قوية مستقلة مهابة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

ودُّوا لو تكفرون كما كفروا

هل الحرب دينية؟

يتساءل كثيرٌ من المسلمين اليوم عمّا إذا كانت الحرب الأمريكية الغربية على ما يسمونه بالإرهاب حرباً دينية؟ الإجابة تعتمد فيما أرى على المقصود بالحرب الدينية. فإذا كان المعني بها أن الغرب يريد أن يحارب الإسلام باسم المسيحية أو أنه يريد نشر المسيحية؛ فإن حربه ليست دينية؛ لأن الواقع أن إيمان الغربيين بالمسيحية أو اليهودية صار أضعف بكثير مما كان عليه في الماضي، بل إن جمهرة كبيرة من قادتهم ومسؤوليهم لم تعد تؤمن بها ولا بأمثالها من الأديان. بَيْدَ أنهم - وحتى الملحدين منهم - لهم نوع من الانتماء إلى هاتين الديانتين بوصفهما جزءاً من تاريخهم ومكوناً مهمّاً من مكونات حضارتهم التي يفاخرون بها ويعُدُّونها خيرَ حضارةٍ عرفتها البشرية. وهذا هو الذي يعنيه (بوش) و(بلير) ومَن دونهما حين يُصرِّحون بأنهم يدافعون عن منهج حياتهم، أو حين يقولون إنهم يحاربون أعداء الحضارة. هذه الحضارة التي لا ترضى عن دين إلا إذا رضي هو بأن يَقرَّ في المكان الضيق الذي حددته له فلا يتعدّاه، إلا إذا أقرّ بأنّ الله تعالى قد ترك الناس سُدىً لا يأمرهم ولا ينهاهم في أي أمر يتعلق بحياتهم السياسية

أو الاقتصادية أو الاجتماعية، بل ترك كل هذا للناس يُقرِّرون فيه ما شاؤوا، ويغيِّرونه متى شاؤوا. الدين المرضي لديهم عنه هو دين لا يعترض على رأسمالية ولا ليبرالية، ولا يستعمل يداً في أمر بمعروف أو نهي عن منكر. وقد رضيتْ الأديان كلها فيما يبدو بهذه الحدود التي خطتها لها العلمانية، بل إنه لم يبق بعد سقوط الشيوعية منهج حياة منافس للمنهج الغربي الرأسمالي الليبرالي.

الاستثناء الوحيد هو الإسلام كما كان قد صرح بذلك (فوكوياما) الذي عبّر عن هذا الغرور الغربي تعبيراً واضحاً حين زعم أن التاريخ انتهى فيما يتعلق بمناهج الحياة؛ فالناس كلهم سائرون نحو هذا النموذج الغربي الذي يراه النموذج الوحيد المناسب لعصرنا، والذي يسمى لذلك بالحداثة، فالإسلام الذي ما يزال يؤمن كثير من أهله بأنه بديلٌ أصلحُ للناس من النموذج الغربي لا بد أن يكون حركةً رجعيةً تعرقل تقدُّم البشرية؛ فلا مناص من حربه وإيقافه عند حدِّه. فإذا كان هذا هو المقصود بالحرب الدينية فإنها لحرب دينية ما في ذلك من شك.

لكن السياسة عندهم مخادَعة، ومن المخادَعة أن لا يُصرِّح قادة الدول الغربية إلا بعض أغبيائهم بأن خصمها هو الإسلام. فالإسلام دين سلام ومعايشة مع بقية الأديان، والغالبية العظمى من المسلمين أناس طيبون مسالمون راضون بالرأسمالية والليبرالية، إلا شرذمة تسمى (الوهابية)!

واختيار الوهابية أيضاً اختيار سياسي بارع لا بد أن من أوصوا به أناس مختصون في الدراسات الإسلامية وفي الشعوب الإسلامية. فما يسمى بالوهابية دعوة لها خصوم كثر في العالم الإسلامي سيخدعون فعلاً ويظنون أن الهجوم عليها ليس هجوماً على الإسلام وإنما هو هجوم على حركة ظلوا يعدونها خطراً عليهم لمحاربتها لما هم عليه من أنواع الشرك في العقيدة، والبدع في العبادات،

ولِما نُسب إليها زوراً من أقوال مخالفة للإسلام. لكن الذي لا يدركه هؤلاء المخدوعون أن ما يكرهه الغربيون فيما يسمونه بالوهابية ليس هو ما يكرهونه هم. إن ما يعنيه الغربيون وأذنابهم بالوهابية إنما هو (إسلام الكتاب والسنة)، الذي يرسم للناس منهج حياة متكامل، ويربّيهم على الدعوة إليه وجهاد أعدائه؛ ولذلك فإنهم لا يقصرون كلامهم عن الوهابية على السعودية! وإنما يُدخلون فيه مصر وبلاداً إسلامية أخرى أي كل بلد فيه حركة إسلامية سنية رشيدة سواء كانت سياسية أو غير سياسية؛ لأنهم يرون أن مناخ الفكر السني هذا هو المناخ الذي يغرس في نفوس المسلمين اعتزازاً بدينهم ووقوفاً صارماً ضد خصومهم.

ماذا يريد منا قادة الحضارة الغربية؟

قادة الحضارة الغربية يريدون منا معاشر المسلمين أن نلبي لهم ثلاثة مطالب:

أولها: أن تكون العلمانية منهج حياتنا كما هي منهج حياتهم، وأن لا يحتلّ الإسلام إلا مكاناً ضيقاً في إطارها.

ثانياً: لكن هذه العلمانية يجب أن تكون ليبرالية ديمقراطية في السياسة، رأسمالية حرة في الاقتصاد، إباحية في القيم.

ثالثاً: أن تكون هذه العلمانية العربية أو (الإسلامية) خادمة لمصالح الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية؛ وذلك لأن الدولة قد تحقق ذينك الشرطين السابقين لكنها تكون مع ذلك دولة قوية مستقلة منافسة للدول الغربية. فالذي تحرص عليه الدول الغربية بقيادة الولايات المتحدة هو أن لا يكون لها في مجال القوة المادية منافس تمكنه قوته من الاستقلال عنها في مراعاة مصالحه. ومن هنا فإنهم ينظرون بكثير من القلق إلى دول مثل الصين واليابان، ويعملون على أن لا تكون أي منهما منافساً للغرب.

فالمطلب الثالث هذا هو أبو المطالب عندهم، وما الآخران إلا وسائل إليه، إن حققا غرضهما فبها، وإلا ضحي بهما في سبيله. أعني أن الديمقراطية مثلاً مطلوبة شريطة أن لا تؤدي إلى موقفٍ معادٍ، أو منافس للولايات المتحدة. فإذا كانت كذلك استُبدل بها نظام دكتاتوري يحقق التبعية.

وهم يسعون لتحقيق هذه الرِّدة فينا أولاً بأن نتّبع سبيلهم في الاستماع إلى نصائح يسدونها إلينا في الطريقة التي نفهم بها ديننا ونفسره. تأتي هذه النصائح أحياناً منهم مباشرة، ولكنها تأتي في كثير من الأحيان عن طريق عملائهم الفكريين المنافقين في بلادنا. لكنهم ينسون أن كتاب ربنا يحذّرنا من الاستماع في أمر ديننا إلى قوم جاهلين به، معادين له، كافرين به. قال الإمام الطبري معلقاً على قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. قال رحمه الله: «وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون».

أما الوسيلة العملية الخطيرة الثانية فهي أن يطلب منا أن نغير مناهج دراساتنا الإسلامية لكي تتمشّى مع تلك الفهوم التي يرونها مجافيةً للأصولية، ومجاملةً للعلمانية. لكن هذه وسيلة خاسرة. فإن خضعت بعض الدول فغيّرتْ وبدّلتْ وحرّفتْ؛ فما كل الدول بفاعلة ذلك. ولئن غاب الدين الصحيح من المدارس الرسمية فلن يغيب من صدور العلماء الدعاة الربانيين. لقد تكفل الله تعالى بحفظ هذا الدين في صورة آيات تتلى، وأحاديث تقرأ، وفي صورة طائفة لا تزال على الحق ظاهرة لا يضرها من خالفها ولا من خذلها حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.

لكن هذا الإيمان ينبغي أن لا يكون سبباً للتثاقل والغفلة، بل يجب أن يكون دافعاً قوياً للسعي والحركة استبشاراً بوعد الله الذي لا يخلف الميعاد.

وإنه لمما يساعد على الاستبشار والرجاء أن نعلم أنه ما كل الغرب على قلب رجل واحد في عدائه للإسلام؛ ففيه مسلمون تتزايد أعدادهم صباح مساء، وفيه منصفون متعاطفون مع المسلمين، وفيه مرتابون في حضارتهم أو كافرون بها باحثون عن بديل لها. فعلينا أن لا نعادي الناس في الغرب كافة ما داموا لا يعادوننا كافة، وأن نتذكر أن هذا من نعم الله علينا وإلا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ [النساء: ٩٠].

تصور إسلامي للتعايش السلمي

التعايش السلمي مع الأديان غير الإسلامية مبدأ إسلامي أصيل دلت عليه النصوص، وطبقه المسلمون طوال تاريخهم. فهو إذن ليس أمراً يفرضه المسلمون على دينهم أو يلجؤون إليه لأسباب خارجية قاهرة.

إنه مبدأ قائم على الحقائق والمبادئ الإسلامية التالية:

- إن الإسلام هو رسالة الله الخاتمة إلى عباده التي بلغها خاتم أنبيائه الذي جعله ربه رحمة للعالمين. إنه لا يعقل أن يأمر دين هذه طبيعته أن يشن المؤمنون به حرباً على بقية العالم لإكراه الناس على الدخول فيه.

- لقد أخبر الله تعالى رسوله بأنه ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، فكيف يأمره في الوقت نفسه بأن يكرههم على الدخول فيه؟ هل يأمره بأن يخلي الأرض من كل أحد غير مسلم؟

- ليس هذا فحسب بل إن الرسول يخبرنا أنه لن تخلو الأرض من أناس غير مسلمين، بل إن غير المسلمين هؤلاء سيكونون هم سكان العالم الذين يشهدون نهايته وقيام الساعة بعد أن يموت كل المسلمين.

● يخبرنا الله سبحانه بأنه لا أحد غيره يملك السيطرة على قلوب الناس وعقولهم. فالأنبياء لا يستطيعون هداية الناس بمعنى إدخال الهدى في قلوبهم. إن الله تعالى هو وحده الذي يهدي بهذا المعنى. إن الرسل والدعاة من بعدهم إنما يهدون الناس هداية بيان وبلاغ، ثم يتركون لهم الخيار.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٢].

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

● وإذا كان الرسول ﷺ لا يستطيع إدخال الهدى في قلوب الناس فإن الشيطان أيضاً لا يستطيع إدخال الضلال فيها. إن مقدرته محصورة في الدعوة إلى الضلال وتزيينه. لكن الله تعالى تكفل لنا بأن هذا العمل الشيطاني لا يكون له تأثير إلا على الذين يستجيبون للشيطان بإرادتهم، ووعد سبحانه بأن يهدي إلى الحق كل من علم في قلبه إرادة له.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

● ولأن الدين هكذا في أصله مسألة قلبية، فهو بالضرورة أمر إرادي، إنه أمر يعترف به الإنسان ويطبقه بإرادته. فلا أحد إذن يمكن أن يجبره عليه.

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

● وعليه فإن الآية القرآنية الكريمة الشهيرة : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ليست كما قد يظن البعض خطأ آية منعزلة أو الآية الوحيدة التي تقرر هذه الحقيقة . بل إنها متسقة مع غيرها من الآيات التي ذكرنا بعضها في أنه لا يمكن إكراه أحد على الدين . لكن في الآية أمراً زائداً وهي أنها تأمر المؤمنين بأن لا يحاولوا هذا الأمر المستحيل .

لكن الأمر بعدم الإكراه ليس مبنياً في الإسلام على أنه من حق كل إنسان أو من مصلحته أن يختار ما شاء من عقائد كما تقول الليبرالية ؛ لأنه من المؤكد أن بعض المعتقدات مبنية على أباطيل فلا يمكن لذلك أن تكون في مصلحة معتقدها أو مصلحة المجتمع الذي تشيع فيه . فالإسلام لا يأمر بعدم إكراه الناس على الدخول فيه لأنه يقر معتقداتهم المخالفة له ؛ إنه لا يقرها .

لكن الإسلام يفرق في المعاملة بين المعتقدات والمعتقدين . فبينما يدعو إلى دعوة المعتقدين بالتي هي أحسن ، بل إلى بر من لم يعتد منهم ؛ فإنه لا يتردد في نقد معتقداتهم نقداً صارماً وإقامة الحجج على بطلانها . انظر مثلاً كيف يدعو إلى معاملة النصارى بالتي هي أحسن ، ويحكم بحل طعامهم ونسائهم ، بينما يؤكد أنه لا عيسى بن مريم ولا غيره يمكن أن يكون ولداً لله تعالى لأنهم مخلوقون والمخلوق لا يكون ولداً لخالقه ؛ إن الأب يلد ابنه ولا يخلقه .

إن الهدف من معاملة غير المسلمين معاملة حسنة وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام إنما هو لأن هذه هي أفضل وسيلة لبيان الحق لهم وتسهيل رؤيتهم وقبولهم له . ولهذا فإن التأكيد في الإسلام إنما هو دائماً على الدعوة وبيان أهميتها ، وبيان أحسن طرقها ، وبيان أنها هي الوظيفة الأساس لرسل الله ولكل الدعاة من بعدهم ، وهكذا .

ولذلك فإن الله تعالى يذكر رسوله دائماً بأن مهمته إنما هي البلاغ، وأنه إنما هو مذكر، وأنه لا يستطيع هداية من يحب هدايته، وأنه لا يستطيع إكراه الناس على قبول الحق، وأنه يجب أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة. والمسلمون مأمورون بأن لا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

تاريخ من التسامح:

لم يكن ذلك الهدي عبرت عنه آيات القرآن الكريم في معاملة الأديان الأخرى وأهلها من قبيل المثاليات المعلقة في الهواء، وإنما كانت توجيهات عملية ترجمها المسلمون إلى واقع أرضي في تاريخهم الطويل. وكان واقعاً اعترف به وأعجب به الكثيرون من غير المسلمين وما زالوا يعترفون به ويعجبون. وهذه بعض شهاداتهم الحديثة.

عندما ألقى البابا الحالي محاضرته المشهورة في إحدى الجامعات الألمانية واستدل فيها بكلام للإمبراطور مانيويل الثاني اتهم فيها الرسول ﷺ بأنه أمر المسلمين بأن ينشروا دينهم بالسيف؛ كان من أحسن الردود عليه ما كتبه كتّاب غير مسلمين.

كان من هؤلاء يوري أفنيرى الذي وصف نفسه بأنه يهودي ملحد. قال يوري[1]:

قال المسيح: "ستعرفونهم بثمراتهم". إن معاملة الإسلام للأديان الأخرى يجب

(1) Uri Avnery, Muhammad's Sword, strketheroot.com, September 27. 06.

أن يحكم عليها بمعيار بسيط : كيف تصرف الحكام المسلمون لمدة ألف عام عندما كانوا قادرين على "نشر الإسلام بالسيف" .

إنهم لم يفعلوا أبداً .

ثم يقول للبابا إن المسلمين حكموا اليونان لمدة قرون ، لكنهم لم يكرهوا يونانياً واحداً أبداً على الدخول في الإسلام . وبالطريقة نفسها كانت معاملتهم للبلغار والصرب والرومان والهنغار وشعوب أوربية أخرى . ويقول له إنه عندما احتل الصليبيون القدس في عام ١٠٩٩ وذبحوا من غير تمييز سكانها من المسلمين واليهود ، كان النصارى ما يزالون بعد أربعمئة عام من احتلال المسلمين لفلسطين هم الأغلبية في القطر لأنه لم يبذل أي جهد في هذه المدة الطويلة لفرض الإسلام عليهم . وليس هنالك من دليل على أنه كانت هنالك محاولة لفرض الإسلام على اليهود . وكما هو معروف فإن اليهود في إسبانيا استمتعوا بازدهار لم يستمتعوا به في أي مكان آخر حتى أيامنا هذه تقريباً . إن كل يهودي يعرف تاريخ قومه لا يملك إلا أن يشعر بالعرفان العميق للإسلام الذي حمى اليهود لمدة خمسين جيلاً ، بينما كان العالم المسيحي يضطهد اليهود وحاول مرات عديدة أن يجبرهم "بالسيف" على التخلي عن دينهم .

إن قصة " انتشار العقيدة بالسيف" أسطورة شريرة ، إنها واحدة من الخرافات التي ترعرعت في أوربا إبان الحروب العظمى على المسلمين .

ذلك ما قاله الكاتب اليهودي ، وأما المؤرخة البريطانية كيرن آرمسترونج فتقول موافقة له على انتشار هذه الأسطورة في الغرب :

إنه وبطريقة منتظمة ومزعجة ، فإن اعتقاد القرون الوسطى هذا يظهر كلما كانت هنالك مشكلة في الشرق الأوسط . ولكن حتى القرن العشرين كان الإسلام ديناً أكثر تسامحاً وسلاماً من المسيحية . إن القرآن ينهى بشدة عن أي إكراه في الدين ، ويعد

كل الأديان التي على الهدى أدياناً من عند الله. وبالرغم من الاعتقاد الغربي المخالف فإن المسلمين لم يفرضوا دينهم بالسيف. لكن خرافة أن الإسلام دين عنيف في أصله تستمر، وتظهر في اللحظات غير المناسبة أبداً. إنه من الأفكار الغربية المتوارثة التي يكاد يكون من المستحيل اقتلاعها(١).

إن كون الإسلام انتشر بطرق سلمية أمر اعترف به وأكده منذ زمن طويل النصراني السير ثوماس آرنولد في كتابه الشهير: الدعوة إلى الإسلام. قال آرنولد:

لم نسمع شيئاً عن أي محاولة منظمة لإكراه السكان غير المسلمين على قبول الإسلام، أو لأي اضطهاد الغرض منه القضاء على الدين المسيحي. لو أن الخلفاء اختاروا أن يتبنوا أياً من هذين الطريقين ربما كانوا قد قضوا على النصرانية بالسهولة نفسها التي طرد بها فرديناند وإزابلا المسلمين من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر البروتستانية جريمة في فرنسا، أو التي نفي بها اليهود عن أوربا لمدة ٣٥٠ عاماً. لقد قطعت الصلة بين الكنائس الشرقية وبين بقية العالم المسيحي لمدة لم يستطع أحد خلالها أن يرفع إصبعاً للدفاع عنهم. إن بقاء هذه الكنائس إلى يومنا هذا لدليل قوي على التسامح الذي امتازت به على وجه العموم الحكومات المحمدية(٢).

أقول ولهذا لم يكن هنالك من داع لقيام دولة علمانية في البلاد الإسلامية؛ لأن الدولة العلمانية إنما قامت في الغرب - كما يحدثنا المؤرخون الغربيون - بسبب الحروب الدينية الأوربية الشهيرة التي اندلعت لأن الحكام النصارى كانوا يحاولون

---

(1) Karen Armstrong, We cannot afford to maintain these ancient prejudices against Islam, The Guardian Unlimited, Sept 18, 2006.

(2) Arnold, Sir Thomas W., The Preaching of Islam, a History of the Propagation of the Muslim Faith, Westminister A. Constable & Co., London, 1896, p. 80. quoted in Jihad Explained, The Institute of Islamic Information & Education, P.O. Box 41129, Chicago, IL 60641-0129 http://www.irshad.org/idara/,

إكراه كل من كان غير نصراني أو حتى غير منتم إلى فرقتهم على الدخول فيها . أما المسلمون فقد أعطوا المواطنين غير المسلمين الذين كانوا تحت سلطانهم كل الحقوق التي تعطيها لهم الحكومات العلمانية الحالية بل أكثر . نعم إنهم لم يعطوهم حقوقاً وفرصاً مساوية لتلك التي أعطيت للمسلمين . إن مثل هذه المساواة أمر لا يمكن أن يتحقق في أي دولة دينية كانت أم علمانية . إن الحكومات العلمانية إنما تعطي مواطنيها المتدينين فرصاً لشغل المناصب السياسية بشرط ولائهم للدستور الذي يفصل بين الدولة والدين . بل إن بعض الكتاب المتدينين من الأمريكان يتذمرون من أن الحرية التي تعطيها الدولة العلمانية للدين إنما هي بحسب تعريفها هي للدين . ولو كانت حرية حقيقية لأعطي أصحاب كل دين من الحرية ما يتطلبه دينهم هم لا ما تمن به العلمانية بحسب مفهومها للدين .

لكن هذا الذي يشكون منه هو أمر لا يمكن أن تكون الدولة علمانية إلا به . إنه لا يتصور أن تعطي الدولة العلمانية أصحاب دين ما حرية ممارسة دينهم بطريقة تفضي إلى تعديه على حدود الدولة العلمانية .

كانت هنالك حروب إسلامية إذن؟

كانت لأسباب لم يكن منها أبداً إكراه أحد على اعتناق الإسلام كما بينا . كانت لأسباب أهمها محاربة الظلم . إننا نعيش في عالم لا بد أن يحارب فيه بعض الظالمين ليعيش الآخرون في أمن وسلام .

والظلم الذي دعا الإسلام لمحاربته يأخذ أشكالاً كثيرة ، منها :

- اضطهاد الحكومات لمواطنيها الذين يعتنقون الإسلام .
- أو إخراجهم من وطنهم .

- أو شن الحروب على أهل البلاد التي تعتنق الإسلام.

- أو شن الحروب عليهم سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين بغرض احتلال بلادهم ونهب ثرواتهم، أو استرقاقهم.

الحاجة إلى التعايش السلمي في عصرنا:

إننا نعيش في زمان وجد فيه الناس أنفسهم مضطرين لأن يعيشوا متجاورين في قرية عالمية واحدة تتداخل فيها مصالحهم رغم اختلافاتهم العرقية والدينية واللونية والثقافية. لكنها قرية مليئة بالأسلحة التي تسمى بالتقليدية والتي يمكن أن تلحق أضراراً بالغة بكل ما هو ضروري لحياة الناس، وبالأسلحة تسمى بأسلحة الدمار الشامل التي تملك الولايات المتحدة وحدها منها ما يمكن أن يمحو كل سكان الكرة الأرضية كما يقولون! إنه لمن الواضح إذن أنه لا خيار لسكان الكرة الأرضية لتفادي تلك الكارثة إلا أن يقرروا أن يتعايشوا في سلام. لكن مجرد الرغبة في ذلك التعايش لا تكفي. إنه لا بد من اتخاذ الخطوات اللازمة لجعل ذلك التعايش ممكناً. ولعل من أهم مقتضيات ذلك التعايش:

١ - وجود مؤسسات عالمية تضمن السلام، وتلتزم بالقيم الخلقية لا يمكن لها أن تؤدي وظيفتها إلا بها. لا بد لهذه المؤسسات من أن تقوم على العدل.

٢ - وعلى الدول الكبرى أن تدرك أن هذا العدل هو في النهاية خير لشعوبها مما قد يبدو لها من مصالح وطنية وقتية ضيقة. إن على الدولة التي تستخدم قوتها الاقتصادية أو العسكرية لإخضاع دولة ضعيفة بحجة أنها إنما تدافع بذلك عن مصلحتها الوطنية أن تدرك أنه خلقياً لا فرق بين منطقها هذا ومنطق إنسان ينهب ممتلكات آخر بحجة أنه يريد تحسين مستواه المعيشي.

٣ - وعليه فإنه لا يمكن لمؤسسات عالمية مثل الأمم المتحدة أن تؤدي مهمتها إذا ما صارت أداة في يد دولة كبرى كالولايات المتحدة. ولكن هذا مع الأسف الشديد هو الحاصل الآن. وحصوله ليس ادعاء تدعيه الدول الضعيفة وإنما هو أمر تعترف به الدول الكبرى نفسها، بل تتباهى به:

إن التصور الغالب بين النخبة للأمم المتحدة - كما عبر عنه بوضوح في عام ١٩٩٢ فرانسيس فوكوياما الذي عمل في وزارة الخارجية الريغانية البوشوية - هو أن الأمم المتحدة مستخدمة كأداة فعالة لسياسة أمريكا الانفرادية، والتي قد تكون في المستقبل هي الآلية الأساس لتلك السياسة[(١)].

لكن هذا معناه أنه عندما تهدد الولايات المتحدة أو تعاقب قطراً ما بحجة عدم تنفيذه لقرارات الأمم المتحدة؛ إنما تهدده في الحقيقة لأنه لم ينفذ أوامرها هي.

٤ - إن الالتزام بالمبادئ الخلقية السامية ولا سيما مبدأ العدالة هو في النهاية الضمان الوحيد لعدم انتشار أسلحة الدمار الشامل. إن الدول الأضعف لن تشعر بالحاجة إلى مثل هذه الأسلحة إذا ما تأكدت بأنه لن يكون في عدم امتلاكها لها خطر على وجودها أو على سيادتها. سيرون أنه من الأعقل لهم أن ينفقوا القليل الذي يمتلكونه على أشياء أكثر أهمية وإلحاحاً. وأما إذا ما تأكدوا بأنهم سيهانون بسبب عدم امتلاكهم لها فإنهم قد لا يترددون في السعي للحصول على أي نوع وأي كم منها مهما كان الثمن وبغض النظر عن أية معاهدات يضطرون للتوقيع عليها.

٥ - إن على أولئك الذين يتحركون بدافع السيطرة على الآخرين أن يتذكروا بأن هنالك دافعاً أقوى، دافع العزة. إن في العالم أناساً كثيرين مستعدون لأن يبذلوا أرواحهم لحماية عزة شعوبهم والمحافظة عليها.

---

(1) Noam Chomsky, Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance, Metropolitan Books, Henry Holt and Company, New York, 2003, p. 29.

٦ - إن على الذين يمتلكون الأسلحة أن يكفوا عن استعمالها بغير حق لا بدافع تلك المبادئ الخلقية التي ذكرناها فحسب، ولكن لأن ذلك في مصلحتهم. وذلك أن التطور الهائل في صناعة الأسلحة قد يؤدي قريباً إلى اختراع نوع منها صغير الحجم خفيف الوزن شديد الفاعلية يسهل على الأفراد والجماعات الصغيرة أن تحصل عليه.

٧ - إن بعض الناس قد يرون أنه أن تفرض عليهم معتقدات وقيم مناوئة لمعتقداتهم وقيمهم أشد خطراً عليهم وأكثر إهانة لهم من حرمانهم بغير حق من بعض خيرات بلادهم. وعليه فإن الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية يجب أن لا تتحول إلى منابر للدول الكبرى تفرض بها قيمها، ولا سيما العلمانية منها على آخرين يكرهونها. إن أعضاء الأمم المتحدة لا ينتمون فقط إلى دول مختلفة وإنما ينتمون أيضاً إلى ثقافات مختلفة في عقائدهم وقيمهم وتقاليدهم وتاريخهم. إنه لكي يعيش كل هؤلاء تحت مظلة واحدة ليتعاونوا على مواجهة المشكلات التي تواجههم بوصفهم سكان كرة أرضية واحدة، تجعل من الضروري عليهم أن يعترفوا بهذه الفروق والاختلافات وأن يتسامحوا في العيش معها، وأن لا يلجؤوا لذلك إلى غير الوسائل السلمية لحلها. إن التغيرات الثقافية سواء كانت إلى الأحسن أو الأسوأ إنما تحدث تدريجياً وسلمياً. فاستعمال هيئة عالمية مهمة كالأمم المتحدة لفرض مثل هذه التغيرات على الناس لن يشجع إلا على عدم احترام هذه المؤسسة، وعدم الاكتراث لقراراتها. لكن هذا مع الأسف هو الذي يؤمن به كثير من الناس في الغرب. إنهم يريدون لكل الناس أن يكون نظامهم السياسي مثل نظامهم، وأن يفهموا دينهم بالطريقة نفسها التي يفهمون هم بها دينهم، وأن تكون علاقاتهم بين الجنسين مثل علاقاتهم، وأن لا يتصرفوا بطريقة تراها دولة كالولايات المتحدة غير خادمة لمصالحها.

أصول إسلامية للعلاقات الدولية

تبحث هذه الورقة المختصرة في جزئها الأول في الأصول الإسلامية التي تؤسس عليها العلاقات الدولية، فهي أشبه ما تكون بما يسمى الآن بفلسفة العلاقات الدولية. فهي ليست إذن نظرية في دراسة واقع العلاقات الدولية، وليست وصفاً أو تقويماً لسياسة واقعية لدولة من دول العالم الإسلامي، وإن كان المفترض أن هذه السياسات العملية تتأثر على درجات متفاوتة بهذه الأصول، كلما كانت الدولة أكثر التزاماً بالإسلام كان تأثرها بها في سياستها أكبر. وتعطي في جزئها الثاني أمثلة تاريخية للتطبيق العملي لبعض هذه الأصول، وتقوم في جزئها الثالث حال العلاقات الدولية في عصرنا بمعايير تلك الأصول.

إن العلاقة بين الدول هي فرع عن العلاقة بين جماعة وجماعة أخرى مختلفة عنها في معتقداتها وقيمها الدينية وغير الدينية: ماذا يكون موقفها منها؟ وكيف تتعامل معها؟ هذا يعتمد على نوع المعتقدات والقيم التي تؤمن بها الجماعة. في الإسلام مبدأ عملي كبير تدخل تحته سائر مبادئه العملية الجزئية وتحكم به. هذا المبدأ يقول إن الشريعة إنما جاءت لتحصيل المصالح وتكثيرها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. وقد

رأى بعض العلماء أنه يمكن حصر هذه المصالح في خمسة أنواع هي: الدين والعقل والنفس والنسل والمال. ولكن بما أن الإسلام دين يقوم على هداية من الله تعالى موحى بها ومضمنة في كتاب؛ فإن هذه المصالح الدينية والدنيوية مصبوغة بصبغة تلك الهداية، أعني أن اعتبار ما هو مصلحة ومفسدة ليس متروكاً أمره كله لتقديرات البشر وآرائهم، وإنما هو محكوم بتلك الهداية الربانية. غير أن الهداية الإلهية لا تتناقض مع المتقتضيات العقلية، بل كل ما ثبت بصريح العقل أنه مصلحة فهو بالضرورة موافق لهدي الوحي.

على أساس هذا المبدأ الكبير (أعني مبدأ تحصيل المصالح وتكثيرها وتعطيل المفاسد وتقليلها) تقيم الجماعة المسلمة حياتها، وفي ضوئه تقيم علاقاتها مع غيرها من الدول والجماعات، أي أن الجماعة المسلمة تهدف إلى تحقيق هذه المصالح لها ولغيرها.

وبما أن المصلحة الدينية هي أم المصالح وأساسها بل منبعها؛ فإن أهم ما تتغياه الدولة المسلمة في علاقتها مع الآخرين هو تحقيق ما يمكن تحقيقه من هذه المصلحة لهم.

ما المصلحة الدينية في نظر الإسلام وما علاقتها بالشؤون السياسية؟

الإنسان في التصور الإسلامي مخلوق مفطور على الخير، فكل ما فيه من شر أمر طارئ عليه يمكن تنقيته منه. تدل على ذلك نصوص كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨]. فالنفس في أصلها سوية لكن قد يحدث لها ما يجعل واقعها مخالفاً لحقيقتها، فيأتي الشرع ليدلها على اجتناب ما يفسدها وليهديها إلى الوقاية منه. ومنها قول الرسول ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء؛ هل

تحسون فيها من جدعاء؟)[1]. والدين الإسلامي بكل أصوله وفروعه قائم على هذه الفطرة ومثبت لها وهاد إلى الحياة العملية المناسبة معها. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. أصل هذا الخير الفطري هو اعتراف الإنسان بأنه مخلوق لرب واحد، هو وحده الذي يستحق أن يعبد. هذا الاعتراف الفطري بالعبودية لله هو الذي يمثل جوهر الإنسان وأصل الخير فيه. لكن في الإنسان أنواعاً أخرى من الخير الفطري هي المبادئ العقلية وأصول الفضائل الخلقية، والقيم الذوقية. وهي كلها ذات ارتباط وثيق بذلك الأصل التعبدي الذي يمثل جوهر الإنسان، تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

يأتي الدين الحق - كما أسلفنا - ليبني على هذه الأصول الفطرية ويثبتها ويبلغ بها غاياتها.

من الآثار السياسية لهذا التصور الإسلامي للإنسان:

أولاً: أن الإنسان حين يعترف بالعبودية لله يتحرر من العبودية للبشر، فلا يرضى بهم مشرعين له يأمرونه وينهونه؛ لأن السمع والطاعة المطلقة هي من لوازم العبودية. فهو لا يرضى إذن بدكتاتورية فردية، ولا بديكتاتورية أغلبية كما هي الحال في الديمقراطيات الغربية، إذ إن كلاً منهما يجعله عبداً لمن يشرع له. فالحكام المسلمون أناس تختارهم الأمة لا ليحكموا بأهوائهم، ولا باسم أهواء أغلبية شعوبهم، ولكن لينفذوا حكم الله، أي ما شرعه في وحيه إلى رسوله.

ثانياً: بما أن مشاعر الأخوة هي من الخير الذي فطر الله الناس عليه، وبما أن هذا الخير يؤتي ثماره كاملة حين تكون الأخوة مرتبطة بالإيمان بالله تعالى، فإن الناس في المجتمع لن يكونوا أفراداً يسعى كل منهم لمصلحته الشخصية المحدودة كما يعتقد أنصار الفردية individualism، ولن يكونوا جماعة يذوب فيها الفرد وتضيع حقوقه كما

---

(١) البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة.

هي الحال في المذهب الجماعي collectivism، بل سيكونون أفراداً متآخين، لا تقتصر مصلحة الواحد منهم على نفسه بل تشمل كثيرين غيره، ابتداء بوالديه وأسرته وأقربائه ثم بسائر أبناء مجتمعه؛ فخير البشر قاطبة جاء رحمة للعالمين كافة.

ثالثاً: بما أن الله تعالى هو خالق الناس جميعاً، فهو الذي يعطيهم من الحقوق ما شاء. فما يسمى بحقوق الإنسان لن يكون إذن مبنياً على مجرد قرار تتخذه الأمم المتحدة وتسميه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وإنما يكون قائماً على حقوق أعطاها الله تعالى للأفراد، وحرم التغول عليها.

رابعاً: بما أن مكارم الأخلاق هي مما فطر الله الناس عليه، وجعل الالتزام بها جزءاً لا يتجزأ من الإيمان به وعبادته، فإن الدولة الملتزمة بشرع الله ستعد الالتزام بها من المصالح التي تسعى لتحقيقها، ولن تجعلها مجرد أداة تلتزم بها حين يكون الالتزام خادماً لمصالحها بالمعنى الضيق، العنصري أو القومي. وهي في هذا تختلف عن نظرية هوبز الذي كان يعد العلاقات الدولية علاقات وحوش في غابة يأكل القوي فيها الضعيف. وتختلف أيضاً عن نظرية ماكيافيلي التي تجعل كل غاية مسوغاً لكل وسيلة مهما كانت. وتختلف كذلك عن نظرية "السياسة الواقعية" realpolitik التي هي في حقيقتها تطبيق للمكيافيللية على المستوى العالمي. لكن الالتزام بمكارم الأخلاق على المستوى العالمي لا يعني الغفلة وعدم اعتبار الواقع، وإنما يعني أن لا تتخذ الدولة الكذب والخيانة والاستغلال وعدم الوفاء وما شابهها من مساوئ الأخلاق هي القيم التي تلتزمها ابتداء في معاملتها لغيرها.

خامساً: بما أن المصالح الأخرى هي أيضاً مما شرع الإسلام العمل لتحقيقها فإن الدولة الإسلامية لا تقصر تعاملها مع غيرها على تحقيق تلك المصلحة الدينية العليا مع خطورتها، بل تعمل أيضاً لتحقيق كل المصالح الدنيوية الأخرى مع أي دولة تساعدها على ذلك؛ لأن المصالح الدنيوية لا تنفصل في الإسلام ولا في الواقع عن المصالح الدينية.

سادساً: تسعى الجماعة المسلمة لتحقيق ما يمكن تحقيقه من تلك المصالح بحسب مقدرتها، وبحسب حالها وحال عصرها؛ لأن في الدين نفسه مبدأ يقول: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [**البقرة**: ٢٨٦]. فالأوامر والنواهي الإسلامية العملية [أعني التي لا تتعلق بالإيمان القلبي] ليست مطلقة، وإنما هي مقيدة بالإمكان. فإذا كانت الجماعة المسلمة عاجزة عن القيام ببعض الخير الذي أمرها الله به فإنها تحقق منه ما تستطيع ولا تكلف بما لا تطيق. وإذا لم يكن لها خيار إلا بين شرين؛ فإنها ترتكب أقلهما ضرراً. وإذا لم تكن مخيرة إلا بين جلب مصلحة أو دفع مفسدة فإنها تقدم الأولى على الثانية. كل هذه المبادئ التي قد يحسب بعض الناس أنها مبادئ عقلانية بحتة لا علاقة لها بالدين، هي من صميم الدين الحق.

سابعاً: وبما أن أيسر الطرق وأحسنها لتحقيق هذه المصلحة الدينية الأساس، بل لتحقيق ما يبنى عليها من بقية المصالح، هي حال السلم الذي يتمكن فيه الطرفان من التواصل والحوار وتبادل المصالح الدنيوية المادية والمعنوية، فإن حال السلم هذه هي الحال الطبيعية العادلة التي يفترضها الإسلام في علائق الناس بعضهم ببعض.

لكن الحال الطبيعية لا تكون هي دائماً الحال الواقعة فعلاً، ففي الناس ظلم وفيهم بغي وفيهم حب للتسلط وفيهم كراهية للحق والسعي للصد عنه. ولذلك فقد تعتدي دولة على الدولة المسلمة لأنها لا تريد للإسلام أن ينتشر، أو لا تريد للجماعة المسلمة أن تقوى اقتصادياً أو سياسياً أو عسكرياً، فتضطر الدولة المسلمة للدفاع عن أنفس مواطنيها أو للدفاع عن دينها بالطرق التي تراها مناسبة لحالها وظروفها وظروف العالم الذي تعيش فيه، فتلجأ إلى كل ما هو أقرب إلى المصلحة من حرب أو مسالمة أو معاهدة أو غيرها.

* * *

سعياً لتحقيق ما يمكن تحقيقه من المصلحة بتلك المعايير التي ذكرناها كانت علاقة الدولة الإسلامية الواقعية مع غيرها من الدول في زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين بل من بعدهم بحسب قوة التزامهم بالدين.

في السنين الأولى من بداية الإسلام كان الذين قبلوا الإسلام وكونوا نواته الأولى قلة قليلة بالنسبة لمجتمعهم المكي. وكان مجتمعاً جاهلياً شديد التعصب لما ورث من آبائه، شديد العداوة للدعوة الجديدة المخالفة لمعتقدات الآباء. لذلك سعوا بكل الوسائل لإيقاف مدها. فكانوا يعذبون كثيراً ممن آمن بها في محاولة لإجباره على الارتداد عنها. ولجؤوا إلى مقاطعة المسلمين مقاطعة تشمل كل شيء حتى مصادر الرزق. وكانوا يضطرون بعضهم للخروج من وطنهم. وهكذا. ومع كل هذا أمر المسلمون أمراً حاسماً بأن لا يرفعوا يداً لمقاومتهم، بل بأن يقيموا الصلاة ويصبروا على الأذى. لماذا؟ لأنهم لو حاولوا أن يقاوموا وهم في تلك الحالة من الضعف لأعطوا عدوهم أحسن فرصة للقضاء عليهم وإطفاء نور رسالتهم. فالمصلحة ـ مصلحة الدين والنفس ـ كانت إذن تقتضي تلك السياسة مع الأعداء.

فلما استطاع المسلمون أن يهاجروا وأن تكون لهم أرض ويكون لهم شيء من قوة أذن لهم في القتال ولم يؤمروا به، وبينت الأسباب العادلة لذلك القتال. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾

[الحج: ٣٨ – ٤١].

فالإذن بالقتال كان إذن لأسباب في غاية العدل والسمو هي أن هؤلاء الناس قوتلوا فلم يكونوا هم البادئين هم بقتال، وأن قتالهم كان ظلماً، وأنهم نفوا من أوطانهم، وأن هذا النفي كان هو الآخر من أظلم الظلم لأنه كان اعتداء على أسمى وأهم حق للإنسان هو أن يعبد ربه لا يشرك به. وهذا الإذن بالقتال كان لأن أهل الحق إذا لم يدافعوا عنه بالقوة لم يكتف عدوهم بمخالفتهم في الاعتقاد بل حاربهم وخرب حتى بيوت عبادتهم. ثم إنه أذن لأناس إذا ما تمكنوا في الأرض بهذا القتال استعملوا تمكنهم فيها لتحقيق أسمى الغايات: عبادة لله، وإحساناً إلى خلق الله، وأمراً بكل ما فيه نفع لهم ونهياً عن كل ما فيه إضرار بهم. ثم لما ازدادت قوة المسلمين وازداد أذى أعدائهم وحربهم لهم أمروا بمقاتلة كل من قاتلهم، فأصبح القتال الآن واجباً لا شيئاً مأذوناً به فحسب. وهنا أيضاً ذكر الله سبحانه وتعالى مسوغاته، فقال سبحانه:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧ - ١٥].

مسوغات هذا القتال إذن هي أن هؤلاء قوم:

١ . لم يلتزموا بعهدهم بل خانوه؛ هذا مع أن المسلمين ملزمون بالالتزام بعهودهم ديناً لأن الالتزام بها من التقوى التي يحبها الله تعالى، فهو ليس أمراً تكتيكياً عارضاً، وليس لمصلحة ضيقة. ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

٢ . وهم قوم قد عرف من عادتهم أنهم إذا كانت لهم الغلبة فلا يراعون فيمن غلبوه عهداً ولا قرابة.

٣ . وأنهم قوم العلاقات عندهم دبلوماسية مبنية على النفاق، يظهرون غير ما يبطنون.

٤ . أنهم قوم معتدون لم يقفوا عند حدود رفض الإسلام وعدم الدخول فيه، بل سعوا إلى الوقوف ضده وصد الناس عنه.

٥ . ومع نكثهم بالعهد فقد أرادوا إخراج الرسول ﷺ.

٦ . وهم الذين بدؤوا بالقتال.

فالقاعدة إذن أن كل من يرتكب ظلماً واعتداء كهذا فقتاله واجب من حيث المبدأ، لكن لا بد من اعتبار الظروف في تنفيذه مراعاة لمبدأ تكثير الخير وتقليل الشر بحسب الحال والزمان والمكان. هذا مع أنه بحسب تلك الأصول الإسلامية في العلاقات بين البشر فإن الحال المفضلة حين حال السلم. وقد كان تقرير هذا المبدأ واضحاً في تسويغ الرسول ﷺ عرض الصلح على عدوه من كفار مكة عام الحديبية، حيث أوضح لهم أن الصلح في مصلحتهم. قال ﷺ:

إنا لم نجئ لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا إلا القتال فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره[1].

لكن يجب أن نؤكد بأن هذا لا يعني الخروج على المبادئ الخلقية بأي حال من الأحوال لا في حال السلم ولا حال الحرب ولا حال الصلح ولا الهدنة ولا غيرها. من الأمثلة الرائعة لهذا الالتزام الشديد بالخلق القويم؛ أن الله تعالى أكده للمسلمين حتى مع المعتدين عليهم المانعين لهم من حق من حقوقهم. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية[2]:

أَيْ لَا يَحْملَنَّكُم بُغْض مَنْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنْ الْوُصُول إِلَى الْمَسْجِد الْحَرَام وَذَلِكَ عَام الْحُدَيْبِيَة عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّه فِيهِمْ فَتَقْتَصُّوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بَلْ اُحْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمْ اللَّه بِهِ مِنْ الْعَدْل فِي حَقّ كُلّ أَحَد وَهَذِهِ الْآيَة كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٨] أَيْ لَا يَحْملَنَّكُم بغض قَوْم عَلَى تَرْك الْعَدْل فَإِنَّ الْعَدْل وَاجِب عَلَى كُلّ أَحَد فِي كُلّ حَال وَقَالَ بَعْض السَّلَف: مَا عَامَلْت مَنْ عَصَى اللَّه فِيك بِمِثْلِ أَنْ تُطِيع اللَّه فِيهِ وَالْعَدْل بِهِ

(١) الإمام ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، فصل في قصة الحديبية.

(٢) تفسير القرآن العظيم للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي.

قَامَتْ السَّمَوَات وَالْأَرْض. وَقَالَ ابْن أَبِي حَاتِم حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا سَهْل بْن عَفَّان حَدَّثَنَا عَبْد اللَّه بْن جَعْفَر عَنْ زَيْد بْن أَسْلَمَ قَالَ كَانَ رَسُول اللَّه ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ وَأَصْحَابه حِين صَدَّهُمْ الْمُشْرِكُونَ عَنْ الْبَيْت وَقَدْ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَمَرَّ بِهِمْ النَّاس مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْل الْمَشْرِق يُرِيدُونَ الْعُمْرَة فَقَالَ أَصْحَاب النَّبِيّ - صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَصُدّ هَؤُلَاءِ كَمَا صَدَّكَ أَصْحَابهمْ فَأَنْزَلَ اللَّه هَذِهِ الْآيَة وَالشَّنَآن هُوَ الْبُغْض قَالَهُ ابْن عَبَّاس. . . . .

وَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعُدْوان﴾ [المائدة: ٢] يَأْمُر تَعَالَى عِبَاده الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَى فِعْل الْخَيْرَات وَهُوَ الْبِرّ وَتَرْك الْمُنْكَرَات وَهُوَ التَّقْوَى وَيَنْهَاهُمْ عَنْ التَّنَاصُر عَلَى الْبَاطِل وَالتَّعَاوُن عَلَى الْمَآثِم وَالْمَحَارِم.

ومن أمثلة هذا حتى بعد عهد النبوة قصة حدثت في زمان الخليفة معاوية بن أبي سفيان[1]. كَانَ مُعَاوِيَةُ يَسِيرُ فِي أَرْضِ الرُّومِ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ أَمَدٌ فَأَرَادَ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُمْ فَإِذَا انْقَضَى الْأَمَدُ غَزَاهُمْ فَإِذَا شَيْخٌ عَلَى دَابَّةٍ يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدْرًا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ " وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَحِلَّنَّ عُقْدَةً وَلَا يَشُدَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ " قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَرَجَعَ فَإِذَا بِالشَّيْخِ عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❋ ❋ ❋

فننظر الآن نظرة خاطفة إلى واقعنا الدولي المعاصر بمنظار هذه القيم الإسلامية. فماذا نرى وماذا نقول؟ نقول:

أولاً: إن فكرة الأمم المتحدة هي من حيث المبدأ فكرة مفيدة لأنها تساعد على حل

(١) روى ابن كثير هذا الحديث عن الْإِمَام أَحْمَد من رواية سَلِيم بْن عامر. ثم قال وَهَذَا الْحَدِيث رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ عَنْ شُعْبَة وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن حِبَّان فِي صَحِيحه مِنْ طُرُق عَنْ شُعْبَة بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيّ حَسَن صَحِيح.

مشكلات الدول بالطرق السلمية وتشجع على التواصل والتعاون بينها. وقد حققت هذه المؤسسة في واقعها كثيراً من هذه الفوائد. بيد أن استمرارها في تحقيق غاياتها بشكل أفضل يحتاج إلى إصلاحات نخشى إن لم يؤخذ بها أن تفقد هذه المؤسسة أهميتها. أهم ما يؤخذ على المؤسسة وسائر المؤسسات الدولية أنها صارت أدوات تستخدمها الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة لتحقيق مآربها الوطنية وأطماعها التسلطية.

من خلال مؤسسة النقد الدولية وغيرها من المؤسسات الاقتصادية العالمية يعمل الغرب على التمكين لمصالحه الاقتصادية، ويفرض على الدول الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها هو مناسبة...... إن غير الغربيين لا يترددون في الإشارة إلى البون الشاسع بين المبادئ الغربية والفعل الغربي. النفاق، ثنائية المعايير، كثرة الاستثناءات هي الثمن الذي يدفع مقابل ادعاءات العالمية الكاذبة: الديمقراطية يروج لها إلا إذا أتت بالإسلاميين الأصوليين إلى الحكم، عدم انتشار الأسلحة تدعى إليه إيران والعراق ولا تدعى إليه إسرائيل، التجارة الحرة هي إكسير النمو الاقتصادي حاشا الزراعة، حقوق الإنسان قضية مع الصين، ولكن ليس مع السعودية[١]، الاعتداء على الكويت التي تملك البترول يصد بقوة هائلة، لكن ما هكذا الأمر بالنسبة للبوزنيا التي لا بترول لها[٢].

وكل هذا أمر مؤسف لأنه يتنافى مع الهدف الذي من أجله أنشئت مثل تلك المؤسسات العالمية إذ إنها إنما أنشئت للتعاون بين دول العالم وشعوبه ولحل مشكلاتها

---

(١) هكذا كان الأمر في الوقت الذي ألف فيه الكاتب كتابه، أما الآن فإن الأمر مختلف جداً مع السعودية!

(2) Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Touchstone, 1997, p. 184. (الاقتباس هو من ترجمتي)

بالطرق السلمية. لكن هذا لا يتحقق إلا بالالتزام بالقيم الخلقية، قيم الصدق والعدل والأمانة والوفاء بالعهد، والمعاملة بالمثل. أما أن يقال إن هنالك دولاً متحضرة يحق لها أن تمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يكفي لتحطيم الكرة الأرضية كلها عدة مرات، أما غيرها فإنه لا حق لها في امتلاكها بل هو جريمة بالنسبة لها، ولا سيما أنها كلها أو بعضها مما يصفونه بالدول المارقة rogue states. لو أن حضارة هذه الدول الغربية كانت تعنى فعلاً التزامها بالقيم وبالعدل في معاملة غيرها، لما اعترض أحد على امتلاكها لتلك الأسلحة. أما أن تصرح بأن غايتها الكبرى هي المحافظة على مصالحها القومية (وبالمعنى الضيق لها) وأن تبيح لنفسها في سبيل ذلك كل أنواع الخروج على القيم الخلقية، وعلى عدم الالتزام بقرارات الأمم المتحدة، ثم الذهاب باسمها لغزو بلد آخر واحتلاله بحجة أنه لم يلتزم بقرارات الأمم المتحدة، فكيف تتوقع أن يحبها غيرها أو يقدرها. نعم إن غيرها ربما خشي بعضهم قوتها وجبروتها فاستسلم لها إلى حين. لكن هذا لن يجعل كل الدول مستسلمة لها. بل إن معاملتها هذه ستكون هي نفسها سبباً في حدوث ما تخشاه: أعني أن بعضاً من تلك الدول الأخرى ستسعى لامتلاك ما يسمى بأسلحة الدمار الشامل حين ترى أنها هي الوسيلة الوحيدة التي تحافظ بها على استقلالها وأمنها وتعيد لها كرامتها وعزتها.

قضية أخرى من كبرى قضايا علاقاتنا الدولية هي أن الدول الغربية استقرت في نظم حكمها على اختيار العلمانية وفصل الدين عن الدولة وكان من أسباب ذلك تحقيق الحرية الدينية. لكنها الآن جعلت من العلمانية نفسها ديناً تريد فرضه على بقية شعوب الأرض بحجة أن ما اختاروه هم من نظم سياسية وتصورات لحقوق الإنسان، وللعلاقات بين الجنسين وهكذا، ليس قيماً غربية وإنما هي قيم إنسانية لا يجوز لأحد أن يعترض عليها أو يمتنع من ممارستها بحجة دينية أو ثقافية! ما هذا؟ كيف تقول

لغيرك إنه لا يجوز لك أن تفرض على الناس ديناً تؤمن بأنه من عند الله ثم تأتي أنت لتفرض عليه ديناً تعترف بأنه من اختراعك البشري؟ سيقولون لكن هذا ليس ديناً وإنما هو حاجة إنسانية. لكننا نقول إن الأوصاف اللفظية لا تغير الحقائق الواقعية. أليس هذا الذي تريدون فرضه على غيركم منهجاً في الحياة؟ فإذا لم يكن الدين منهاج حياة فيا ليت شعري ماذا يكون؟ وعلى كل فإذا لم تكن الأديان غير الإسلامية مناهج حياة، فالذي لا شك فيه والذي غدا يعرفه كل من له فكرة عن الإسلام الآن أنه منهج حياة. فكيف يرضى أناس كالمسلمين المستمسكين بدينهم أن يقال لهم لا تكونوا أنتم دعاة إلى دينكم ولا تحاولوا الدفاع عنه بأي طريق من الطرق حتى السلمي منها؛ لأنكم ستوصمون حينئذ بالتشدد والتطرف وعدم الاعتراف بالآخر. أما نحن فمن حقنا أن نغزو بلادكم ونفرض قيمنا (ديننا) عليكم لأن هذا هو الطريق الوحيد لتحضيركم واتقاء شركم. ولذلك ففي الوقت الذي يضيق فيه على الدعاة إلى الإسلام في البلاد الغربية، لا تتردد هذه البلاد نفسها من فتح قنوات تلفازية حكومية موجهة إلى البلاد العربية للدعاية للثقافة والحضارة الغربية. وفي الوقت الذي يقال فيه لمن يطالبون بالحكم الإسلامي إنكم متشددون متعصبون، تضغط بعض البلاد الغربية على البلاد العربية لا لتطبيق النظام الديمقراطي فحسب، بل لاختيار نمطه الأمريكي خاصة، وفي الوقت الذي يقال فيه إن الدعوة إلى الإسلام إنما هي تعبير عن رفض الآخر يصرح فيه رجل كرئيس وزراء بريطانيا في آخر خطاب له عن الإرهاب بأن (أحسن دفاع عن أمننا يكمن في انتشار قيمنا لكننا لا نستطيع أن نمكن لها إلا إذا في إطار يعترف بعالميتها)[1]. والمشكلة بالنسبة للمسلمين أن هذه القيم الغربية تعرض الآن ـ وكما جاء في خطاب بلير هذا ـ على أنها هي وحدها الضمان لأن يعيش الناس في أمن وسلام. وأما القيم الإسلامية فبالرغم من تأكيدات علماء المسلمين وزعمائهم السياسيين بأنه لا

---

(١) انظر الخطاب في موقع (BBC) على الانترنت. الاقتباس ترجمته عن النص الإنجليزي.

علاقة لها بالإرهاب كما معروف الآن، فإن كثيراً من الغربيين صاروا يذيعون الفرية بأن هنالك تلازماً بين أصول الإسلام وبين هذا الإرهاب، وأن على المسلمين لذلك إما أن يتخلوا عن الإسلام أو أن يبدلوه فيجعلوه موافقاً للقيم الغربية؛ فإسلام أمريكي وإسلام فرنسي، وإسلام عصراني، وهكذا. والله المستعان.



القسم الثاني:

أسس الفكر الغربي ونقدها



نقد للفكر الغربي بمنهج علمي

المنهج العلمي:

المنهج العلمي الذي نريد اتباعه في نقدنا هذا هو منهج كان قد اتبعه علماؤنا السابقون الذين تعرضوا لنقد مخالفيهم من المسلمين وغير المسلمين، علماء من أمثال ابن حزم والغزالي والشهرستاني وابن تيمية وغيرهم.

مما تميز به هذا المنهج:

أولاً: أن أصحابه كانوا حريصين على أن يقرروا أقوال مخالفيهم كما هي فلا يزيدون عليها ولا ينقصون منها. وهذا أمر مهم لأن الذي يحرف كلام خصمه لا يكون قد انتقده بل انتقد شخصاً اخترعه من خياله. وهذا أمر قد يزيد الخصم إصراراً على رأيه الذي يراه الناقد باطلاً، وقد يكون فيه تضليلاً للذين يثقون بالناقد فيظنون أن ما قاله عن خصومه حق. من أمثلة ذلك ما فعله الشهرستاني.

ثانياً: كان من القواعد التي التزموا بها أن لازم القول ليس بقول. وعنوا بذلك أنه

لا ينسب إلى الخصم قول يلزم لزوماً عقلياً عن قوله ما دام هو لم يصرح به. من أوضح الأمثلة على ذلك قول المعتزلة إن الإنسان يخلق أفعاله الاختيارية. يلزم عن هذا القول أن هنالك أشياء لا يخلقها الله تعالى، وهذا مخالف لقوله تعالى ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] فهم نقول إن المعتزلة ينكرون هذه الآية؟ كلا لأنهم لم يصرحوا بشيء كهذا.

ثالثاً: كانوا يميزون بين ما في كلام الخصم من حق وما فيه من باطل فينتقدون الثاني ويزيفونه ولا يترددون في إقرار الأول. من أمثلة ذلك ما قاله الإمام الغزالي في مقدمة كتابه تهافت الفلاسفة. قال رحمه الله:

القسم الثاني ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلاً من أصول الدين، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء والرسل منازعتهم فيه.

ثم ذكر مثالاً على ذلك بكسوف القمر ثم قال:

وهذا الفن أيضاً لسنا نخوض في إبطاله إذ لا يتعلق به غرض. ومن ظن أن إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره، فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا يبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها...... إذا قيل له إن هذا على خلاف الشرع، لم يسترب فيها وإنما يستريب في الشرع. وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه. وهو كما قيل عدو عاقل خير من صديق جاهل.

رابعاً: وكان منهم من ينتقد دعاوى المخالفين نقداً عقلانياً بحتاً كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية في كتبه التي رد فيها على المخالفين ككتاب (الرد على المنطقيين) وككتابه الكبير المسمى (درء تعارض العقل والنقل).

خامساً: وكان الكثير منهم يقارن بين الأفكار التي ينتقدها ليبين أنها رغم بطلانها إلا أن فيها ما هو أقرب إلى الحق من غيره.

سادساً: ومما لا شك فيه أنهم كانوا يقارنون بين الفكر الذي ينتقدونه والقول الحق الذي يعتقدونه. لكن هذه المقارنة أيضاً كانت عند الكثيرين منهم مبنية على حجج وبراهين.

سابعاً: مما يتطلبه هذا المنهج العلمي بيان الآثار المترتبة على الأقوال حسنة كانت أو سيئة.

نقول أخيراً إن هنالك أمراً يجب التنبيه إليه هو أن التزام المنهج العلمي لا يعصم من الخطأ حتى في العلوم الطبيعية. ولذلك تجد الملتزمين به يرد بعضهم على بعض ليبين خطأه ويبين الصواب الذي اعتقده. وهذا ما كان يفعله أولئك العلماء المسلمون. قد يقول قائل: ما فائدة المنهج العلمي إذن؟ نقول: فائدته أولاً أنه وإن كان لا يعصم من الأخطاء إلا أنه يقللها. وفائدته ثانياً أنه يمكن المختلفين من التحاور والرجوع إلى الحق.

سنحاول إذن أن نلتزم بهذا المنهج العلمي في تناولنا للفكر الغربي، وسنركز على جوانبه الجوهرية وجوانبه التي كان لها وما يزال تأثير كبير على المسلمين. سنحاول أن نبين مدى موافقة هذا الفكر وهذه القيم الغربية للإسلام ومدى مخالفتها له.

الفكر الغربي:

من البدهي أننا لن نستطيع أن نتعرض للفكر الغربي كله عرضاً أو نقداً في هذا المقال القصير. ولهذا فسنكتفي بما نراه أصولاً لهذا الفكر وعلى جوانبه المؤثرة في المسلمين حالياً أو ما نظنه مستقبلاً. ولن نركز كثيراً على شرح الفكر فإن كثيراً منه معروف، لكننا سننشغل بنقده بذلك المنهج العلمي، وبمقارنته بحقائق الدين الإسلامي والفكر الإسلامي.

في الفكر الغربي تياران كبيران أحدهما هو التيار الغالب في المؤسسات والشخصيات الأكادمية ولا سيما في أوربا. وهو الفكر الذي بدأ في القرن الثامن عشر

وانتشر في أوربا كلها ثم في أمريكا، وهو الفكر الذي سماه أصحابه بالفكر التنويري والذي غلب عليه الصدام مع الدين. والتيار الآخر هو التيار المحافظ الذي ظل مرتبطاً بالدين النصراني نوعاً من الارتباط والذي ما يزال له تأثير كبير على السياسة ولا سيما في الولايات المتحدة. لكن الفكر الغربي كانت وما تزال فيه تيارات مخالفة لهذين التيارين الغالبين كتيار الفكر الماركسي، ثم إن كونه غربياً لا يعني أنه الفكر الذي يسير في ضوئه كل الغربيين إذ إن من الغربيين من ظل منتمياً إلى الدين كما قلنا، ومنهم من أنكر أساس هذا الفكر بفطرته.

ما الحركة التنويرية Enlightenment؟

سمى الغربيون الفكر الجديد هذا بالفكر المستنير وسموا عهده بعهد العقل (Age of Reason)، واعتقدوا أن العقل هو الذي يمثل المشروعية والمرجعية النهائية في كل نواحي الحياة البشرية من أخلاق وسياسة واقتصاد وعلوم طبيعية واجتماعية وقضايا دينية وفلسفية.

ولما كان استعمال العقل والاعتماد عليه يقتضي أن يكون الإنسان حراً لا تقيده قيود تشل تفكيره وتعبيره فقد ركزوا تركيزاً كبيراً على قضية الحرية

ولما كان هذا الاتجاه العقلاني رد فعل للتقليد الذي كان سائداً في مجال الدين والفلسفة بل حتى العلوم الطبيعية، فقد تميز بحدة نقده للأفكار المتوارثة وتشجيعه للناس عامة بأن يستعملوا عقولهم ويحرروا أنفسهم من التبعية العمياء، وكان يهدف لذلك إلى إعطاء عامة الناس حرية أكبر تتمثل فيما أسموه بحكم الذات والحقوق الطبيعية والقانون الطبيعي والربوبية الطبيعية أو الإله الطبيعي[1].

---

(١) الألوهية الطبيعية deism هي الاعتقاد في خالق خلق الخلق ثم تركه وشأنه فلا يتدخل في سير حركته الطبيعية ولا الاجتماعية.

وقد كانت هذه المبادئ ثورة على اللاهوتية والأليكاركية (حكم الأقلية) والارستقراطية والقانون الإلهي للملوك. لقد كان عهد التنوير عهداً مفارقاً للقرون الوسطى التي تميزت بالسلطة الدينية والاقتصاد الموجه، والرقابة على الآراء، إلى عهد الكلام العقلاني والتقويم الشخصي والجمهورية والليبرالية والطبيعي[1] naturalism والمنهج العلمي والحداثة.

ولما كانت التنويرية حركة اشترك فيها عدد كبير من المفكرين فإنها لم تكن تمثل فكراً واحداً متسقاً، بل كان هنالك تناقض بين أقوال مؤسسيها. لكن المبدأ الذي كان يجمعهم هو عدم التسليم بالموروثات الدينية والفلسفية وغيرها، والتشكيك فيها ونقدها نقداً عقلانياً كما يتصورون.

في التنويرية القليل مما هو حق ومفيد والكثير مما هو باطل وضال. وكثير من هذا الأخير كان بسبب الظروف الخاصة بأوربا.

إذا كان المنتمون إلى الحركة التنويرية مختلفين بل متناقضين كما تقول مراجع هذا الفكر؛ فإن منهم من كان أكثر شهرة وتأثيراً من غيره. من هؤلاء الفيلسوف الألماني الشهير عمانيويل. سنبدأ بما كتبه في مقدمة مقال له بعنوان (إجابة عن السؤال: ما التنويرية؟) الذي تقول المراجع إنه كان من أكثر كتاباته ذيوعاً وتأثيراً؟

يقول (كانت)، وأنا هنا أترجم عن إحدى الترجمات الإنجليزية المنشورة على الشبكة:

إن التنويرية هي خروج الإنسان من عدم النضج الذي فرضه على نفسه. عدم النضج هو عدم مقدرة الإنسان على أن يستعمل فهمه من غير إرشاد من غيره. يكون عدم النضج هذا مفروضاً على الإنسان من نفسه عندما لا يكون سببها عدم الفهم

---

(١) مبدأ ينكر كل التفسيرات الروحية والخارجة عن الكون لما يحدث فيه ويقول إن العلوم الطبيعية هي وحدها الأساس لكل ما يمكن أن يعلم.

ولكن عدم العزيمة والشجاعة في أن يستعملها من غير إرشاد من غيره. . . "لتكن لك الشجاعة على استعمال فهمك" . هذا هو شعار التنويرية .

هذا في مجمله كلام صحيح لا يعترض عليه المسلم، بل يجد له أصلاً في دينه وكلام علمائه كما سنبين، لكن هنالك فرقاً بين أن يعطل الإنسان عقله ويعتمد على غيره في فهمه، وبين أن يستعين بغيره على الفهم . الأول هو المذموم وأما الثاني فلا يمكن أن يكون فهم مستقيم إلا به، وإلا كان على كل إنسان أن يبدأ من جديد كلما أراد أن يفكر في أمر من الأمور .

لكن (كانت) كما يقول أحد مقدمي مقاله هذا كان كسائر التنويريين يعني بهذا الاستقلال أن لا يعتمد الإنسان على تشريع ديني ولا حتى على إرادة الله تعالى[1] .

وإنما يعتمد فقط على عقله لأن العقل مكون بطريقة تمكن صاحبه من الوصول إلى الحقائق بغير استعانة بتلك المراجع الدينية .

هذا الاعتقاد الذي ساد كما ذكرنا في القرن الثامن عشر كان فيما يبدو لي الأساس الذي اعتمدت عليه كل أنواع الفكر الغربي في كل نواحي الحياة تقريباً سواء في ذلك ما كان منها حسناً وما كان سيئاً . فالدعوة إلى اعتماد الإنسان على نفسه في الفهم قادت إلى الفردية ثم إلى الأنانية . وكانت أيضاً سبباً في الدعوة إلى المساواة ثم الدعوة إلى أن يكون الناس هم الحاكمين لأنفسهم لا يعتمدون في ذلك على رضى ربهم ولا على تشريع منزل من عنده، ولا يرضون بأن يكون الحكم ملكياً أو حكم قلة . وهذا هو الذي دعاهم لأن يعودوا إلى الحكم الدمقراطي الذي كان سائداً في أثينا لفترة من الزمان . وعدم الثقة بالأديان وكثرة النقد الموجه لها أدى إلى التسامح الديني ؛ لأنه إذا كان كل دين مشكوكاً في صحته، فما مسوغ شدة الخلاف بسببه، وما مسوغ امتناع أي

---

(1) http://www-personal.ksu.edu/~lyman/english233/Kant-WIE-intro.htm.

أحد في أن يختار منه ما شاء؟ وقد اغتر كثير من الغربيين بالدعوة إلى الاعتماد على العقل فلم يميزوا بين استعمال العقل والسير من الهوى، بل حسبوا أن كل ما يخطر ببال أحدهم مما يراه محققاً لما يظن أنه مصلحة أو ما يراه مشبعاً لما هو شهوة إنما هو دليل على استقلاله واعتماده على عقله.

لماذا وقف التنويريون من الدين ذلك الموقف شبه العدائي؟

لهذا سببان:

أولهما: الاستكبار فكثير من الناس لا يريد أن يكون لله تعالى سلطان عليه ولا تشريع يلزمه به وهذا أمر قديم. فالقرآن يذكرنا بأن بعض الناس كانوا رغم اعترافهم بوجود الخالق ينكرون أن يكون سيبعثهم فيحاسبهم أو أن يرسل لهم رسلاً يأمرونهم وينهونهم. ولأمثال هؤلاء قال الله تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى**﴾ [**القيامة: ٣٦ - ٤٠**].

أما السبب الثاني: فهو أن هؤلاء التنويريين وكثيرين غيرهم من غير المسلمين لم يجدوا بين أيديهم كتباً منزلة صحيحة يعتمدون عليها بل اكتشفوا بعقولهم أن هذه الكتب لا يمكن أن تكون وحياً من الله تعالى. لكن الذي يؤخذ عليهم أنهم لم يبحثوا عن الدين الصحيح، بل اعتقدوا كما لا يزال يعتقد الكثيرون منهم أن الدين الوحيد هو دينهم فإذا ثبت بطلانه فكل دين سواه باطل. وهذا ما حدث في عصرنا لرجل قال عن نفسه في كتاب له عن تجربته مع دراسة ما يسمونه بالكتب المقدسة. قال:

مما لا شك فيه أن تلك الدعوة إلى استعمال العقل كانت لها آثار حسنة. فهي التي خلصت الناس من تبعية كانت لآراء ارسطاليس حتى في المسائل الطبيعية. وهي التي خلصتهم من الخرافات التي كانت مرتبطة بالدين، كما خلصتهم من التبعية العمياء لرجاله الجهلاء.

وإذا كانت الحركة التنويرية قد بنيت على أساس التعارض بين العقل والدين فإن المسلمين لم يجدوا في كتاب ربهم ما يدعوهم إلى مثل هذا القول. إنهم يقرؤون كتاب ربهم فيجدون أنه يصف الكفار، لا المؤمنين بعدم الالتزام بالعقل. وهذا هو شيخ الإسلام ابن تيمية يكتب أكبر كتبه في عدم التعارض بين الشرع والعقل[1]، لكن الشيخ لخص موقف علماء المسلمين من علاقة العقل بالشرع تلخيصاً وافياً في قوله في كتاب آخر:

وأما أئمة أهل السنة كالصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن سلك سبيلهم من أئمة المسلمين، فهؤلاء أتوا بخلاصة المعقول والمنقول، إذ كانوا عالمين بأن كلاً من الأدلة السمعية والعقلية حق، وأنها متلازمة. فمن أعطى الأدلة العقلية اليقينية حقها من النظر التام علم أنها موافقة لما أخبرت به الرسل، ودلته على وجوب تصديق الرسل فيما أخبروا به. ومن أعطى الأدلة السمعية حقها من الفهم علم أن الله أرشد عباده في كتابه إلى الأدلة العقلية اليقينية التي بها يعلم وجود الخالق وثبوت صفات الكمال له.

إلى أن قال:

فدل على أن مجرد العقل يوجب النجاة، وكذلك مجرد السمع. ومعلوم أن السمع لا يفيد دون العقل، فإن مجرد إخبار المخبر لا يدل إن لم يعلم صدقه، وإنما يعلم صدق الأنبياء بالعقل.

لكن المؤسف حقاً أنه في الوقت الذي كانت فيه هذه الحركة التنويرية تدعو الناس في الغرب إلى استعمال عقولهم، وكانت بلا شك من أسباب نهوضهم، كان العالم الإسلامي قد وصل إلى ما يقرب من درجة الحضيض في التبعية والتقليد وقبول

---

(١) الكتاب هو المسمى: (درء تعارض العقل والنقل)، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم وهو في طبعته هذه التي تشمل تعليقات المحقق والفهارس يتكون من أحد عشر جزءاً.

الخرافات. ولا بد أن هذا كان سبباً بل ربما كان السبب الأساس في تخلفه بالنسبة للغرب.

لكن الأمر الذي أراه غريباً ومحيراً هو تأثر بعض علمائنا بمسألة التعارض بين العقل والشرع حتى صاروا يصفون بالعقلانية أو بصاحب المذهب العقلاني كل من يرون فيه انحرافاً عن الدين الحق. مع أنك تقرأ كتاب الله تعالى كله من أوله إلى آخره فلا تجد فيه أن الله تعالى عزا ضلال أحد إلى اعتماده على عقله، وإنما يعزو ذلك إلى اتباعه لهواه. وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

القيم الغربية:

يلاحظ على حديث معظم الغربيين عن القيم الغربية ما يلي:

أولاً: أنهم يدخلون فيها كل ما هو سائد عندهم اليوم في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الحياة الاجتماعية أو الدين أو غير ذلك من غير تمييز بين ما هو من خصائصهم وما هو أمر مشترك بينهم وبين غيرهم، وما هو أمر عابر يوشك أن يتغير. تراهم لذلك يدخلون فيما يسمونه بقيمهم أشياء مثل: الحرية الفردية التي صارت تشكل حرية كل أنواع الاتصالات الجنسية بين المتراضين، الدمقراطية، حكم القانون، المحاكم العادلة، الانتخابات، القيم الخلقية، التسامح الديني، حقوق الإنسان، حقوق المرأة، حق السفر.

ثانياً: القيم التي يعتزون بها هي كما قال بعضهم قيم انتقائية لا ذكر فيها لأمور مثل الشمولية التي نشأت أول ما نشأت في الغرب، ولا للاسترقاق الذي استفحل

أمره في الغرب وبقي لمئات السنين[1].

ثالثاً: . ولا يفرق معظمهم بين ما هو قيم غربية بمعنى أنها نشأت وترعرت في الغرب، وبين ما كان مصدره غير غربي.

رابعاً: إذا ما تكلم بعضهم عن القيم الإسلامية فإنهم لا يفرقون بين ما هو حاصل في البلاد الإسلامية وبين ما هو من الدين الإسلامي.

خامساً: أن دعاتها لا يعترفون بفضل الإسلام على الغرب، وربما كانوا جاهلين به. لكن بعضهم يعترف بهذا الفضل. هاهو كاتب في جريدة بريطانية يقول: إن معرفة بالإسلام حتى لو كانت سطحية تكشف عن تاريخ طويل من التطور العلمي، وأهمية العقل، والتسامح الديني، وحكم القانون. لماذا يعتقد الناس الآن أن هذه المبادئ المهمة إنما هي حقوق طبع محفوظة لفترة من فترات التاريخ الأوربي[2]؟

وهذا كاتب غربي آخر يكتب مقالاً بعنوان (درس في الإنسانية للغرب المغرور) يقول في بداية مقاله:

إن كثيراً من القيم الغربية التي نعتقد أنها متفوقة جاءت من المشرق وغرورنا الأعمى يضر بمكانتنا في العالم.

ثم يمضي الكاتب ليقول إنه يعيش في دلهي بالقرب من بقايا العاصمة المغولية التي بناها الإمبراطور أكبر نهاية القرن السادس عشر. ويقول إنه في هذه العاصمة كان أكبر

(1) Western Values, Wikipedia, the Free Encyclopedia.

(2) Medeleine Bunting, (The Convenient Myth that Changed a Set of Ideas into Western Values) Guardian News & Media 2008, published 4/9/2006.

ينصت باهتمام إلى ما يقوله الفلاسفة والصوفية والعباد من كل ملة وهم يتناظرون في مزايا معتقداتهم وهو ما يعد أول تجربة في المحاورة الرسمية بين الأديان.

ثم يقول: إن هذا كله حدث في الوقت الذي كان اليسوعيون يشنقون في لندن ويقطعون أرباعاً في تايبم في إسبانيا والبرتغال. لقد كانت محاكم التفتيش تعذب كل من يتحدى معتقدات الكنيسة الكاثوليكية. . . . . . . لقد كان أكبر رجلاً واحداً تمثلت فيه كل القيم التي ندعي نحن في الغرب أنها قيمنا[1].

سادساً: صار الكثيرون من الغربيين في زماننا هذا يدعون أن قيمهم ليست قيماً غربية أو أوربية فحسب كما كانوا يقولون في الماضي، وإنما هي قيم إنسانية صالحة لكل البشر. والكثيرون منهم يدعون هذا لمجرد تسويغ تدخلهم في شؤون الشعوب الأخرى. ما الدليل على أنها قيم إنسانية كما يدعون؟ إن الدليل إما أن يكون بكلام نعلم بيقين أنه كلام الله، وإما أن يكون بأدلة من العلوم الطبيعية أو النفسية. ولا نعلم في ذاك ولا في هذا ما يشير إلى أن أشياء مثل إباحة الشذوذ هي قيم إنسانية صالحة لكل الناس في كل زمان ومكان.

سابعاً: لكن ينبغي الاعتراف بأن القيم الغربية، حتى ما كان منها من باب الانحراف، بل لا سيما ما كان منها من هذا الباب بدأت تنتشر انتشاراً واسعاً في العالم بما في ذلك العالم الإسلامي. خذ مسألة أزياء النساء مثلاً. إن ما تلبسه المرأة مبني في الثقافات الجاهلية كلها بما فيها الثقافة الغربية على أساس جذب أنظار الرجال. هذا كلام يقوله بالنسبة للغرب بعض قائدات ما يسمى بالحركة النسوية، يقلنه لا موافقة له بل اعتراضاً عليه لأنهن يردن للمرأة أن تكون مستقلة عن الرجال. وهو ما تقوله بعض

(1) William Dalrymple,(A lesson in humility for the smug West), The Sunday Times, October 14, 2007.

اللائي منَّ الله عليهن بالإسلام. أذكر أن إحداهن قالت بعد أن تحجبت كلاماً فحواه أن تلك كانت أول مرة تشعر فيها أنها لبست شيئاً لنفسها لا للرجال.

والنساء عندنا في العالم الإسلامي انقسمن إلى ثلاثة أقسام. فقسم سار في طريق النساء الغربيات فلم تعد ترى فرقاً بينهن وبين أولئك كما هو مشاهد على شاشات التلفاز. وقسم أراد أن يظل مستمسكاً بدينه، لكنه أراد في الوقت نفسه أن يراعي القيم الغربية. فلما كان القرآن الكريم يقول لها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَ﴾ [النور: ٣١] فإنها صارت تغطي شعرها وصدرها. لكنها لم تعد تلتزم ببقية ما يتطلبه الحجاب منها. فالمقصود من الحجاب (على عكس المقصود من اللبس الجاهلي) أن يكون حجاباً عن الرجال. والحجاب يعني أن تلبس ما يغطي جسمها، ولا يكون شفافاً يكشف عما تحته، ولا يكون محدداً لمعالم جسمها. وقسم ثالث ظل بحمد الله تعالى مستمسكاً بالحجاب الشرعي.

ثامناً: ما السر في تأثر الناس في العالم كله هذا التأثر الشديد بانحرافات الثقافة الغربية ولا سيما في مجال المرأة؟

لعل سبب ذلك أمران:

أولهما: ضعف الاستمساك بالدين. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩ - ٦٠].

فكلما حصل التهاون في أداء الصلوات قوي الميل إلى الشهوات.

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ثانيهما: التفوق الهائل الذي وصل إليه الغرب في كل مجالات العمران والاقتصاد والتسلح والإعلام وغيرها. والناس كثيراً ما يربطون خطأ بين التقدم العمراني وصحة المذهب الذي يعتنقه أصحاب ذلك العمران. قال تعالى عن كفار قريش: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٣ - ٧٤].

قال ابن كثير:

...... ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أي أحسن منازل، وأرفع دوراً، ... يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على الباطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون...... على الحق؟

تاسعاً: دعوى بعض الغربيين المعاصرين بأن قيمهم قيم إنسانية عالمية دعوى لا دليل عليها. وذلك لأن مثل هذه الدعوى العريضة يجب أن تستند إلى أحد دليلين: فإما أن تكون كلاماً لله سبحانه في مصدر علمي يقيني، وإما أن تكون مما أثبتته العلوم التجريبية ولا سيما البيولجية والنفسية. لكننا لم نجد أحداً منهم يستدل بشيء منه هذا.

إذا كان المقصود بالقيم الغربية هو كما قلنا القيم السائدة في الغرب فإن في هذه نفسها ما يدل على أنها لا يمكن أن تكون قيماً إنسانية عالمية. كيف وليس في الغرب قيم ثابتة يقال عنها هذه هي القيم التي يستمسك بها الغرب؟ في ذلك يقول الدكتور علي مزروعي:

لقد تغيرت القيم... تغيراً سريعاً في الغرب في... الماضية في الوقت الذي تطورت فيه الثورات في التقنية وفي المجتمعات...... من أمثلة ذلك أن العلاقات الجنسية قبل الزواج كانت تستنكر استنكاراً شديداً في الغرب إلى نهاية الحرب العالمية

الثانية. وكانت هنالك قوانين تحظر الممارسات الجنسية خارج نطاق الزواج، وما يزال بعضها موجوداً في القوانين، وإن كان لا يطبق إلا قليلاً. وأما الآن فإن الجنس قبل الزواج أمر شائع إذا كان برضى الوالدين.

ثم ذكر أمثلة أخرى منها أن الشذوذ كان يعد جريمة في بريطانيا إلى عام ١٩٦٠ وأنه بينما ألغت كل الدول الغربية عقوبة الإعدام فإن الولايات المتحدة لم تلغها بل زادت في السنين الأخيرة من عدد المحكوم عليهم بالإعدام[1].

الدمقراطية:

ما علاقة الدمقراطية بالحركة التنويرية. من المؤكد أن تلك الحركة لم تكن هي التي اخترعت النظام الدمقراطي. لكنها كانت السبب في بعثه بعد ألفي عام من موته في مهده أثينا. لماذا بعثوه؟ لأنهم رأوا أنه أكثر النظم تمشياً مع مبادئهم ولا سيما مبدأ الحرية. فهم قد رفضوا الحكم الدكتاتوري ملكياً كان أو غير ملكي. ورفضوا ما يسمونه بالأولغاركية oligarchy وهو حكم قلة متسلطة، فوجدوا أن الدمقراطية هي حكم الشعب لا حكم فرد أو بضعة أفراد. لكن السبب الأعظم في اختيارهم للدمقراطية فيما يظهر هو كونها تؤيد دعواهم بأن البشر ليسوا بحاجة إلى تدخل من قوة إلهية لتسيير شؤونهم، بل هم قادرون على ذلك بحكم تكوينهم البشري. يظهر هذا جلياً في الحجج التي يسوقها مفكروهم لتسويغ الدمقراطية.

تنقسم هذه الحجج إلى نوعين، حجج فكرية فلسفية ساقها المفكرون من أنصار الدمقراطية، وحجج عملية قال بها بعض السياسيين.

تتلخص الحجج الفكرية الفلسفية في خمس حجج هي العلم والمساواة والحرية وحكم الذات، وكون الدمقراطية أحسن الخيارات المتاحة. وبما أننا لن نستطيع أن

---

(1) http://www.alhewar.com/AliMazrui.htm.

ندخل في تفاصيل هذه الحجج في مقالنا هذا فقد رأينا أن نركز على واحدة منها نراها أهمها، وأما الحجج الأخرى فقد تعرضنا لها في كتيب عن (مشكلات الدمقراطية وبدائلها الإسلامية) نرجو أن ييسر الله تعالى إكماله وإصداره.

العلم والأمانة:

العلم والأمانة شرطان لا يكون الحكم محققاً للغاية منه إلا بهما؛ لأن الذي يحكم بأن الأمر الفلاني يجب أن يفعل أو أن يجتنب إنما يقول هذا - أو إنما يجب أن يقوله - لما يعلم من النتائج التي تترتب على فعله أو تركه. لكن العلم وحده لا يكفي بل يجب أن تصحبه الأمانة، أي يجب أن يكون الحاكم قاصداً للحق أو الخير فلا يحكم بما يرى فيه مضرة ويدعي أن فيه مصلحة. القول بأن الحكم للشعب يفترض أن كل المواطنين عندهم من العلم والأمانة ما يجعلهم أهلاً لأن يكونوا هم المشرعين لأنفسهم. لكن هذا الافتراض عليه إشكالات كثيرة منها:

١ - أنه لو كان الأمر كذلك ما كنا لنحتاج إلى اللجوء للأغلبية لأن الذين يتساوون في العلم والأمانة لا بد أن يحكموا حكماً واحداً لا اختلاف فيه، أي أن يكون كل حكم لهم بإجماعهم. لكن اللجوء لحكم الأغلبية يفترض أن هنالك اختلافاً بين الحاكمين. والخلاف لا يكون إلا بسبب الجهل أو سوء القصد أو هما معا. وإذن فإن حكم الأغلبية الذي يعد اليوم جوهر الدمقراطية يتناقض في حقيقتها مع أهم مسوغ من مسوغاتها.

٢ - وأنه لو كان كل المواطنين في كل وطن عالمين بمصالحهم لما احتاجوا إلى اكتساب علم جديد يساعدهم على تصور أحسن لما هو خير لهم ولمجتمعهم. لكن الواقع أن الناس يسعون لاكتساب العلم ويعترفون بمدى تأثير ما اكتسبوه من معلومات على مواقفهم السياسية. فاكتساب العلم يؤثر إذن في نوع التشريع أو الحكم الذي

تحكم به الأغلبية. وكما أن العلم يؤثر فكذلك القيم تؤثر. فإذا ما سادت في المجتمع قيم غير التي كانت سائدة فيه قبل ذلك تغيرت أحكامهم بسبب المعايير الجديدة التي تبنوها.

٣ - وإذا ادعى مدع بأن العلم مهما كان نوعه لا تأثير له فيما يحكم به الشعب، يقال له هذا كلام يشهد العقل ببطلانه. فالذي يقوم يصوت بنعم معبراً عن قبوله لأمر ما بناء على تصوره بأنه يزيد من فرص الوطن في اكتساب الثروة مثلاً، سيصوت عليه بلا معبراً عن رفضه له بناء على معرفة جديدة بأنه يفعل عكس ذلك تماماً. إنه من المستحيل عقلاً أن يكون سبب ما العلة في قبول شيء ويكون نقيض ذلك الشيء هو أيضاً علة في قبوله. ثم إن هذا معناه أنه لا داعي لاكتساب معارف جديدة إذا كان اكتسابها لا تأثير له في الأحكام.

٤ - وإذا لم يكن العلم ولم تكن الأمانة في الشعب كله، فمن أين لنا أن نعلم أنهما في أغلبيته؟ لندع حسن القصد الآن جانباً. هل العلم - ومن ثم صواب الحكم - هو دائماً في جانب الأغلبية؟

يقول نقاد الديمقراطية: كلا، ويجعلون هذا من دعامات رفضهم لها. فلنبدأ بأول هؤلاء في التاريخ، أعني أفلاطون الذي يقول مبيناً جهل الحكام في النظام الدمقراطي:

تصور شيئاً كالآتي يحدث في سفينة أو قافلة من السفن: مالك السفينة أكبر وأقوى من أي راكب، لكنه يعاني ضعفاً في السمع والبصر ولا يدري كيف يبحر بالسفن. البحارة كلهم يتشاجرون فيمن يجدر به أن يكون ربان السفينة، كل واحد منهم يرى أنه يجب أن يكون هو ربانها بالرغم من أنهم لم يتعلموا فن الملاحة... بل إنهم ليصرون على أنه ليس هنالك من فن ملاحة يمكن أن يتعلم، ولذا فإنهم مستعدون أن يمزقوا إرباً كل من يدعي غير ذلك.

ما يزالون جميعاً متجمهرين حول مالك السفينة يرجوه كل واحد منهم بأن يترك الدفة له. وأحياناً عندما يكون غيرهم في موضع القيادة فإنهم يقتلونه أو يرمونه في البحر. ثم إنهم يمخرون بالسفينة بعد أن قد خدروا المالك بالخمر أو العقاقير أو بشيء آخر يمخرون بالسفينة، يقضون على كل مؤن السفينة، ويجرون بالسفينة بطريقة تتوقع من أناس أمثال هؤلاء. . . . إنهم لا يدرون البتة أن الربان يجب أن تكون له معرفة بالفصول، وبالسماء، وبالنجوم، وبالرياح، وكل شيء آخر عن السفن إذا كان له أن يكون متحكماً في السفينة. ولا يدرون أن هنالك فناً يمكن الربان من أن يقرر في أي اتجاه يوجه السفينة، بغض النظر عما إذا كان الآخرون يريدون الذهاب إلى هنالك أو لا. ولا يعتقدون أن أحداً يمكن أن يتقن مثل هذا الفن[1].

نقد أفلاطون للدمقراطية من أكثر أنواع النقد إحراجاً للغربيين لأن قائله من أعظم فلاسفتهم بل ربما عده بعضهم أعظمهم حتى غلا فيه فيلسوف وعالم رياضيات بريطاني كبير فقال إن كل الفلسفة الغربية لا تعدو أن تكون هوامش على كتابات أفلاطون. وما يزالون يدرسون كتبه ويكتبون عنه كأنه رجل معاصر. ومع أن هذا النقد فيما يبدو هو نقد للحكم التنفيذي لا التشريعي الذي هو محل اهتمامنا، إلا أنه يمكن القول بأنه إذا جهل بعض الناس فن الحكم التنفيذي فحري بهم أن يكونوا أجهل بالحكم التشريعي.

يقول بعض المدافعين عن الديمقراطية من منظريها المحدثين: إن نقد أفلاطون وأمثاله غير مقبول لأسباب منها:

أولاً: أن القرارات السياسية قرارات خلقية، وأن أفلاطون كان يفترض خطأ أنه من الممكن العلم بالقيم الخلقية. لكننا في هذا العصر نرى أن هذا العلم غير متيسر، ومن ثم

(1) Republic,488a-d.

لا نرى أن هنالك خبراء فيه كالخبراء في المسائل الحسية أو الطبيعية. وما دام الأمر كذلك فلا رأي أجود من رأي في الأمور الخلقية، وعليه فمن حق الناس جميعاً أن يحكموا. وعليه فإن الديمقراطية التي تأخذ برأي الأغلبية هي خير طريقة للوصول إلى القرار السياسي.

لكن بإمكان المدافع عن رأي أفلاطون أن يقول: وإذن فالديمقراطية في رأيكم هذا إنما تصلح لمن كان موافقاً لكم في أن العلم بالصواب الخلقي مستحيل. فالديمقراطية لا تصلح إذن إلا في جو ثقافي مثل هذا الذي نسبتموه إلى العصر ولابد أنكم تعنون العصر في البلاد الأوربية، وإلا فإن الناس في العالم كله ما يزالون يعتقدون بإمكانية العلم بحسن الأخلاق وسوئها. بل إن هنالك أعداداً كبيرة - ربما كانت الأغلبية - حتى في الغرب نفسه ما زالت تؤمن مثل هذا الإيمان. وإلا فلماذا يكون موضوع الإجهاض في أمريكا موضوعاً سياسياً ساخناً، بلغ من الحدة بحيث إن بعض من يسمون بأنصار الحياة قتلوا طبيباً معروفاً بإجراء عملياته وعدّوه قاتلاً. ثم إن القرارات السياسية ليست كلها أخلاقية، وعليه فحتى لو سلمنا بأن الناس في الغرب اليوم لا يعتقدون بإمكانية العلم بحسنها وسوئها، فإن المشكلة ما تزال قائمة. أفكلما يقدم للمجالس التشريعية من مشاريع قوانين ودراسات حولها إنما هو مسائل خلقية بحتة لا تؤثر فيها الحقائق والأرقام والحجج العقلية؟

وبإمكانه أن يقول: إن الدعوى بأن الحكم بقبول شيء أو رفضه حتى في المجال السياسي هو حكم خلقي بحت ليس بصحيح ونحن نرى الناس يبنون أحكامهم على ما يعدونه - بحسب ما توفر لديهم من معلومات - خادماً لمصلحة شخصية أو عرقية أو حزبية أو قومية.

ثانياً: يرى النفعيون أنه حتى حين تكون القرارات خلقية فإن الديمقراطية هي خير الإجراءات وذلك أنهم يجعلون القرارات على درجتين الدرجة الأولى التي

يعبر كل إنسان فيها عن اختياره، عما يرى أنه في مصلحته الشخصية، وكونه محققاً لسعادته. هذا قرار لا علاقة له بالأخلاق. أما الدرجة الثانية فهي التي تحسب فيها قرارات المرحلة الأولى ويحكم بأن القرار النهائي هو الذي يحقق أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس. وهذا هو القرار الأخلاقي[1].

بإمكان نصير أفلاطون أن يقول: لكن رأي النفعيين هذا قائم على افتراض أن كل إنسان أعلم بمصلحته وما يحقق له سعادته، وهو افتراض باطل. وذلك لأن العلم بالمصلحة ليس مجرد شعور وهوى وإنما هو أمر مرتبط بحقائق موضوعية لا يتوفر العلم بها لكل الناس ولا لأحد منهم. ثم إذا كانت الدمقراطية إنما تحقق مصلحة الأغلبية فإنها تكون ظالمة للأقلية، فلا تكون هي حكم الشعب بل حكم فئة منه.

ثالثاً: يقول بعضهم إن حجة أفلاطون تعتمد على افتراض أن الغاية هي تحقيق ما هو أصلح للمجتمع. لكن هب أن هذه ليست هي الغاية، أو أنها ليست الغاية الوحيدة، فالحجة إذن لا تستقيم. "مثلاً إذا كنا نريد أن نتملق الجماهير، أو نتودد إليهم، أو نسكن من غضبهم، أو نعطيهم إحساساً ما بأنهم يتحكمون في مصائرهم، أو نتفادى غضبهم أو أسئلتهم، أو نشعرهم بأنهم مهمون، فإن وسائل أخرى قد تكون أجدى. وعليه فإن من الوسائل ما قد يكون أقل جودة في نتائجه من حيث الحقيقة، لكنه يحقق نتائج أحسن إذا لم تكن الحقيقة هي الغاية. وعليه فإن فقدان الحقيقة لن يكون نقداً مناسباً لهذه الوسائل، إلا إذا كان توخي الحقيقة ذا أهمية أكبر من الغايات الأخرى. لكن كون هذا كذلك أو لا، يعتمد بصفة عامة، على ما نريد أن ننجزه"[2].

وأقول لولا أنني وجدت هذا الكلام في كتاب يعد من أحسن الكتب في فلسفة الديمقراطية لما صدقت بأن إنساناً عاقلاً يمكن أن يعده حتى مجرد احتمال جدير

(١) ما المقصود بالأخلاقي؟

(2) Ross, op.cit, p. 153.

بالمناقشة. يبدأ الاعتراض بعبارة " إذا كنا نريد. . . " من أنتم الذين تريدون هذا؟ إن حديثنا هو عن الشعب كله. فهل الشعب هو الذي يريد هذا؟ هل الشعب هو الذي يريد أن يتملق الشعب؟ هل الجماهير هي التي تريد أن تتودد إلى الجماهير؟ وهل. . . وهل؟ لا بد أنكم تتحدثون عن فئة من الناس تريد أن تفعل هذا كله، ومن المؤكد أنه من شرط نجاحها فيما تريد أن تخفي هذا كله عن الجماهير، إذ إنها لا تستطيع أن تصارحهم بأنها إنما تريد أن تتملقهم أو تتودد إليهم، أو. . أو. . . . بل لا بد أن يكون هذا كله قائماً على الكذب عليهم وإظهاره في صورة ترضى عنها الجماهير. لكن كل هذا يؤكد رأي أمثال أفلاطون بأن الناس لا يعلمون كلهم، وإلا لما استطاعت قلة منهم أن تخدعهم مثل هذا الخداع. بل إن المتفقين مع أفلاطون قد يقولون إن نظاماً سياسياً يجعل هذا ممكناً لهو النظام الذي ينبغي أن يرفض.

رابعاً: أنه حتى على افتراض أن المعرفة هي القيمة الكبرى التي على أساسها ينتخب الحكام، وعلى فرض أن هنالك من هو أعرف من غيره، فيجب ـ لكي ننصبهم حكاماً ـ أن نعرف من هم. ولكن يبدو أنه ليس هنالك من وسيلة لتحديد هؤلاء الذين يعلمون. كيف نعرفهم؟

نقول هذا وإن كان أمراً صعباً ـ ولا سيما إذا كان الحكم علمانياً ـ فإنه ليس من المتعذر. بل لعله من الممكن حل هذه المشكلة حتى في نطاق النظام الديمقراطي إذا ما استحدثنا فيه مبادئ جديدة غير معهودة الآن لكنها غير متناقضة مع فكرة الديمقراطية، وسأعرض لشيء من هذا حين يأتي الحديث عن الانتخابات بإذن الله تعالى.

خامساً: أنه قد تكون هنالك حالات ـ ولا سيما حالات جماعات صغيرة ـ لا يكون الفرق في المعرفة أو الخبرة بين أعضائها كبيراً. فمما لا شك فيه أن رأي الأغلبية في مثل هذه الحال سيكون الأقرب إلى الصواب.

نقول: هذا أمر لا شك فيه. لكن لا يلزم ناقد الديمقراطية بوصفها نظام حكم أن يكون رافضاً لكل شيء فيها في كل حال من الأحوال. وهذه منها.

ومنه سادساً: أنه قد تكون هنالك حالات لا يكون المعول فيها على مجرد العلم أو الخبرة، بل يحسن فيها اعتبار قيم أخرى، مع المعرفة أو بدونها.

نقول: وهذا أيضاً نقد مقبول إذا كان موجهاً لأفلاطون بالذات. لكن قولنا فيه هو قولنا في سابقه. بل إن هذا لأمر معتبر في الإسلام.

من أقوى الأدلة على بطلان كون الشعب أو أغلبيته عالم بمصالحه مؤتمن عليها أنه لا أحد من الآخذين بالنظام في العالم كله يسلم بهذه الدعوى أو يأخذها مأخذ الجد. إن الدليل على أنهم لا يعتبرون الأغلبية مؤتمنة على صيانة الحقوق أنهم في الغرب وفي البلاد المقلدة له لا يؤمنون بالدمقراطية على إطلاقها بل يقيدونها بالليبرالية فديمقراطياتهم دمقراطية ليبرالية. ما معنى ذلك؟ معناه أن حكم الشعب مقيد بكون ضمن إطار قيمي معين هو الإطار الليبرالي. ماذا تقول الليبرالية؟ تقول إن للإنسان الفرد حقوقاً جوهرية غير قابلة للمساومة ولا يجوز لأحد أن يتغول عليها حتى ولو كان هذا المتغول هو الأغلبية (سواء كان أغلبية المواطنين في استفتاء عام، أو أغلبية نوابهم في مجلس تشريعي). سنبين - حين نأتي لمناقشة الليبرالية - أن هذا فوق كونه ينقض الافتراض بأن الشعب أو أغلبيته عالمة بما هو مصلحة مؤتمن على التعبير عنها؛ فإنه ينقض فكرة الدمقراطية نفسها؛ لأن الدمقراطية مبنية على أن السيادة التشريعية للشعب، لا لدكتاتور، ولا لفئة من الناس، ولا لكتاب منزل وإنما هي للشعب. فكيف يقال إن هذا الشعب صاحب السيادة التشريعية محكومة قراراته بقيم الليبرالية؟ ما أساس هذه القيم خيراً كانت أو شراً؟ هل هي مما شرع الله؟ هل هي مما رأته فئة من المواطنين؟ على كل حال فإنها مهما كان مصدرها تتناقض مع مبدأ سيادة الشعب التشريعية.

الرأسمالية:

حديثنا هنا ليس عن النظام الاقتصادي الرأسمالي السائد في العالم اليوم والذي بدأت بعض أعمدته تنهار وبدأت أخرى تهتز في الولايات المتحدة وفي أوربا وغيرها، حديثنا ليس عن هذا النظام وإنما هو عن النظرية الفلسفية التي يقوم عليها، والتي كان الاهتداء بها هو السبب الحقيقي لما يعانيه النظام الرأسمالي من مشكلات. نقول: إن الكارثة الاقتصادية الراهنة كانت دليلاً يضاف إلى أدلة أخرى على فشل النظرية التي قام عليها الاقتصاد الرأسمالي. وهي دليل من ناحيتين: من ناحية أن العمل بالنظرية هو الذي أدى إلى الكارثة، ومن ناحية أنه اتضح أن علاج الكارثة تطلب الخروج على ما تقتضيه.

تقول النظرية: إن الاقتصاد الناجح هو اقتصاد سوق يسمح بالملكية الفردية وبالبيع والشراء والادخار ويترك للسوق تحديد أسعار السلع، وأن هذا كله ينبغي أن يكون في حرية كاملة لا يحد منها أي تدخل من الدولة. كان الفيلسوف والاقتصادي الأسكتلندي آدم سميث الذي عاش في القرن الثامن عشر هو أكثر من اشتهر بالقول بهذه الفلسفة الرأسمالية، لكن المؤرخين يقولون: إنه هو نفسه تأثر بكتابات ماندافيل الذي كان أكثر منه غلواً في هذا الأمر فهو المشهور بقوله: "إن الرذائل الفردية هي فضائل اجتماعية" في مجال الاقتصاد. كان سميث وغيره يقولون إنه لا بأس على الفرد أن يندفع لتحقيق مصالحه بدافع الأنانية، بل قال بعضهم بدافع الطمع ليحقق مصالحه وأن النتيجة ستكون ـ بفعل يد الخفية ـ أمراً لم يخطر على بال الفرد، هو الصالح العام.

لكن الواقع أن هذه اليد الخفية لم تقم بالمهمة التي عزاها إليها سميث وغيره، وإنما أدى ذلك الطمع الفردي المتروك له الحبل على غاربه إلى تقسيم الثروة تقسيماً ظالماً بحيث إن قلة قليلة من المواطنين تصل أحياناً إلى عشرة بالمئة تمتلك ما يصل أحياناً إلى

تسعين بالمئة من الثروة، ولا يمتلك التسعون بالمئة الباقون إلا عشرة بالمئة منها، وهو ما جعل بعض الاقتصاديين الأمريكيين يقولون ساخرين إنه يبدو أن شيئاً أصاب تلك اليد فشلَّها. وقد بدأت الفجوة بين الأغنياء والفقراء تزداد حدتها منذ سنين وهو ما جعل بعض الاقتصادين يقولون إنه إن استمر التفاوت على تلك الوتيرة فسيؤدي حتماً إلى كارثة اجتماعية.

إن الأمر المثالي للنظرية الناجحة أن تكون النتيجة أحسن فأحسن كلما كان واقع العمل بها أقرب إلى مثالها النظري. لكن الغريب في النظرية الرأسمالية أنه لو كان الواقع قريباً من مثالها ودعك أن يكون مطابقاً له لكانت الكوارث أكثر فأكثر. الصورة المثالية لهذه النظرية الرأسمالية هي أن لا يكون للدولة أدنى تدخل في النشاط الاقتصادي. لكن هذا معناه أن لا تفرض الدولة على الناس ضرائب، ولا تضع قوانين تقيد بها النشاط الاقتصادي، كأن تمنع صنع بعض الأشياء الخطرة أو المتاجرة بها، وكأن تحدد الأماكن التي تبنى فيها المصانع، وتضع لها شروطاً صحية وبيئية وغير ذلك. لكن كل هذه القيود ما زالت تحدث إلى حد ما في الدول الرأسمالية. الدولة إذن تدخلت لكن تدخلها لم يكن بالقدر الذي يرفع الظلم، بل كانت تميل دائماً إلى إعطاء حرية أكبر للأغنياء مهما أدى ذلك إلى التضييق على الفقراء. خذ نظام الضرائب في الولايات المتحدة مثلاً. إن الضريبة لا تؤخذ من رأس المال كما هي الحال في الزكاة وإنما تؤخذ فقط من دخل الفرد في العام المالي. وهذا معناه أنه إذا كان هنالك شخصان أحدهما يمتلك مليوني دولار والآخر لا يمتلك شيئاً، لكن دخل كل منهما في السنة المالية كان مئة ألف دولار، فإن نسبة ما يؤخذ منهما ستكون متساوية، أي أن الضريبة لا تتعرض لرأس المال الذي كان موجوداً قبل السنة المالية. قال كيفن فلبس في كتابه عن "الدمقراطية والثروة" إنه لو أخذت ضريبة مقدارها ثلاثة بالمئة على رؤوس الأموال

في أمريكا وحدها لما بقي على وجه الأرض فقير! ولعل القارئ لاحظ أن هذه النسبة قريبة جداً من نسبة الزكاة التي تفرض فعلاً على رؤوس الأموال.

لكن دعاة الرأسمالية في الغرب ما يزالون يدافعون عنها رغم كل ما يرون من آثارها الضارة. أتدرون ما السبب في هذا؟ السبب أنهم ظنوا أن البديل الوحيد للنظام الرأسمالي الذي عهدوه هو النظام الاشتراكي الذي عرفوا صوراً منه في الاتحاد السوفيتي وفي الصين قبل التعديلات التي أحدثها الصينيون فيه. وهم بهذا يخلطون بين كون الرأسمالية اقتصاد سوق وبين كون كل اقتصاد سوق هو بالضرورة اقتصاد رأسمالي.

لكن الحقيقة هي أن هنالك بديلاً ثالثاً هو الاقتصاد الإسلامي الذي هو اقتصاد سوق لكنه سوق منضبط بضوابط القيم الإسلامية وهي قيم يغلب عليها مراعاة مصالح الفقراء مما يجنب المجتمعات الآخذة بها ذلك التفاوت الفظيع الذي نتج عن النظرية الرأسمالية. في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

بيان لهذين الأمرين ففي إحلال البيع إقرار باقتصاد السوق، وفي تحريم الربا تقييد له بقيم إسلامية هي في مصلحة الفقراء. ثم تأتي الزكاة التي هي أيضاً في مصلحة الفقراء، بل تأتي القاعدة العامة التي تأمر بأن لا يكون المال دولة بين الأغنياء. وإذا كان الغربيون لم يعرفوا النظرية الرأسمالية إلا في صورتها التي قال بها سميث وغيره؛ فإننا نعلم من القرآن الكريم أنها نظرية قديمة كان من بين من قالوا بها قوم شعيب الذين رفضوا دعوة نبيهم لهم إلى العدل في معاملاتهم المالية بحجة أن المال مالهم فلهم الحق أن يفعلوا فيه ماشاؤوا.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ

خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٤ – ٨٧].

شعار الفلسفة الرأسمالية يكاد يكون ترجمة لقول قوم هود هذا. فقوم هود يريدون أن يفعلوا ما شاؤوا والفلسفة الرأسمالية تقول "دعه يعمل laissez fair" أي لا تتدخل في نشاطه الاقتصادي.

رفض الإسلام الفلسفة التي احتج بها قوم هود على أساس أن المال ليس مملوكاً ملكية مطلقة للبشر وإنما هو مملوك لله الذي يأمر البشر بأن يتصرفوا فيه تصرفاً عادلاً وفق أوامره سبحانه.

من الآثار الحسنة التي نتجت عن هذه الكارثة أن كثيراً من المفكرين من اقتصاديين وغير اقتصاديين لم يعودوا يؤمنون بالنظرية الرأسمالية القحة، بل صاروا يدعون إلى تدخل من الدولة لإقرار العدل وصاروا يذمون الأنانية والطمع الذي كان من أسباب هذه الأزمة. فالفكر الاقتصادي بدأ بهذا يقترب من الهدي الإسلامي الذي يقر اقتصاد السوق في حدود قيم العدالة. والمأمول أن يكون في هذا عبرة لإخواننا المسلمين يعيد إليهم الثقة بتعاليم ربهم ويشجعهم على الاستمساك بها في نشاطهم الاقتصادي لكي يضربوا للناس مثلاً عملياً بحسنها وجدواها. وقد بدأ الاهتمام بتعاليم الإسلام الاقتصادية في المجالات الأكادمية في الغرب، بل إن الأمثلة العملية للمؤسسات الاقتصادية الإسلامية بدأت تبدي نجاحها بالنسبة لرصيفاتها الغربية كما يحدثنا البروفسور علي خان أستاذ القانون بجامعة ووشبيرن بولاية كنساس الأمريكية في مقال له عن الكارثة الاقتصادية[1].

(1) http://www.counterpunch.com/khan09272008.html.

علاقة الدمقراطية بالرأسمالية والليبرالية:

الدمقراطية السائدة في الغرب الآن تسمى بالدمقراطية الليبرالية كما أنها دمقراطية مرتبطة بالرأسمالية. وقد كتب المفكرون الغربيون أنفسهم فيما يرونه من تناقض بين هذه المبادئ. فالليبرالية تتناقض مع الدمقراطية لأن الدمقراطية تجعل الشعب هو السلطة التشريعية العليا، لكن الليبرالية تقول إن لكل فرد من الناس حقوقاً لا يجوز حتى للأغلبية أن تتغول عليها. من الذي أعطى الأفراد هذه الحقوق؟ هذا سؤال لم يستطيعوا الإجابة عنه. فمنهم من قال لأنها حقوق صدر بها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. لكن على أي أساس صدر ذلك الإعلان نفسه؟ ثم ألا يجوز للأمم المتحدة التي أصدرته أن تغير فيه وتبدل؟ ومنهم من يقول إنها حقوق أجمع الناس عليها في العالم كله. ولكن لو كان الأمر كذلك لما كانت هنالك من حاجة لأن يصدر بها إعلان أو تجعل في قوانين. إن المسلم يؤمن بحقوق للإنسان يوافق بعضها بعض ما جاء في ذلك الإعلان لكنه يقول إنه حقوق أعطاها الخالق لعباده فلذلك لا يجوز لهم أن يحرموه منها.

الفكر العلمي:

أحسن ما عند الغربيين من فكر هو الفكر العلمي المستند إلى أدلة حسية وعقلية والذي يسمى سينس science، وهو في مفهومه العام يشمل العلوم الطبيعية من فيزياء وكيمياء وأحياء وغيرها، لكنه يشمل أيضاً كل علم اجتماعي سار على مناهج هذه العلوم.

كيف ينظر المسلم إلى هذه العلوم وكيف يقومها؟ ينظر إليها نظرة المتقبل المقدر لها الآخذ بها. لماذا؟

أولاً: لأن منهج هذه العلوم منهج يقره دينه. فالله تعالى يقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

هذا معناه أن الحس والعقل هما الوسيلتان اللتان يكتسب بهما الإنسان العلم سواء كان علماً دينياً أو كان علماً دنيوياً. وهذه العلوم تقوم على المشاهدة والتجربة وعلى قوانين عامة ونظريات تختبر صحتها بتلك المشاهدة والتجربة، فما أبطلته كان باطلاً، وما شهدت له كان صحيحاً، لكن لا يشترط في الصحة أن تكون أمراً يقينياً بل يكفي فيها غلبة الظن. وكل هذه أمور مقبولة في الإسلام.

ثانياً: لأن هذه العلوم علوم مفيدة كما دلت على ذلك تجربة الغربيين معها، وكما دلت على ذلك تجربة المسلمين قبلهم معها. فالأمة التي لا تأخذ بها ولا بما يبنى عليها من تقنيات تظل متخلفة في مجالات الاقتصاد والقوة العسكرية والإعلام وغيرها بالنسبة للأمم التي تأخذ بها. وكل أنواع القوى هذه أمور يحتاج إليها المسلمون لبقاء دينهم وللدفاع عنه ولتبليغه.

ثالثاً: لأن لهذه العلوم مكانة كبيرة في التاريخ الإسلامي. كما يدل على ذلك ما كتبه المسلمون وغير المسلمين في تاريخ العلوم وكيف أن الغرب الذي تفوق على المسلمين الآن فيها كان هو في البداية قد أخذ عن المسلمين وتأثر بكشوفاتهم ونظرياتهم. ليس هذا فحسب بل إن المسلمين رغم تأخرهم فيها بالنسبة للغرب ما يزالون يشاركون في تطورها بتجاربهم وكتاباتهم في المجلات العلمية حتى في البلاد الغربية. لكن كل هذا لا يرضي طموح المسلم المتطلع إلى أن يصير للمسلمين القدح المعلى في هذه العلوم وتقنياتها. ولذلك فإنه يأمل أن يتطور الفكر العلمي في بلاده في

كل مجالاته، مجال المؤسسات التي ترعى هذا العلم، ومجال التخصصات الدقيقة فيه، والمجال العام الذي يجعل من الفكر العلمي هذا فكراً جماهيرياً بقدر المستطاع.

رابعاً: لأن المسلمين بدؤوا يجدون فيما توصلت إليه هذه العلوم من حقائق تؤيد ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأسسوا لذلك علماً أسموه بالإعجاز العلمي. والمقصود بالإعجاز هنا كون القرآن والسنة سبقتا إلى تقرير بعض الحقائق التي اكتشفتها العلوم الطبيعية لاحقاً، والتي ما كان من الممكن أن يعرفها بشر في زمان النبي ﷺ بالوسائل المتاحة للناس في ذلك الزمان. من أحسن الأمثلة على ذلك مسألة تطور الجنين التي يقول عنها العالم الكندي كيث مور كما نقل عن الأستاذ الدكتور زغلول النجار:

إن التعبيرات القرآنية عن مراحل تكون الجنين في الإنسان لتبلغ من الدقة والشمول ما لم يبلغه العلم الحديث، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا كلام الله، وأن محمداً رسول الله[1].

في مثل هذه الكشوف تصديق لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

خامساً: ولأننا نريد أن نصحح مسار هذه العلوم بأن نخلصها من الفلسفة المادية الإلحادية التي صارت إطاراً لها. تتمثل هذه الفلسفة الإلحادية في القول بأن العالم مكتف بنفسه لا يحتاج إلى تدخل من خارجه، وأن حوادثه يجب تفسيرها بظواهر من النوع المشهود فيه. لكن هذا معناه عدم قبول أي دليل من داخل العالم على حقيقة في خارجه.

---

(1) http://forums.way2allah.com/showthread.php?t=14953.

وإذا كان عصر تنويرهم لا يؤمن إن آمن إلا بإله لا يتدخل في الكون ولا يرسل رسلاً؛ فإننا نؤمن بإله لا يحدث شيء في الكون إلا بإذنه وعلمه وإرادته وقدرته، ونؤمن بأن هذا الإله هو الذي أرسل محمداً بالدين الحق، ولذلك فإذا كان الملحدون الماديون يحصرون مصادر المعرفة في الكون وحده؛ فإننا نؤمن بأن للمعرفة مصدرين هما خلق الله وكلام الله تعالى. وقد رأينا كيف أن حركة الإعجاز العلمي قد أثبتت توافق الحقائق الكونية مع الحقائق الشرعية.

عناصر الشرك و الاستكبار والفحش في القيم الغربية(*)

أصبح من البدهيات أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام ـ الذي يصفونه بالرادِكالي ـ هو الآن العدو الأول والخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. لقد كان الاتحاد السوفيتي مضاهياً للغرب في تقدمه العلمي والتقني وما ترتب على ذلك من قوة مادية، وكان في مبادئه وأيدلجياته ومؤسسيه امتداداً للفكر الغربي نفسه. أما المسلمون فما الخطر الذي يمثلونه على الحضارة الغربية وهم اليوم أكثر ما يكونون تخلفاً في تلك العلوم والتقنيات بالنسبة للغرب، إذ إنهم لا يكادون يملكون من القوة المادية شيئاً بينما تملك دولة كالولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل ما يمكنها ـ حسب زعمها ـ من تحطيم الكرة الأرضية كلها مرات عدة؟

فما الخطر الذي يمثله الإسلام إذن؟ أهو الإرهاب؟ لكن الجماعات الإسلامية التي تسمى بالإرهابية مهما ألحقت بالبلاد الغربية من أضرار فإنها أضرار محدودة لأنها لا تملك هي الأخرى من القوة ما يمكنها من هزيمة الدول الغربية أو حتى إضعافها؟

(*) ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي أقيم بالكويت من١٣/ ١/ ١٤٢٨هـ إلى ٥/ ١ الموافق ٢٢/ ١/ ٢٠٠٧م إلى ٢٤/ ١، بدعوة من مجلة البيان ومبرة الأعمال الخيرية.

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولا سيما الأمريكان منهم والبريطانيون، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم فيما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه. ولهذا صاروا يصفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قيم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول. إنها معركة لأن الإسلام رغم ضعف أهله المادي هو كما يقولون أكثر الأديان انتشاراً في بلادهم. لكننا مرة أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضارة الغربية؟ إذا كانت هذه الحضارة قد قبلت النصرانية واليهودية وهما دينان شرقيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها من نتاج الفكر الإسلامي في مجالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قد قبلت العلمانية بل الإلحاد وغير ذلك من أنواع الأيدلجيات؛ فما الذي يمنعها من أن تقبل الإسلام إذا كان هذا هو ما اختاره بعض أهلها لأنفسهم طوعاً لا كرهاً؟

إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القول بأن الأمم الغربية رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضارتها وتنافرها إلا أن فيها فكراً يمثل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هو الذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولا سيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممها، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه: ﴿**وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١٠٨].

فكل أمة صغيرة كانت أو كبيرة لها أعمال تراها حسنة سواء كانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أو كانت فاسدة. لا حظ أن الآية الكريمة تحدثت عن تزيين العمل لا عن الاعتقاد مع أن العمل تابع للاعتقاد. ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه لا الذي يدعيه الناس بألسنتهم.

في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السنة الاجتماعية :

منها أن ذلك العمل المزين هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم وداً يجعل منهم أمة معينة : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

قال ابن كثير :

إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب (مودة بينكم) على أنه مفعول له . وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط ، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآناً .

ومنها أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها ، فهي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها ، وإن كان من أبناء وطنها .

﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٨] .

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٢] .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

ومنها أنه قد تشذ جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها:

﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧].

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ومنها أن العاقبة تكون لمن كان على الحق إما بغلبتهم على أعدائهم، وإما بانتقام الله تعالى من أولئك الأعداء كما نرى ذلك في قصص كل الأنبياء مع أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زُيـن للغربيين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السنن الاجتماعية التي فصلها لنا كتاب ربنا إلى سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زينه الله تعالى للأمم الغربية والذي هو سبب عدائها للإسلام وأهله؟

إنك لا تجد جواباً واضحاً عن هذا السؤال فيما يسمى بالنظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات السياسية الغربية. فالغرب ليس من حيث هذه النظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات أمة واحدة وإنما هو أمم مختلفة ودول حدثت بينها حروب وتفرقت أحزاباً وجماعات.

لعل الإجابة هي فيما يسمى بالقيم الغربية التي صار الغربيون الآن يكثرون من ذكرها ولا سيما حين يريدون بيان موقفهم من الإسلام وأهله سواء كان في بلادهم أو في غيرها. فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى ومنها الأمة الإسلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدونه

من مصادر ثقافتهم العامة أو مكوناتها. وهو الفكر اليوناني والحضارة الرومانية والديانتان اليهودية والنصرانية والفلسفة الليبرالية والدمقراطية وحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. لم أذكر الإسلام لأنه ليس من المصادر المعترف بها عند عامتهم، وإن كان مما يعترف به قلة من علمائهم. فهذا أحد مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول: " إن أوربا كانت في القرون الوسطى مدينة بالشيء الكثير للإسلام وأنها لم تكن مدينة لأية مدنية أخرى مثلما ما كانت مدينة للإسلام "[1].

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخياً وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. وإليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم: إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواش على كتابات أفلاطون. هذا الفكر اليوناني هو أول ما لا يزالون يرجعون إليه في تأريخهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس أرسطاليس هو واضع علم المنطق؟)، وأن الأمم الأخرى - ومنها العرب - لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي. حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئاً جديداً حتى قال قائلهم إنني كنت أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد[2]. ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من

---

(1) J.M. Roberts, History of the World, Penguin Books, 1980, p. 511.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد التاسع، كتاب المنطق، ص ٨٢.

المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أياً كانوا وخاطبهم بها في رسالاته. والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض. قال سيبويه عن العرب: "ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض"[١].

والحضارة اليونانية كانت رغم إنجازاتها الفكرية الكبيرة حضارة شرك وفحش. لم يكن شركها كما كان شرك العرب محصوراً في الألوهية، بل كان شركاً في الربوبية أيضاً فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرب صاحبها إلى الله تعالى، بل كانت تحل محله سبحانه. فهذا رب للحب وذاك رب للجمال وثالث رب للحرب وهكذا.

وكانت حضارة فحش لا ترى بأساً بالعري كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة وصورهم المرسومة وقصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي الذي كان معروفاً حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم. وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثا بهذه القضية وكتبوا فيها كتباً يقال إن أهمها كتاب نشر في عام ١٩٨٧[٢] ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله تعالى يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى. لكن تحريف الدين والفهم السيِّئ له حول هذا التفضيل إلى مسألة عرقية فصاروا يعتقدون أنهم بوصفهم عنصراً هم شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة البروتستانتية، ثم صارت عن طريقها كما يذكر لنا صاحب كتاب

---

(١) كتاب سيبويه: أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، المجلد الأول، عالم الكتب، بيروت، ص٣١.

(2) K.J. Dover, Greek Homosexuality, 1978.

الثيوغراطية الأمريكية جزءاً من التفكير القومي للشعب الأمريكي ومن قبله للشعب البريطاني وللأفركان الذين حكموا جنوب إفريقيا. فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سراً لا في داخل أمريكا ولا في خارجها كما يقول: لقد ظل الأمريكان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص، شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيرة في العالم. والرؤساء المنتخبون يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها[1].

وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصص من الفحش منسوبة إلى أنبياء الله - أكرم خلق الله. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة فنشروا كتباً أحصوا فيها كل النصوص التي فيها ما عدّوه نوعاً من الفحش ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة والتي يمنع وضعها بين أيدي الأطفال!!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد القديم الذي تعده جزءاً من دينها كما رأينا فيما نقلنا قبل قليل. ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى عليه السلام وعدّ موته تكفيراً عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه، هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً، لكن النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوستها أمراً مخالفاً للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سراً والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوا استغلال، حتى عده الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتي توحيد مبنيتين على وحي الله تعالى

---

(1) Kevin Philips, American Theocracy, Viking Penguin, 2006, p.125.

إلى موسى ثم إلى عيسى عليهما السلام صارتا بعد التحريف ديانتي شرك. فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله وبرفضهم لنبي الله عيسى ثم لنبيه محمد ﷺ مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما بل باتباعهما عند ظهورهما. وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

الحضارة الرومانية: ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الإمبراطورية التي توسعت بغزو امبريالي فيه كثير من القسوة وإخضاع للشعوب كما يحدثنا المؤرخون الغربيون. وكانت تعج بديانات وثنية قبل أن يجعل الامبراطور قسطنطين النصرانية ديانة رسمية لها.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصاً في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم. فمما يأخذونه على الإسلام مثلاً أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهماً جديداً يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما زال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل وأن الإسلام سيعود قريباً ديناً معاصراً لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوربا بحركة التنوير وبكونها كانت حركة عقلانية. لكنها هي الأخرى لم تنس نصيبها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة، فكرة تقول إن لكل فرد حقوقاً لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكماً كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطاها الله تعالى لعباده كما نجد ذلك في القرآن

الكريم. فلما غلب الشرك وغلبت العلمانية على الحضارة الغربية ففصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله ثم لم يجدوا لها أصلاً آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم المتحدة، أو وضعت في دستور بلد من البلاد. وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين. ولما كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش فقد فسروا كثيراً من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك فجعلوها أو أكثرها انحرافاً عن الفطرة السوية. فسروها بحرية الكسب الذي لا قيود عليه فكان أن أدى إلى الرأسمالية، وكان مثلهم كمثل مدين قوم شعيب الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

ثم زعم بعضهم تمشياً مع فكرة الغرور تلك أن هذه الليبرالية مع أختها الدمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية. لكن يشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلاً هو خير من الليبرالية ومن الدمقراطية. ويشكر له ثانياً أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة وإن كان السبب الذي دعاه للتنازل عنها هو أيضاً سبب سخيف.

وكما فسروا الليبرالية تفسيراً جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ما تدعو إليه من حرية وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى فيما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في معدلات الإنجاب حتى قال قائل منهم إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبير من كرادلتهم:

هل تحتاج الدمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون دمقراطية حقاً. وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين.

قال الكاردينال الاسترالي جورج بل هذا الكلام في محاضرة ألقاها بالولايات المتحدة يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل إذا لم يعدل الغرب من دمقراطيته التي وصفها بالفارغة والأنانية[1]. بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الدمقراطي كما هو مطبق في الدول الغربية ودول أخرى كالهند محاسن كثيرة ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى كالنظام الذي كان سائداً في الاتحاد السوفيتي، وككثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد. أعمت هذه المحاسن كثيراً من الناس عن أن أصل الدمقراطية أصل شركي يعطي بعض البشرحق التشريع لبشر آخرين مع أن هذا الحق إنما هو حق لله تعالى. ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بها وأن كثيراً منه ليس من لوازمها، ونسوا أنه ليس فيها محتوى خلقي وأنها لذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها واسترقاق أناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسن ما في الحضارة الغربية هو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية ووسيلتهم إلى استعمار كثير من بلدان العالم واحتلالها.

ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يدعو إلى فحش أو استكبار، لكن الغربيين ربطوا بينها وبين كل ذلك بسبب قيمهم تلك المنحرفة:

---

(1) http://www.theage.com.au/articles/2004/11/11/1100131136231.html?oneclick=true.

١ - غرتهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله تعالى فيما أسموه بالطبيعة، ومعرفتهم لذلك بأسباب كثير من المسببات فصار الغالب عليهم فصل هذا العلم عن الدين، وعدّ الطبيعة كوناً مكتفياً بنفسه تفسر ظواهره الطبيعية بظواهر أخرى طبيعية ولا يجوز تفسيرها بأسباب خارجة عن هذا الكون، حتى صار هذا التفسير الإلحادي جزءاً من مفهوم العلم كما قلت ذلك في مناسبات وكتابات عدة.

٢ - وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلك الذي يأتي عن طريق منهج هذه العلوم فأغراهم هذا بإنكار كل ما جاءت به الأديان اعتماداً على الوحي الإلهي.

٣ - بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفواحش التي منها فاحشة الشذود وقالوا إنها عند بعض الناس شيء فطري موجود في "جيناتهم".

٤ - ثم ارتبط هذا التطور العلمي بالغرور الأوربي إذ اعتقدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم التي ورثوها عن اليونان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا لأنهم ذوو تفكير خرافي.

٥ - وقد زاد من فتنتهم بهذا تخلف المسلمين في هذه المجالات، تخلفاً بدؤوا يعزونه إلى الدين الإسلامي ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتدين من المنتسبين إليه.

طبيعة القيم الغربية:

كيف صارت تلك المصادر والمكونات المتنافرة شيئاً واحداً يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

١ - صارت كذلك أولاً لسبب ذكرناه سابقاً وهو كونها كلها جزءاً من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

٢ - وصارت كذلك لأنه ما من مكون من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب.

وصارت كذلك لأن العلمانية وهي امتداد للشرك الموجود في كل تلك العناصر التي ذكرناها قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى ـ بما فيها العناصر الدينية ـ لجعلها موافقة لها أو متسامحة معها.

وصارت هذه الأديان تمدح ويتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فها هو الفيلسوف الألماني الشهير هابرماس المعروف بعلمانيته يقول:

النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والدمقراطية، وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية[1].

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني ماكس فبر كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية.

والنصارى بدورهم جعلوا يفسرون الدين تفسيراً يتوافق مع أهواء عصرهم. فأكثر كتابهم اليوم لا ينكرون الشذوذ ويفسرون قصة قوم لوط وما حصل لمدينتهم سودوم إما بأنها قصة رمزية، أو أن الذين أنكروا هذا الفعل من كتاب البايبل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

٣ - ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هو الفكر الطاغي الذي يمثل الإطار العام للثقافة الغربية وقيمها أضحت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلم تعد ذات خطر. ولذلك نجد الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغير الشاذ جنديين في جيش واحد وصار النساء كلهن يتبعن في مظهر واحد وهكذا.

---

(1) http://www.cathnews.com/news/411/131.php.

٤ - قد يقول قائل إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضارة الغربية في كل الأمم بما في ذلك الأمم الإسلامية. فما الذي يميز القيم الغربية في هذا عن غيرها؟ نقول إنه مما لا شك فيه أنه لا تكاد تخلو أمة حتى من فاحشة الشذوذ بعد أن سنها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضاً طابعاً لأمة لا تنتمي إلى الحضارة الغربية. وأن الشرك موجود حتى بين المنتسبين إلى الإسلام. لكننا نقول أيضاً إن هنالك فرقاً بين أن يكون الزنى أو الشذوذ أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمة جريمة أو ذنباً يستنكره مجتمعها ويعاقب عليه قانونها، وأن يكون أمراً مقبولاً لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون، وإن استنكره بعض الأفراد. هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح المستنكر فيها، وربما كان المعاقب عليه فيها، هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ. فهذا الكاردينال راتزنجر الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سجن لمدة شهر في السويد لأنه استنكر الشذوذ الجنسي استناداً إلى حجج من كتابهم المقدس!

٥ - هذه العناصر ولا سيما عنصر الكبر هي التي زينت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى واستعمارها واسترقاق بعض أهلها. لقد كانت الحركة الاستعمارية الاحتلالية حركة اشترك فيها أو شجعها أو وافق عليها قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر. لم تكن حركة سياسية فحسب وإنما كانت حركة اشترك فيها الكتاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين كما بين بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار.

ما العمل؟

إننا إزاء تحد كبير على ديننا وأمتنا فماذا نحن فاعلون؟ ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد لأنه سؤال للأمة كلها علمائها وزعمائها وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مقل من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولاً: أن نناى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية وإنما تنشئ مشكلات نفسية. وما أكثر ما يحذرنا كتاب ربنا من أمثال هذه المشاعر السلبية، وما أكثر ما يذكرنا علماؤنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث " بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ " :

وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزعَ وكلَ وناح كما ينوح أهل المصائب. وهو منهي عن هذا. بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى.

ثانياً: أن نكون على يقين بأن مداهنة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم - وهي مطالب قديمة - بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية فإنه لن يجدي شيئاً في حل المشكلة. نعم إن الأعداء سيرضون عن كل محرف للدين بمقدار تحريفه. لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شراً إذ يرون أن المسلم المحرف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في مكانهم، فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين. لكن القاعدة هي ما قال الله تعالى عن كل من زين له عمله أنه لن يرضى عنك رضى كاملاً إلا إذا اتبعت ملته:

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٨٩].

ثالثاً: لماذا لا نرى في هذا الهجوم الغربي على ديننا جانبه المشرق وهو دلالته على أننا بدأنا نحيا وبدأنا نصحو إذ لو ظللنا أمواتاً أو غافلين أو مغشياً علينا لما خاف منا أو اهتم بنا أحد. فعلينا أن نستمر في هذه الصحوة وأن نضاعف من حيويتنا ونشاطنا واعتزازنا بديننا واستمساكنا به، آملين أن نكون للغرب منارات هداية وقوارب نجاة.

رابعاً: إن الرؤساء الغربيين يصرحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حربان: حرب أيدلجية يقولون إنها لكسب العقول والقلوب، وحرب سنانية تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيدلجية. أما نحن فما نزال منتصرين فيما أسموه بالحرب الأيدلجية. إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيدلجياتهم هي التي توليه الأدبار. وهذا أمر يدعونا إلى المضي لا إلى التواني في نصرة ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السنانية. لقد فرطت أمتنا في الأخذ بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها. لقد آن الأوان لأن نبذل جهوداً كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية. ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين، مستوى شعبي عام ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءاً من ثقافتهم الشعبية، ومستوى تخصصي تتعاون فيه الدول العربية على الأقل حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعتدي على غيرنا، وإنما لنرهب ونردع من تحدثه نفسه بالاعتداء علينا. إننا نعلم أن السلم في مصلحتنا، نعلم هذا من ديننا ومن تجاربنا، فنحن حريصون عليه واثقون بأن عاقبته خير إن شاء الله.

خامساً: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه جاهلون بهذا الدين، وفيه مغررون، وفيه منصفون مدافعون عن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس من مصلحتهم شن حروب شاملة دعائية كانت أو قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه... وفيه... فيجب عند المعاملة أن لا نشمل الجميع بخطاب واحد لا يميز بين محق ومبطل، ومعتد ومنصف. إن التفرقة بين هذه الأصناف ومعاملة كل بحسب موقفه أمر يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنيان الدين الحق، ثم إنه سياسة مربحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

سادساً: لكن التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتاج منا إلى جهد كبير. فكما نأخذ بوسائل عصرنا في التقدم العلمي التقني، فكذلك يجب أن نعتبر مقتضياته في الإصلاح السياسي. إننا لا نريد أن نكون أمة تابعة تترك الأصالة لغيرها ثم تقلده في كل ما رآه مناسباً له من مؤسسات ومبادئ وأسماء. نريد أن نكون أمة أصيلة تؤمن بأن كتاب ربها هو دستورها الأعلى، ثم تأخذ منه المبادئ السياسية العامة، ثم تنشئ لنفسها من المؤسسات ما يناسب تلك المبادئ من مؤسسات تتناسب مع عصرها. إن كل من له أدنى معرفة بالإسلام يعلم أن مبادئ مثل حكم القانون، والشورى، واختيار الحكام، وحرية الرأي وحقوق الإنسان التي صار الناس يربطونها بالدمقراطية هي مبادئ إسلامية بينتها النصوص وطبقها النبي وخلفاؤه الراشدون.

وإذا كان مثل هذا الإصلاح أمراً يستوجبه ديننا وتستدعيه ظروفنا؛ فإنه أيضاً أمر لازم لتحسين صورتنا العالمية التي صارت ترتبط في أذهان الكثيرين ولا سيما في الغرب بالدكتاتورية والفيودلية والثيوغراطية ويقال عن جهل أو سوء قصد إنها من تعاليم ديننا.

الدعوة الإسلامية والغزو الفكري

ما من شك في أن الغرب بشقيه الرأسمالي والشيوعي يرمي العالم الإسلامي كل يوم بوابل من سهامه الفكرية في صورة نشرات خبرية وأحاديث إذاعية، وتمثيليات ومقالات، وصور، وكتب، ومحاضرات جامعية، ودروس مدرسية وغير ذلك من أشكال الفكر والدعاية.

وما من شك في أن هذه مصيبة كبيرة. ولكن المصيبة الكبرى هي قبولنا نحن لهذا الفكر كله، وعدم التفرقة بين ما كان منه سماً قاتلاً، وما كان بلسماً شافياً ولذلك فإن عبارة (الغزو الفكري) لا تصف الواقع وصفاً دقيقاً[1].

إذ لو كنا ننظر إلى الفكر الغربي المسلط علينا على أنه غزو لأعددنا لمواجهته ما استطعنا من قوة، ولقاومناه بقدر الوسع والطاقة، ولكن مشكلتنا أننا لا نعدّه غزواً يَستعبِد بل قوة تُنقذ وتُحضر وتُحرر، ولها فإننا لا نكتفي بما يوجهه الغرب إلينا من قذائف، بل نسعى للاستزادة من فكره وحضارته.

---

(١) عنوان البحث حددته لجنة المؤتمر.

أ- بالذهاب إليه في موطنه لنتعلم منه ليس فحسب العلوم النافعة ولكن التصورات الفلسفية والقيم الخلقية والقوانين والعادات والتقاليد.

ب- وبأن نكون رسله المخلصين إلى بلادنا نبث بين أبنائنا ما تلقيناه عليه ونترجمه إلى لغاتنا الإسلامية ونشرحه وندعو إليه وندافع عنه فعل المقلد المعجب المشدود الذي لا ينقد ولا يجتهد ولا يُقوّم.

ج- وباستجلاب كتبه ودورياته وصحفه ومجلاته.

د- وبدعوة أبنائه في شكل مدرسين وأساتذة جامعات وخبراء في شتى المجالات.

فإذا صح أن الفكر الغربي يغزونا، فصحيح أيضاً أن أقوى أدواته لغزونا هم أناس من بني جلدتنا، إنهم حكامنا وإداريونا ومدرسونا وكتابنا ومحررو صحفنا وإعلاميونا بل ضباطنا أطباؤنا ومهندسونا وسائر أفراد الطبقة القائدة في بلادنا إلا من رحم ربك وقليل ما هم. ومع هذا أقول إن حل مشكلة (الغزو الثقافي) الغربي للعالم الإسلامي لا تكون بقطع الوشائج الفكرية بيننا وبين الغرب، فإن ذلك غير ممكن وغير مفيد. وإنما يكون بدراسة الحضارة الغربية دراسة تحليلية عميقة للتفرقة بين ما كان منها نافعاً يؤخذ أو ضاراً يترك بميزان علمي خلقي يقبله كل عاقل. وبدراسة الأسباب العميقة لتبعيتنا لهذه الحضارة وسيطرتها علينا ثم بالتماس الحلول التي تؤدي إليها تلك الدراسة. ثم بالعزيمة الصادقة القوية على وضع هذه الحلول موضع التنفيذ. وسأحاول في هذا المقال أن أضيف إضافة متواضعة إلى الجهود التي بُذلت في هذا السبيل، ومن الله العون وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مقتضيات العصر وأهواء العصر:

أنصار الفكر الغربي في بلادنا وكثير من أئمته في بلاده يُصورون الحضارة الغربية على أنها حضارة العصر، لا بمعنى أنها الحضارة السائدة والمسيطرة فيه، فذلك أمر حسي لا ينكره إلا مكابر، ولكن بمعنى أن فكرها وقيمها هي القيم التي يقتضيها العصر.

والإنسان بطبيعته يميل إلى أن يكون ابن عصره، يلبس كما يلبس أبناء العصر، ويسكن كما يسكنون، ويتكلم كما يتكلمون، ويتعلم كما يتعلمون ما يُعينه على أن يعيش كما يعيشون، والأمم تميل مثل هذا الميل فلا تريد التخلف عن ركب الأمم المعاصرة لها في مسكن ولا ملبس ولا قوة ولا علم يسهل الحياة ويوسع الآفاق وينير البصائر، ولكن البون شاسع بين المعاصَرة والإمَّعِيَّة.

إن المفهوم الصحيح للمعَاصَرة كما أتصوره هو أن تكتسب الأمة تلك العلوم والمهارات والأدوات والأشياء التي يقتضيها العصر، يقتضيها بمعنى أن الأمة التي لا تكتسبها تكون متخلفة بالقياس إلى أمم معاصرة لها في إنتاجها المادي، وقوتها العسكرية، وأثرها الثقافي، وتكون لذلك أمة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل أن تنشر فكرها وثقافتها.

فإذا شعرت أمة كالأمة الإسلامية أنها تخلفت عن ركب التاريخ فعزمت على اللحاق به فمن الطبيعي أن تنظر في حال الأمم التي سبقتها لتعرف سر تفوقها فتتعاطاه كي تكون مثلها، ولكن هذا هو الموطن الذي زلت فيه أقدام كثير من القادة والمفكرين من أبناء الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم التي أرادت أن تحذو حذو الغرب لتلحق به، وسبب الزلة أنهم حسبوا أن كل ما في الغرب فهو من لوازم العصر ومقتضياته ولم ينظروا نظرة الباحث المتروي الذي يحاول جهده أن يفرق بين مقتضيات العصر وأهواء العصر، أو بين أسباب التقدم الحقيقية وملابساته العرضية. فكان مثلهم كمثل

رجل سبقه آخر في مباراة الجري فقال لكي أكون عداء مثله فلا بد أن أتخذ قميصاً كقميصه وتُباناً كتبانه[1] شكلاً ولوناً وحجماً. لا تستغربوا ما أقول فأنا أصور واقعاً ولا أرسم «كركتيراً». ألم يروِ لنا الفيلسوف والأديب المصري الشهير الدكتور زكي نجيب محمود عن نفسه أنه مر عليه زمان كان يرى فيه " أنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بتراً، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل ما يأكلون ونجدُّ كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون، على ظن مني آنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ، فإما أن نقبلها من أصحابها وأصحابها اليوم هم أبناء أوروبا وأمريكا بلا نزاع، وأما أن نرفضها وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال "[2].

إن هذا الأستاذ ليس شاذاً بين مثقفي العالم الإسلامي، وأقواله هذه ليست فلتات عابرة وإنما هي تعبير عن حال فريق كبير من مثقفي هذه الأمة وعوامّها.

ولكن أصحيح أن كل ما في الغرب من فكر هو من مقتضيات العصر، بحيث يصبح الذي يرفضه متخلفاً عن ركب عصر، أو عائشاً خارج التاريخ كما يقولون؟ لكي نجيب عن هذا السؤال لابد أن نلقي على الفكر الغربي نظرة تحليلية فاحصة لنرى مم يتكون هذا الفكر؟ ولنعرف مكوناته اللازمة لعصرنا وأيها طارئ عليه.

مكونات الحضارة الغربية:

إنّ الحضارة الغربية تتكون على وجه الإجمال مما يلي:

أولاً: حقائق رياضية أو طبيعية أو اجتماعية أو نفسية تبثت صحتها بالتجربة الحسية أو البرهان العقل.

---

(١) التبان هو السراويل القصيرة.

(٢) تجديد الفكر العربي، دار الشروق، الطبعة السادسة ١٩٨٠م، ص ١٣.

ثانياً : نظريات عملية عن الطبيعة أو الإنسان فرداً وجماعة وهي ثلاثة أنواع :

أ- نوع نجح في تفسير كثير من الظواهر ولم نجد ما يدل على بطلانه وإن كنا لا نقطع بصحته .

ب- نوع ما زال في طور التجربة .

ج- نوع ثبت بطلانه .

ثالثاً : تقنية تكاد تشمل كل جوانب الحياة أدى إليها تطور العلوم الطبيعية والرياضية .

رابعاً : مهارات تقنية وإدارية على تلك العلوم .

خامساً : تصورات دينية أو فلسفية للوجود ومكانة الإنسان فيه وللقيم الخلقية والجَمالية ولعلاقة الفرد بالمجتمع .

سادساً : أوضاع سياسية واقتصادية وعلاقات اجتماعية وعادات وتقاليد تسوغها تلك التصورات .

ثامناً : ولكن الفكر الغربي بشقيه الليبرالي الرأسمالي والأممي الشيوعي ليس مجرد خليط من الأفكار والتصورات المتماثلة القوة والفاعلية، بل إن منه ما يمكن عدّه الفكر المسيطر المهيمن على غيره، والذي يمثل الأصل والإطار التصوري الشامل للفكر الغربي، ويمثل في الوقت ذاته معياره التقويمي للحق والباطل، وللخير والشر، لما ينبغي أن يبحث وما ينبغي أن يهمل، ولِما يقبل وما يرفض، بل يمثل الإطار الذي توضع فيه الحقائق العلمية ومن ثم تفسر تفسيراً يتناسب معه وتستنتج منها نتائج توافقه .

هذا الفكر السائد المهيمن فكر إلحادي مادي فحواه:

أ- أن الواقع الموضوعي يتكون في النهاية من لبنات مادية متناهية الصغر في حجمها متحركة في فراغ.

ب- أن كل ما في الوجود فهو إما هذه اللبنات، وإما أشياء مركبة منها، وإما علاقات بينها وما سوى ذلك فلا وجود حقيقي له.

جـ- أن طبيعة هذه المركبات سواء كانت أجساماً جامدة أو كائنات حية، أو جماعات بشرية تفسرها في النهاية طبيعة اللبنات المكونة لها، هذا على الرأي السائد بين جمهرة المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهنالك رأي لكثير من فلاسفة العلوم يقول إن المركبات تكتسب بحكم تركيبها طبيعة جديدة لا يمكن ردها إلى الأجزاء المكونة.

د- أنه ينبغي لذلك أن نلتمس تفسير الظواهر النفسية والاجتماعية والحيوية والفيزيائية في أسباب ضمن هذا الكون المادي، أي أن الكون المادي كون مكتف بنفسه، غير محتاج إلى قوة خارجه تخلقه أو ترسم مساره أو تدير أمره.

هـ- ولذلك فإن كل عبارة تنطوي على دعوى تخالف في ظاهرها هذا التصور، فإما أن نحكم ببطلانها وإما أن نُعيد تفسيرها، بحيث نجد لها مكاناً داخل هذا الإطار الإلحادي المادي.

و- وكل ظاهرة يُدَّعى أنها خارقة لقوانين الطبيعة فهي إما كذب أو وهم لا أساس لها.

ز- وكل تفسير للظواهر النفسية أو الاجتماعية ... إلخ بأسباب خارج هذا الإطار لا يعد تفسيراً علمياً، أي أن التفسير العلمي هو بالضرورة تفسير إلحادي، حتى أن كلمة العلم أصبحت في العالم كله تقريباً عَلَماً على هذا التصور الإلحادي للعلم، ولهذا أمكنت المقابلة بين العلم والدين.

هذه الفلسفة الإلحادية تمثل كما قلت إطار الفكر الغربي كله، بما في ذلك الحقائق العلمية، فحتى هذه توضع داخل هذا الإطار ومن ثم ينظر إليها من خلاله، وتفسر تفسيراً يتناسب معه، ولا يستنتج منها إلا النتائج التي توافقه، إن كثيراً من الناس يعتقدون أن الحقائق الجزئية المشهودة هي وحدها المهمة وأن لها الغلبة على التصورات الفلسفية، ولكن الحقيقة أن الإطار التصوري الخاطئ يؤثر على نظرة الإنسان إلى الحقائق الجزئية، ويحجب عنه مدلولاتها الحقيقية.

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠].

أفلم يكونوا يرونها؟ بل كانوا يرونها، وكيف لا يرى الإنسان بلداً كاملاً وهو يمر عليه ذاهباً وآيباً؟ ولكنهم لم يستنتجوا من رؤيتهم لها العبرة التي ينبغي أن تُستخلص لأن تصورهم المُنكِر للبعث يمنعهم من هذا الاستنتاج، ويقف بهم عند حدود الظواهر.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

المثقفون في الغرب كله بشطريه - إلا فئة قليلة - متأثرون على درجات متفاوتة بهذه الفلسفة الإلهية، فمنهم من يقبلها قبولاً كاملاً ويعلن كفره بالله وبالدين في صراحة، ومنهم من يعدها منهجاً علمياً ينتهجه إذا دخل معمله أو كتب بحثه، أو ناقش زملاءه، ثم يخلعه إذا ذهب لكنيسته أو بيعته، ومنهم من يقبله حقيقة ولكنه ينتمي إلى الدين اسماً لأنه يفسر كل المفاهيم الدينية تفسيراً لا يخرجُ عن هذا الإطار.

أنا لا أُنكِر أن من المفكرين الغربيين من ينكر الفلسفة المادية وينتقدها، ولكني أقول ما كل من ينكر الفلسفة المادية فهو مؤمن بل إن من أشد أعداء الفلسفة المادية قوم ملحدون، والذين ينكرونها على أساس ديني ينتمون إلى أديان شركية خرافية.

هذه هي أهم مكونات الحضارة الغربية:

فماذا نأخذ من هذه الحضارة وماذا ندع؟

يرى فريق من المثقفين في العالم الإسلامي - كما رأينا من قبل- أننا ينبغي أن نأخذ هذه الحضارة كلها بما في ذلك إطارها الفلسفي، ونطرح كل ما خالفها من دين وتراث وعادات وتقاليد، لماذا؟ لأن إطارها الفلسفي هو الذي يمثل فلسفة العصر، لا بمعنى أن التصور السائد بين جمهرة المشتغلين في الغرب بالعلوم الطبيعية أو البشرية وفلسفتها، فذلك أمر هين وقد يكون حقاً، ولكن بمعنى أنها التصور الذي يقتضيه العصر والذي يعد متخلفاً عن عصره كل من لا يقول به.

أصحيح أن هذا التصور الإلحادي لازمة العصر؟

إن هذا التصور ليس جديداً وإذا ثبت أنه ليس جديداً فقد ثبت أنه ليس مما أنتجه عصرنا، وإنما هو مما أخذه بعض أبناء هذا العصر عن أسلافهم الملحدين ثم روجوا له وألبسوه ثوب العلمية والمعاصرة.

ودليلنا على عدم جدته أن الناس منذ قديم العصور منقسمون في تصوراتهم للوجود إلى فريقين: فريق يرى الكون المادي فقيراً غير مُكتَفٍ بنفسه، شاهداً على خالقه، الذي ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأن هذا الكون المرئي ليس كل ما خلق هذا الخالق الحكيم، فإن له مخلوقات أخرى منها ملائكة ومنها جن، ومنه جنة تختلف طبيعة الأشياء فيها عن تلك التي نعرفها في عالمنا هذا وإن اتحدت الأسماء.

وفريق يرى أنه لا حق إلا ما أدرك بالحس المباشر وأن الكون غنيٌّ بذاته، وأنه لا خالق ولا بعث ولا ملائكة ولا جن.

وفريق ثالث يتردد بين هذين الموقفين اللذين لا يمكن الجمع بينهما فيميل هنا تارة وهنالك تارة أخرى فتأتي أقواله متناقضة ومواقفه متعارضة.

لنا على قِدم هذا التصور الإلحادي أدلة كثيرة، نكتفي ببعض ما رواه لنا القرآن الكريم من أقوال الأمم الكافرة، وببعض ما قاله أصحاب الفلسفة المادية من فلاسفة اليونان وببعض أقوال الذين تأثروا بهؤلاء ممن سُموا بفلاسفة الإسلام.

يروي لنا القرآن الكريم أن الكفار من بني إسرائيل بنوا كفرهم على أساس أنهم لم يروا الله الذي يحدثهم عنه موسى: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ [**البقرة: ٥٥**].

وكرر بعض كفار العرب القول نفسه فاشترطوا لإيمانهم أن يأتي الرسول بالله والملائكة قبيلاً: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا** ﴾ [**الفرقان: ٢١**].

﴿ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴾ [**الإسراء: ٩٢**].

واشترطوا لإيمانهم بالبعث أن يُبعث من مات من آبائهم كي يروهم عياناً:

﴿ **وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [**الجاثية: ٢٥**].

وفي مجال الزعم بأن الكون مكتف بنفسه غير محتاج إلى قوة من خارجه قالوا:

﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [**الجاثية: ٢٤**].

وكذلك فسروا حوادث التاريخ بأنه مصادفات من فعل الدهر لا أقدار خالق حكيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥].

قال ابن كثير: "وقالوا قد مسنا البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات. . ."[1].

وأما الفكر اليوناني الذي يمثل أقوى جذور الفكر الغربي المعاصر فقد كان فكراً شركياً إلحادياً وقد وجدت في هذا الفكر جذور الفلسفة المادية الإلحادية في شكل المذهب الذري الذي قال به ليوسيبس في حوالي منتصف القرن الخامس قبل المبلاد، كما قال به من بعده واشتهر به ديمقريطس، خلاصة هذه الفلسفة أن كل الموجودات تتكون من ذرات مادية صلدة لا تنقسم، وأن هذه الذرات أزلية في ذاتها وفي حركاتها وأنه لا خالق لها ومدبر لأمرها. وأرسطو الذي انتقد هذا المذهب كان هو نفسه معتقداً بأزلية الكون وأزلية الحركة وهو اعتقاد يتنافى مع وجود الخالق ويتسق اتساقاً تاماً مع المادية الإلحادية.

وكما أن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام من أمثال ابن سينا تأثروا بالفلسفة الأرسطية وقالوا كما قال بأزلية العالم، فقد تأثرت بعض الفرق الإسلامية بالمذهب الذري فقالوا إن الكون مكون من ذرات وأن الخَلْقَ إنما هو جمع وتفريق لهذه الذرات. ولم يقتصر تأثر المسلمين بالفلسفة المادية الإلحادية على هذا فقط بل إن بعض من سموا بفلاسفة الإسلام كانوا يحاولون جهدهم أن يفسروا كل شيء إسلامي في هذا الإطار الإلحادي اليوناني، فقالوا لذلك إن الملائكة هي قوى الخير والجن قوى الشر، والله هو العقل الفعّال والوحي قوى نفسانية إلى غير ذلك من المسائل التي كفّرهم بسببها علماء الإسلام.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ط٣، ١٣٩٩، جـ٢، ص ٣٧.

الفريق الثاني من المتأثرين بهذا التصور هو فريق المنتسبين إلى الإسلام صدقاً أو نفاقاً، والذين يتصورون الوجود، بل يحاولون تفسير الإسلام ضمن هذا الإطار الإلحادي كما فعل أسلافهم ممن سموا بفلاسفة الإسلام، هؤلاء في نظري أخطر من الفريق الأول، فالفريق الأول عدو سافر، وهذا عدو مستتر. فنقل الإلحاد إلى جماهير المسلمين بوساطتهم أيسر وتلبيسهم عليهم أشد. ولا يستغربن أحد ما أقول، فإن مؤرخي الفكر الغربي يَرُدون جذور الإلحاد إلى فلسفات "ديكارت" و "كانت" رغم أنهما كانا يؤمنان بوجود الله، ولكن العبرة ليست بما يؤمن به الكاتب في داخل نفسه بل بما يدل عليه قوله وما يلزم عن هذا القول.

أنا لا أريد أن أقول إن كل ما يفسر الإسلام ضمن هذا الإطار ملحد حقاً، مظهر للإسلام - إن أظهره - نفاقاً، ذلك لأنني أظن أن الكثيرين منهم يقبلون هذا الإطار على أنه الإطار العلمي وهم حين نحسن الظن بهم يريدون أن يُبينوا أن لا تعارض بين الإسلام والمنهج العلمي والحياة المعاصرة، ولذلك فإنهم يقدمون تفسيراتهم هذه على أنها التفسير الذي يقتضيه العلم وتقتضيه مسايرة الإسلام لظروف العصر لا على أنه التفسير الإلحادي للدين وهم في هذا سالكون منهج كثير من المفكرين المسيحيين مشابهون لهم أو متَشبهون بهم.

هذا الفريق نوعان منهم من قبل هذا الإطار لا في مجال التشريع العملي فحسب بل في مجال العقيدة أيضاً، ومنهم من قبل لوازمه في مجال التشريع، وإن لم يقبلها في محال العقيدة أو ظل على الأقل صامتاً عنها في هذا المجال.

ولبيان خطر هذا التصور في مجال العقيدة وشناعته أقول:

إن الإيمان بأن الله واحد لا شريك له هو لُب الإسلام وعماده، فهو الإطار الذي يحوي كل تفاصيله، وهو الأساس الذي تبنى عليه كل فروعه، وهو المقدمة التي

تستخلص منها كل نتائجه. والعلم بالله تعالى هو أشرف العلوم وأنفعها لأنه كلما ازداد علم الإنسان بالله ازداد إيمانه به وثقته فيه وتوكله عليه وحبه له وخوفه منه، ورجاؤه وشكره وطاعته وسائر الحالات والصفات المعبرة عن إخلاص العبودية له تعالى. وقد تفضل الله تعالى فعرفنا بنفسه في كتابه المنزل، وعلى لسان نبيه المرسل. وقد كان النبي ﷺ أعرف الناس بالله وأشدهم له خشية، وكان أصحابه من بعده أعرَف هذه الأمة بربها وأشدها له خشية. والطريقة التي سار عليها هؤلاء الأصحاب في فهم ما قاله الله تعالى عن نفسه، وما قاله عنه رسوله أن يُثبتوا له كل صفة أثبتها لنفسه في القرآن أو السنة على أنها صفة حقيقية وأن ينفوا عنه كل ما نفاه عن نفسه. فإذا قال تعالى إنه سميع بصير حي قيوم، أثبتوا له هذه الصفات، وإذا قال إنه تعالى يُحب ويرضى ويكره ويغضب قالوا عنه ما قال عن نفسه، وإذا أثبت لنفسه وجهاً ويداً قالوا إن له وجهاً ويداً، وإن قال ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أثبتوا لله صفة الاستواء وآمنوا بأن العرش والكرسي من مخلوقاته، ولم يُمثلوا شيئاً من هذه الصفات الإلهية بصفات المخلوقين لأنهم يعلمون أن الله ليس كمثله شيء، ولم ينفوها عنه أو يؤولوها تأويلاً يُبطل حقيقتها لأنهم يعلمون أن ذاتاً بلا صفات حقيقية هي وهم لا حقيقة له. على منهج هؤلاء الصحابة الكرام سار من جاء بعدهم من كبار التابعين وتابعيهم وسائر أئمة أهل السنة والجماعة. ولكن هذا العلم بالله تعالى الذي هو أشرف العلوم وأهمها لا يكاد اليوم يُوجد إلا عند قلة من الناس وذلك لأسباب تاريخية منها تأثر المسلمين بعقائد ومذاهب جاهلية أهمها الفلسفة اليونانية المادية.

لقد أثرت هذه الفلسفة في علم الكلام، وصار علم الكلام - مع الأسف - هو المختص بموضوع العقيدة وصفات الخالق تعالى، ولكن هذا الاتجاه المنحرف يُعضّد اليوم بأسباب جديدة هي تأثر المسلمين المتزايد بالتصورات الغربية المادية.

لقد كانت المعرفة الصحيحة بالخالق تعالى تقول إنه هو الحق، وكانت تقول إن أصدق كلمة قالها الشاعر " ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطل " وإذا كان الله تعالى هو الحق، بإطلاق، فإذا أثبت نفسه صفة كانت في حقه صفة حقيقية يتصف بها على وجه الكمال اللائق به سبحانه، وإذا اتصف المخلوق بهذه الصفة كانت في حقه أيضاً صفة حقيقية على وجه النقص اللائق بالمخلوق. فالله تعالى عليم حكيم رحيم سميع بصير والمخلوق موصوف بالعلم والحكمة والرحمة والسمع والبصر، فالأوصاف في الحالين أوصاف حقيقية لا مجازية ولكنها في حق الله تعالى أحق لأنه هو الحق بإطلاق، وهي في حقه أوصاف كمال لا يماثلها ولا يدانيها أوصاف المخلوقين.

ثم تغيرت الحال، فاعتبر الناس -بلسان الحال إن يكن يكن بلسان المقال- وجود المخلوقات المشهودة هي الوجود الحقيقي، فصفاتها هي الصفات الحقيقية، وما لم يكن هادياً مشهوداً فهو إلى الفكرة الذهنية أقرب منه إلى الحقيقة الواقعية، ونتج عن هذا التصور اتجاهان منحرفان:

اتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة فلا بد أن يكون الله جسماً، وإذا نسب لنفسه يداً فلا بد أن تكون كيدنا لحماً ودماً، وإذا قال إنه سميع بصير فلا بد أنه يسمع بأذنين مثل آذاننا ويرى بعينين مثل عيوننا، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، هؤلاء هم الذين سُموا في تاريخ الإسلام بالمُشَبِّهة والمُجَسِّمَة.

واتجاه يقول بما أن الصفات على الحقيقة إنما هي صفات الأجسام المشهودة، وبما أن الله تعالى ليس كهذه فإنه لا يتصف بها حقيقة بل مجازاً، ولذلك فقد رفض الغلاة منهم أن يُثبتوا لله تعالى أي صفة من الصفات فرفضوا حتى القول بأنه موجود؛ لأن هذا بزعمهم تشبيه له بالمخلوقات، وهؤلاء هم الذين عُرفوا في تاريخ الإسلام بالجهمية.

ولذلك فإن أهل السنة حين يبينون عقيدتهم يميزون أنفسهم عن هذين المذهبين الضالين، فيقولون إنهم يثبتون لله ما أثبت لنفسه من غير تشبيه ولا تمثيل (وهو المذهب الأول) ولا تحريف ولا تعطيل (وهو المذهب الثاني).

وقد أثر هذا الاتجاه الأخير في كثير من الفرق الإسلامية حتى تلك التي تنتسب منها إلى أهل السنة والجماعة فلجؤوا إلى مثل تأويلهم التعطيلي لبعض الصفات التي ظنوها لا تكون حقيقة إلا في حق المخلوقين، فقالوا مثلاً عن قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] أي استولى فكان رد أئمة أهل السنة عليهم أولاً أن الاستواء لا يعني الاستيلاء في اللغة فالتفسير خطأ إذن من حيث اللغة، وثانياً على فرض أنه الاستيلاء فهل تقولون إن الله تعالى استوى كاستيلاء البشر؟ إن قلتم نعم صرتم مشبهة وإن قلتم استولى استيلاء لا كاستيلاء البشر؟ فلماذا لا تقولون استوى لا كاستواء البشر كما قال سلف الأمة الراشدين.

لكن هذا المذهب التعطيلي يعود إلى الظهور من جديد فينتشر بين كثير من المتدينين من المسلمين وغيرهم، وما ذلك إلا لأنه يجد سنداً من التصور المادي المعاصر، هذا التصور الذي يقول كما رأينا سابقاً إن الوجود الحقيقي إنما هو وجود الذرات المادية ومركباتها، ومن البديهي أنه لا مجال للخالق في نطاق هذا التصور، إذا قلنا إن صفاته صفات حقيقية، لابد إذن من تأويل هذه الصفات وعدها مجازاً أو رموزاً ولكن هذا معناه أن الخالق تعالى يكون مجرد فكرة في الأذهان لا وجود حقيقي لها في الأعيان. فلا يوصف لذلك بصفة ثبوتية فيقال إنه كذا وكذا، بل تكون كل صفاته سلوباً فيقال أنه ليس كذا وليس كذا، هكذا قالت الجهمية في الماضي، وهذا يقول رجل كالأستاذ محمد أسد: إنه يقول عن الله تعالى ما ترجمته: "... إننا لا نستطيع أن نتخيله" وهذا صحيح، إذا كان المقصود به أن تكون له صورة كيفية في أذهاننا، ثم يقول:

"كل ما نستطيع أن نعرفه عنه أنه ليس كذا وكذا"(١). ثم يمضي لذلك فيؤول صفاته الثبوتية كالاستواء والسمع والبصر بل يُؤول السماوات والكرسي.

وما يقال عن الله تعالى يقال عن عالم الغيب كله تقريباً. إن المحاولة دائماً هي تأويل هذه الحقائق بحيث تصبح قابلة لأن تكون جزءاً من الإطار المادي. يقول الشيخ محمد عبده عن الملائكة في كلام طويل في تفسيره: "فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي سمى في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها، وبه قوامه ونظامها، لا يمكن لعاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً؛ لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات"(٢). ثم انتقد تعريف الملائكة بأنها أجسام نورانية قابلة للتشكل بأن النور وحده لا قوام له يكون به شخصاً ممتازاً بدون أن يقوم بجرم آخر، وأن الشيء الواحد لا يمكن أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة(٣).

يقول تلميذه الأستاذ رشيد رضا - عليه رحمة الله -: "هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة"(٤).

وأقول لا بأس على الداعية إلى الإسلام أن يقرب معاني ألفاظه إلى الناس

(1) The Message of Quran, London, 1980. F.

(٢) تفسير المنار جـ١، ص ٢٢٣، القارة ١٩٧٢.

(٣) جـ١، ص ٢٢٥.

(٤) جـ١، ص ٢٢٧.

بالمألوف من ألفاظهم ومعارفهم، ولكن هذا شيء وتفسير حقائق الإسلام بما يوافق أجواء العصر شيء آخر. وما فعله الأستاذ محمد عبده هنا هو من القبيل الثاني لا الأول، والذي يغري الداعية الحديث بالوقوع في مثل هذا التفسير هو أن كثيرين من معاصرينا يقبلونه ويرتاحون إليه ويعدّونه التفسير الذي يقتضيه العقل، ولكنهم إنما يقولون هذا لأنهم متأثرون بثقافة عصرهم، لا لأن عقولهم أكبر من الأسلاف الذي قبلوا حقائق الغيب كما وصفها الله تعالى. إن كل ما يخالف العقل باطل لا محالة، ولكن ما العقل؟ إن كثيراً من المفكرين يسلمون بمقدمات باطلة في تصورهم للكون، ثم يعتقدون أن المعقول هو ما كان موافقاً لتلك المقدمات فيخلطون بين الممكن عقلاً والممكن في حدود إطارهم التصوري، بل إن من الخطأ الذي نبه إليه كثير من العلماء الغربيين أنفسهم الظن بأن الممكن عقلاً يطابق الممكن في حدود العلم التجريبي.

هذا خطأ؛ لأن دائرة الممكن عقلاً أوسع من دائرة الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي، إذ لو كان الأمر كذلك لصح أن نقول إن كل ما لا يمكننا تفسيره في حدود علمنا التجريبي؛ فهو وهم لا حقيقة له، ولو آمن العلماء بهذا المبدأ لتوقف العلم عن التقدم منذ زمن طويل، ولكن الحقيقة أن ما لم يمكن تفسيره في حدود العلم بالأمس أمكن تفسيره اليوم وما لا يمكن تفسيره اليوم سيمكن غداً بإذن الله، وذلك لأن دائرة العلم في اتساع دائم، ولكن العلم التجريبي مهما اتسعت دائرته فلن يستطيع تفسير بعض الحقائق، لا لأن تفسيرها غير ممكن، ولا لأنها مخالفة للعقل، ولكن لأنها تقع خارج المجال الذي حدده هذا العلم لنفسه، وكونها خارج المجال لا يعني أنها أوهام أو دعاوى لا دليل عليها بل إن عليها لأدلةً تتناسب مع طبيعتها، ولكن هذا ليس مجال الإضافة في هذا الموضوع.

من الخطأ الشائع تسمية أصحاب هذه المدرسة بالعقلانيين إذ ما كل من ادعى الاحتكام إلى العقل بعاقل، وكيف يكون عقلانياً من يحد العقل بحدود الفلسفة

المادية أو بحدود الممكن تفسيره في حدود العلم التجريبي الذي بلغه الناس في زمانه؟ لو كان هؤلاء عقلانيين لصح أن نصف بالعقلانية أولئك الذين أنكروا إسراء الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة، لقد أنكروا أمراً لا نعدّه اليوم مستغرباً حتى بوسائلنا المادية، ولكنهم أنكروه لأن علمهم ضاق فحصر الممكن عقلاً في المألوف لديهم من وسائل الانتقال، وكذلك يفعل أصحاب هذه المدرسة اليوم، فيضيقون بكل أمر جاء به الذين لا يجدون له - إن أخذوه على ظاهره - تفسيراً في حدود معارفهم فيظنون هذا الظاهر مخالفاً للعقل فيؤولونه تأويلات تجعله مناسباً لما حسبوه متقضى العقل وإنما هو مقتضى الأُلف والعادة، ولذلك فإنهم يضيقون بكل ما ورد في القرآن والسنة من أحداث خارقة لمعتاد الناس ويؤولونها تأويلاً يجعلها أمراً عادياً، فالطير الأبابيل هي الجراثيم[1]، ونتق الجبل فوق بني إسرائيل إنما كان زلزالاً، وانفلاق البحر لموسى كان جزراً[2].

والنوع الثاني هو الذي لا يهتم بأمثال هذه التصورات الأساسية سواء كانت إسلامية صحيحة أو غربية باطلة، ويعدّها كلها لقصر نظره من الكلام النظري الذي لا يؤثر في الواقع العملي، ولكنه مع ذلك متأثر بنتائج التصور الإلحادي في تصوراته الفكرية وتصرفاته العملية. فهو لا ينظر إلى الفكر الغربي في مجال الاقتصاد أو السياسة أو القانون... إلخ على أنها تقاليد حضارية معينة قد تخطئ وقد تصيب، ولكنه يعطيه صفة الإطلاق فبحسب أن اقتصادهم هو الاقتصاد وقانونهم هو القانون، وإن لم يقل الاقتصاد المطلق أو القانون المطلق فهو يراه على الأقل الاقتصاد أو القانون الذي يقتضيه العصر وتقتضيه الحضارة الإنسانية، ولذلك فإن كل ما في الإسلام مما يخالف التصور الإلحادي ينبغي أن يعاد تفسيره، بحيث يصبح موافقاً لمواصفات

---

(١) محمد عبده.

(٢) محمد أسد.

الحضارة الغربية، والغريب أنهم يسمون كل هذا اجتهاداً وتجديداً، أغريب هو؟ كلا فإن هذا هو المنهج الذي تسلكه كل الانحرافات فكرية كانت أو حقيقية، إنها تسمى أباطيلها بأسماء براقة لا تعبر عن حقيقتها ألم يقل الرسول ﷺ: "ليشربنَّ ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها"[1].

ألم يقل الله تعالى عن المنافقين:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

ألم يقل عن أعداء أنبياء الله:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

هذه هي النظرة التي جعلت بعضهم يتحرجون وبعضهم ينكرون أشياء مثل تعدد الزوجات، ورجم الزاني المحصن، وقتل المرتد، وحجاب المرأة، وإعفاء اللحى، وتحريم المعازف والربا واختلاط النساء بالرجال.

وسيقت للدفاع عن هذا الإنكار حجج من أوهى وأسخف ما يتصوره الإنسان، ولا عجب فإن الداعي إلى الإنكار ليس هو هذه الحجج وإنما معرفة المنكرين بأن هذه الأشياء مما يستبشعه العقل الغربي المعاصر، واقتناعهم بأن كل ما يستبشعه هذا العقل فهو المستبشَع لأنه إنما يُنكر ويُستبشع ما كان مخالفاً للعلم معرقلاً للحضارة الإنسانية.

ولم يقتصر أثر الفكر الغربي على التصورات الاعتقادية والآراء التشريعية وإنما تعداه إلى الأذواق والظاهر فالزي القومي في كثير من بلاد العالم الإسلامي أصبح دليل التخلف لا سيما فيما يتعلق بالنساء، وكل ما يفعله الغربيون رجالاً ونساء

---

(١) حديث صحيح رواه النسائي وابن ماجة وأبو داود.

بشعورهم جميل وكل ما نفعله نحن إن لم نقلدهم قبيح، وإذا احتفلوا برأس السنة الميلادية فينبغي أن نحتفل وأن نحتفل بطريقتهم، وإذا جعلوا لأبنائهم أعياد ميلاد فكذلك ينبغي أن نفعل، إلى آخر ما لا يكاد يُحصى من أنواع التشبيه.

إن التقليد في المسائل الشكلية أقل خطراً ما في ذلك شك، ولكنه ربما كان أدل على التبعية العمياء لأنه إن اختلفت للمتابعة في التصورات والتشريعات تأويلات ومسوغات فكرية؛ فلا يمكن أن يوجد للتقليد في المسائل المظهرية مسوغ غير الافتنان بالمقلّد، وعدّه المعيار لما ينبغي أن يُفعل وما ينبغي أن يُترك. ولكن التقليد في المظاهر له آثار خطرة قد لا يلتفت إليها كثير من الناس، إذ من الثابت أن هنالك علاقة بين المظهر والمخبر، وعليه فالذي يوافق طائفة معينة في مظهر تمتاز به ويُعد شعاراً لها خليق أن يجد في نفسه ميلاً لموافقتها في مخبرها، ثم أن المظاهر كثيراً ما تكون تعبيراً طبيعياً عن حالات نفسية ومبادئ تصورية، فالتشبه بأصحاب هذه الحالات والتصورات في مظهرهم يساعد على إحداث تلك الحالات والتصورات في المُقلّد.

إن كثيراً من مواقفنا السياسية لها جذور فكرية في هذه التبعية للثقافة أو الحضارة الغربية، فاتخاذ الشيوعيين وكثير من اليساريين مواقف مؤيدة لموقف المعسكر الشيوعي في القضايا العالمية حتى ما كان منها خاصاً بالعالم الإسلامي هو تعبير عن موقف حضاري قبل أن يكون موقفاً سياسياً.

لكن هذه التبعية الحضارية ليست قاصرة على الشيوعيين، فالتبعية الحضارية للمعسكر الغربي نتج عنها الآثار السياسية نفسها، فصلح كامب ديفيد مثلاً سبقه صلح مع الحضارة الغربية، وسبقته كتابات لمفكرين مؤثرين كبار بأن هذه الدول الغربية هي المثل الذي ينبغي أن يحتذى به، فكل ما كان أقرب إليها كان أكثر حضارة وأجدر بالاحترام والتوقير، وبما أن إسرائيل هي قطعة من الغرب في البلاد العربية،

وبما أن البلاد العربية متخلفة بالقياس إليها فإن معاداتها معاداة للحضارة الغربية ودليل على التخلف.

إن الافتتان بالحضارة الغربية في تصوراتها الاعتقادية وأحكامها التشريعية وقيمها الخُلقية ومظاهرها الذوقية لم ينتج عنه مواقف سياسية موالية للغرب فقط وإنما نتج عنه محاولة لإعادة صياغة المجتمعات الإسلامية كلها في قوالب غربية، في تركيبها الاجتماعي، ونظمها القانونية، وأوضاعها الاقتصادية، وبرامجها التعليمية ووسائلها الإعلامية على اعتقاد بأن هذه الصياغة شرط ضروري لنهضة الأمم الإسلامية وتحويلها من مرحلة التخلف والرجعية إلى مرحلة التقدم والمعاصرة.

ما أسباب هذه التبعية؟

إن الإنسان بطبعه يميل إلى حب الموافقة والتقليد ولذلك قيل إن الناس كأسراب القطا، إن الإنسان مخلوق اجتماعي فأكبر عقاب له أن تعزله عن المجتمع في سجن انفرادي، ولكي يعيش الفرد مع الناس لابد أن يدفع ثمن ذلك موافقة لهم في أفكارهم وعاداتهم ومظاهر حياتهم لأن المجتمع يقسو على من يشذ عنه في هذه الأمور.

والموافقة هذه أمر لا بد منه، وهي ليست شراً في ذاتها وإنما تكون شراً حين تسود في المجتمع عقيدة باطلة أو فكرة خاطئة أو عادة ضارة وبطلب من الفرد أن يتابع المجتمع فيها. هنا يُمتحن الإنسان، فالكثرة من الناس تخشى المفارقة والتميز وترضى بالمتابعة وإن تبين لها الخطأ، والقلة من الرجال والنساء التي تمتاز بقوة العزيمة والشجاعة وحب الحق هي وحدها التي تصمد وتقوى على التميز والمفارقة، وإذا ما تميزت وفارقت تبعها غيرها ممن هو أقل منها جرأة، وتبع هؤلاء غيرهم وهكذا إلى أن يحدث في المجتمع - إن حدث - تيار جديد لا يلبث أن يكون هو الاتجاه الاجتماعي المقبول.

والمجتمع ليس كوماً من الأفراد متماثلي الأهمية والأثر الاجتماعي، ولكنه نظامٌ بعض الطبقات فيه أهم من بعض، وأشد أثراً على غيرها، فإذا تغيرت هذه أو سنت للناس سنة جديدة تبعها غيرها. هذه الطبقات القائدة تشمل طبقة قادة الفكر، وطبقة الحكام، وطبقة الأثرياء، ولذلك فإن النبي ﷺ لم يكن في مبدأ بعثته يوجه الدعوة إلى الأفراد البسطاء فقط وإنما كان يعطي اهتماماً خاصاً لرؤساء القبائل، وفي المدينة وجه رسائله إلى الملوك والرؤساء، على أساس أن إسلام هؤلاء يقود إلى إسلام أتباعهم، ولذلك فإن حكمة الله تعالى اقتضت أن يكون نبيه الخاتم من قريش القبيلة التي قال عنها ﷺ: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم"[١]، وفي رواية "الناس تبع لقريش في الخير والشر"[٢].

سألت امرأة الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه: "ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال فهم أولئك على الناس"[٣].

الطبقة القائدة قد ترى رأياً أو تسن عادة لأنها توافق مصلحتها وهواها، وقد ترى الرأي لأنه حق وتسن العادة لأنها تراها حسنة، ثم يأتي كثير من أفراد الطبقات التابعة فيقلدونها في الرأي أو العادة لمجرد أنها قالت به أو سنته ومن غير نظر في صواب الرأي وخطئه وحسن العادة أو سوئها.

---

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش.

(٢) مسلم، كتاب الإمارة.

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية، "عن قيس بن أبي حازم قال: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس يقال لها زينب فرآها لا تكلم، فقال: ما لها لا تكلم؟ قالوا: حجت مصمتة، قال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية فتكلمت فقالت: من أنت؟ قال: امرؤ من المهاجرين، قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش، قال: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول أنا أبو بكر.

ويبدو أن ما يصدق على الأفراد في نطاق المجتمع القطري أو القومي الواحد يصدق على الأقطار في نطاق المجتمع الدولي، لا سيما في عصر كعصرنا تقاربت فيه المسافات وتوثقت الصلات، وتشابكت المصالح، واشتد لذلك التأثير المتبادل.

الدول أيضاً منها دول قائدة ودول مقودة، فالدولة الأقوى فكراً في معرفة أمور الدنيا والتصرف فيها، والأكثر ثراء، والأشد قوة وبأساً، وهي الدولة القائدة والرائدة التي يحتاج غيرها إلى فكرها وتجربتها ومالها ومنتجاتها، وما كان أقل منها في هذه الجوانب فهي الدول التابعة.

فإذا رأت الدول القائدة رأياً، أو اتخذت في حياتها طريقة، لأي سبب يخصها، قلدتها الدول التابعة تقليداً أعمى.

هذا على فرض أن قادة الدول القائدة بقوا في بلادهم، فكيف إذا انتقلوا إلى البلاد الضعيفة حكاماً ورؤساء، وقادة فكر، كما حدث في العالم الإسلامي في عهود الاستعمار. أو خبراء في شتى نواحي الحياة أو أساتذة أو رجال أعمال كما هي الحال في عالمنا الإسلامي الآن.

إنه حينئذ تجتمع لهؤلاء القادة الوافدين قوتان، قوة الدولة القائدة التي يمثلونها، وقوة المركز القيادي الذي يحتلونه في داخل الدولة الضعيفة.

وبما أن الإنسان لا ينفق إلا مما يملك فإن هذه الدول الغربية القائدة إنما تنقل إلينا ما عندها، معتقدة أن موقفها هو الموقف الطبيعي الذي تُقاس به الأشياء الأخرى، فدينها هو الدين، واقتصادها هو الاقتصاد، وفلسفتها هي الفلسفة، ومصلحتها هي المصلحة، فما عندها يُعرّف بالألف واللام، وأما ما عند غيرها فلا بد من تعريفه بالإضافة، فيقال دين إسلامي أو بوذي واقتصاد إسلامي وفلسفة عربية أو صينية أو هندية، وكذلك قل عن لغتهم وزيهم وفنهم المعماري وعاداتهم الاجتماعية.

أعود فأقول إن تبعية الفرد للمجتمع لا سيما إذا كان فرداً من الطبقة الضعيفة وتبعية الأمة لجماعة الأمم لا سيما إذا كانت أمة ضعيفة أقول إن هذه سنة اجتماعية لا يمكن التغلب عليها بمجرد الأماني.

ما الحل إذن؟

إذا كان التحليل الذي أوجزناه سابقاً صحيحاً ومقبولاً، فإن الحل النهائي الحاسم هو أن يزول التناقض بين الانتماء إلى الإسلام والانتماء لمجموعة الدول الضعيفة، وهذا يكون إما بأن تقوى الدول الإسلامية أو بأن تسلم الدول القوية، وكلا الأمرين ممكن، بل إن كل واحد منهما يساعد على الآخر. فإذا قويت الأمم الإسلامية احترمتها الشعوب الأخرى واحترمت تبعاً لذلك دينها، أما الآن فإن حال الأمم الإسلامية تفتن الناس عن الإسلام، وتلك مصيبة علمنا القرآن الاستعاذة منها: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

وإذاأسلمت الدول القوية القائدة شجعنا ذلك على العودة إلى الإسلام.

لكن دعونا الآن نحصر أنفسنا في أنفسنا، ما الحل بالنسبة لنا؟ قلنا: إن الحل النهائي الحاسم هو أن نكون أمة قائدة بالوصف الذي ذكرناه آنفاً، ولكن كيف نكون أمة قائدة ومسلمة في الوقت نفسه إذا كان تحليلنا يدل على أن ضعفنا الحالي يغرينا بالتخلي عن ديننا وتقليد غيرنا؟

والحل في سنة اجتماعية أخرى، وهي أن بعض الأفراد في المجتمع - وهم في الغالب من أفراد الطبقات الضعيفة- قد يشذون عن قاعدة التبعية والموافقة إذا ما توفرت لهم الأسباب، إن لديهم الاستعداد للاستمساك بالحق متى لاح لهم، والعمل لإحقاقه مهما كلفهم من جهد وسخرية اجتماعية، حتى لو كلفهم أرواحهم. إذا عرف هؤلاء الحق واستمسكوا به وأعلنوه وصبروا على الأذى الاجتماعي في سبيله،

فإنهم يوشك أن يكونوا طبقة قائدة جديدة بفكرها القوي العملي الحركي، وإذا صاروا كذلك أسرع تأثيرهم في بقية العناصر القوية في المجتمع، وهكذا إلى أن يؤول الأمر إليهم، فإذا آل عملت السنة الاجتماعية الأولى عملها فتبعهم الناس أفواجاً بعد أن كانوا ينضمون إليهم أفراداً أفراداً.

هكذا فعل أنبياء الله، وهكذا ينبغي أن نفعل إذا أردنا لحالنا أن تنصلح. لقد بعث الله نبيه محمد ﷺ من قريش القبيلة القائدة، وفي مكة البلدة القائدة - أم القرى - ولكنه لم يكن حاكماً ولا كان ثرياً، بدأ الدعوة باللسان - بقوة الفكر - فانضم إليه الأفراد الأقوياء، كثير منهم من الطبقة الضعيفة وقليل منهم من الأشراف. ودفع الضعفاء الحركة الإسلامية بصبرهم على الأذى والاضطهاد والقتل لأنهم أثبتوا أنهم يدافعون عن حق، ودفع الأشراف الحركة بصبرهم وببذلهم أموالهم واستغلالهم مكانتهم الاجتماعية في سبيل نشر الحق وتثبيته. ثم كانت بيعة العقبة وكانت الهجرة فصارت للدعوة الجديدة أرض مستقلة، وانضم الحكم إلى النبوة ثم كانت غزوة بدر الكبرى وهزيمة المشركين عسكرياً بعد أن هُزموا فكرياً، ثم توالت الغزوات وتوالت معها الانتصارات حتى فتحت مكة فصارت الدولة الجديدة دولة مهيبة، عندئذ نزل قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

وهكذا فعل موسى، توجه بالدعوة إلى الرئيس الكبير لعله أن يسلم ففي إسلامه حقن للدماء وانتشار للحق بغير عناء.

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

ولكن إذا كان فرعون من النوع الذي يعميه العلو في الأرض عن رؤية الحق فما كل أفراد الناس في بلده كذلك، لقد جيء بالسحرة ليهزموا موسى وكان أكبر شرف

يطمعون فيه أن يكونوا من المقربين لفرعون ولكنهم رأوا الحق ناصعاً فقالوا لفرعون وهو يهددهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ثم بالصلب في جذوع النخل، قالوا له: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهم لا يرون من حق إنسان أن يمنع إنساناً من اتباع الحق حين يصدق فجره.

بداية الطريق إذن ابتداء حركة من هذا النوع، ولكن هذه الحركة بحمد الله قائمة بل إنها لحركة تكفل الله تعالى للأمة المحمدية بأن لا يخلو منها زمن من الأزمان، فقد قال ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك"(١). وهذه الطائفة ليست جماعة بعينها واسمها وشعاراتها ولكن يدخل فيها كل إنسان يستمسك بالحق، ويدعو إليه سواء كان من أفراد الطبقة القائدة أو من ضعفاء الناس، وسواء كان يعمل مستقلاً أو في جماعة.

وفي العالم اليوم - لا أقول في العالم الإسلامي- بل في العالم كله حركة إسلامية تتمثل في جماعات شتى وأفراد وهيئات رسمية وشعبية كلها تعمل في حدود طاقتها للعودة إلى الإسلام.

فنقطة البداية إذن موجودة ... إنها الحركة أو الدعوة الإسلامية بالمفهوم الشامل الذي ذكرته، والمهم أن تتسع رقعتها ويصلب عودها، بتنمية فكرها وتقويته، وببذل المال، وبمساعدة السلطات الحاكمة ما كان ذلك ممكناً.

إذا حدث كل هذا وهو حادث بإذن الله أمكننا أن نسير خطوات أكثر في مواجهة الحضارة الغربية، لا بإيقاف غزوها لنا فحسب، بل بهداية أصحابها إلى الصراط المستقيم. إن طموحنا ينبغي أن لا يقف عند حدود الدفاع ورد العدوان بل ينبغي أن يتعداه إلى طلب المعتدي ودعوته، كيف؟

---

(١) مسلم كتاب الإمارة.

كيف نواجه الحضارة الغربية؟

كيف نواجهها فنكف أثرها السلبي عنا وكيف نواجهها فنقومها ونصلحها لكي تكون حضارة إنسانية حقاً.

لقد قلت إن هذا لا يتأتى إلا إذا صرنا أمة قائدة وتحدثت عن الخطوة الأولى نحو تلك القيادة، وفيما يلي نستكمل بقية الخطوات وبإيجاز شديد:

أولاً: الحكم بالإسلام، ومن أهم عناصر هذا الحكم:

أ - الاستقلال وعدم التبعية للدول الكبرى سواء كانت تبعية سافرة أو مقنعة، ولعل هذا الاستقلال هو الآن أصعب الأشياء منالاً فهو يحتاج مع الأخذ بكل الأسباب المادية اللازمة له إلى إيمان راسخ وتوكل على الله تعالى وتذكر دائم بقوله سبحانه: ﴿**وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [**القصص**: ٥٧].

ب - حرية سياسية تشعر المواطن بأنه عزيز في بلده، بين أفراد مساوين في الحقوق الإنسانية وإن علوه ببعض المناصب الدنيوية، وتمكنه من أن يفكر بحرية ويشارك بفكره

وجهده في إصلاح حال بلده، يقول للمصيب أصبت والمخطئ أخطأت مهما كان منصبه ثم يذهب لينام قرير العين لا يدهمه بالليل طارق يقتاده إلى الحبس إرضاءً لنزوة حاكم. إن فقدان الحرية السياسية يفقد المواطنين الشعور بالانتماء لبلدهم ويولد فيهم الإحساس بأن البلد مُلك الحاكم، من رضى عنه نال الحظوة ومن سخط عليه فلأمه الهبل. ولا يُتصور من إنسان يشعر بهذا الشعور أن يقوم بعمل جليل كالذي نريد.

جـ - عدل اجتماعي، وهو جزء مكمل ولازم للحرية السياسية، كما أنه عامل فعّال في زيادة الإنتاج. إن الجور الاقتصادي كالجور السياسي ينافي علاقة الأخوة التي هي العلاقة الأساسية بين المسلمين في الدولة ويولد فيهم مشاعر سلبية لا اجتماعية تؤثر فيما تؤثر في إنتاجهم الاقتصادي.

د - أمر بالمعروف ونهي عن المنكر نسخر له وسائل الإعلام ومناهج التربية والتعليم ومؤسساتها وتُستغل لتحقيقه كل الأساليب التي تحبب المعروف إلى الناس وتُكره المنكر إليهم مع عناية خاصة بالصلاة في جماعة.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

هـ - إقامة الحدود كفاً للمعتدين واستدراراً لرحمة رب العالمين.

ثانياً: تغيير العلوم إسلامياً:

أ - بتنقيتها من شوائب التصورات المادية الإلحادية وسائر التصورات المخالفة للإسلام والتي تمثل إطارها الفلسفي وإن لم تبرز في مضمونها الحرفي.

ب - بإطراح كل النظريات التي لم يثبتها واقع والتي تخالف حقائق قررها الإسلام، ولا بأس من دراستها للنقد.

جـ- باستبدال الإطار الفلسفي الإلحادي بإطار توحيدي.

د- باعتبار الوحي مصدراً من مصادر الحقيقة ومن ثم إدخال كل ما أثبته القرآن وصحيح السنة في مضمون العلوم، كل حقيقة بحسب العلم المناسب لها.

هـ- بالسعي نحو الإصالة في كل ما نعالج من مشكلات وما نعطي من أولويات.

و- بصياغة العلوم كلها طبيعيها وإنسانيها بلغة عربية فصيحة حتى تكون اللغة العربية لغة العلوم، كما هي لغة الدين والأدب.

ثالثاً: دراسة الغرب: تاريخه، وواقعه، ومستقبله، وتجاربه، من وجهة نظر إسلامية، إننا الآن نقول عن الغرب ما يقوله هو عن نفسه، بل نقول عن الشرق ما يقوله المستشرقون وقد آن لنا أن نعكس الأمر فيكون لنا مختصون بشؤون الغرب يعالجون قضاياه على أساس إسلامي، وأعني بالإسلامية هنا الحقائق التي جاء بها الإسلام كما أعني بها مصالح المسلمين الوضعية.

رابعاً: المرجو من محاولات صياغة العلوم على أساس إسلامي ومن الدراسات الغربية أن تساعدنا في الاستفادة الرشيدة من الحضارة الغربية، ولكن يمكن أن نجمل فيما يلي ما ينبغي أن يؤخذ وما ينبغي أن ينبذ من هذه الحضارة:

أما ما نأخذه فهو:

أ- المنهج العلمي (بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية).

ب- والحقائق الجزئية التي كشفتها العلوم ومعرفتها لا يمكن أن تعزل عن معرفة العلوم التي أدت إليها.

جـ- وما بني على هذه العلوم من تقنية في صورة آلات ومهارات وما أدت إليه هذه التقنية من تصنيع.

د - ثم لابد لنا من الاستفادة من تجربته في كل مجالات الحياة المعاصرة: المؤسسات التعليمية والإعلامية والاقتصادية والعسكرية والفنون الإدارية على أن نكيف ما نأخذه مع إطارنا الإسلامي ولا نغير هذا الإطار بالنقل الحرفي لكل ما عندهم كما يحدث الآن في العالم الإسلامي.

أما البيانات والفلسفات والآداب والفنون والعادات والتقاليد، فلا علاقة منطقية أو نفسية بينها وبين ما سبق. ولكنني أرى مع ذلك أن لا تقطع صلتنا بها قطعاً كاملاً بل ينبغي دراستها بوصفها واقعاً ينبغي أن نعرفه وبوصفها هدياً نستهدي به، ولذلك أرى أن لا يفتح لها باب الولوج إلى الجماهير الإسلامية بل ينبغي أن تكون موضع دراسة المختصين.

هـ - إن أشد أسلحة الغرب الفكرية خطراً علينا وتدميراً لنا بل خطراً على الغربيين أنفسهم وتدميراً لهم؛ هو التصور الإلحادي للوجود الذي كاد أن يصبح سمة العصر والذي لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة العلمية أو الفنية أو العلاقات الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وهو أكبر تحد يواجه الدعوة الإسلامية والمفكرين الإسلاميين، فإذا نجحنا في التصدي له بالنقد العقلي العلمي المستنير، وإذا استطعنا أن نقدم تصورنا الإيماني بديلاً لهذا الإطار الإلحادي وأقمنا الحجج العلمية والشواهد الواقعية على أنه الإطار المناسب للمنهج العلمي ولحقائق العلوم الطبيعية والبشرية وللثقافة الإنسانية ومن ثم للحياة السعيدة؛ نكون قد أسدينا خدمة كبيرة لا لأمتنا الإسلامية فحسب، ولكن للمجتمع الإنساني كله، وذلك أن هذا المجتمع يقترب من الدمار كلما ساد فيه فساد التصور الذي يؤدي إلى فساد السلوك، وكلما خبا فيه نور الرسالة المحمدية.

ولكن هذا عمل عظيم يحتاج إلى صبر ويقين، يحتاج إلى يقين بأنه تصورنا

الإيماني هو الحق الذي لا ريب فيه وأن التصور الإلحادي بكل لوازمه وفي كل صوره وأشكاله تصور باطل مفسد.

ويحتاج إلى صبر في مواجهة هذا التصور والتصدي له وعدم مسالمته أو مداهنته بحجة المعاصرة أو الحضارة أو التجيد، مهما طال الزمن وضجت الدعايات وسقط المنهزمون.

والصبر واليقين هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية المقتدية بهدي رُسل الله.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].



القسم الثالث

البعث الإسلامي



وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام(*)

إن القضية التي كلفت بالكتابة فيها هي: "المسؤولية في تحقيق الوحدة بين المسلمين: مسؤولية الحكومات، مسؤولية العلماء، مسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية، مسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية، مسؤولية وسائل الإعلام، مسؤولية الشعوب".

لكنني رأيت أن أقصر الحديث في هذه الورقة القصيرة على مسؤولية هذه الفئات عن وحدة يمكن تحقيقها لأنها وسيلة إلى تحقيق هدف يهم هذه الفئات كلها.

فأقول مستعيناً بالله تعالى:

فالوحدة الكاملة المثالية للمسلمين هي أن يكونوا جميعاً كما كانوا في عهد النبي ﷺ أمة واحدة ذات عقيدة لا يخالطها شرك، وعبادة خالية من كل بدعة، وخلق حسن، وعمل صالح إلا ما كان لازماً للبشر من نقص في العلم، وتقصير في العمل يرجى من الله تعالى التجاوز عنه.

(*) قدم البحث للمشاركة في مؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي. يونيو ٢٠٠٥م.

لكننا نعلم أنه لا سبيل اليوم إلى تحقيق هذه الوحدة المثالية لأن رسولنا ﷺ أخبرنا بأن أمته ستختلف، وبين لنا علماؤنا أن اختلافها سيكون في مسائل من أصول الإيمان. ونحن نرى اليوم مصداق ما أخبر به الرسول وبينه العلماء. فقلوب المسلمين ليست مجتمعة الآن كلها على كل حق جاء به الدين الحق.

لكن عزاءنا أن هذه الوحدة المثالية ليست بلازمة لتحقيق الهدف الذي نرجوه، بل إن تحقيقه ممكن بوحدة أقل منها، وحدة ناقصة، بمعنى أنها لا تتطلب من الجماعات الإسلامية المختلفة أن تتنازل عن شيء من معتقداتها وآرائها، بل لا تتطلب أن تكون شاملة لتلك الفئات في كل البلاد، بل إنها ستكون مفيدة ومجدية حتى لو اقتصرت على الفئات الموجودة في بعض بلدان العالم الإسلامي دون بعض. الذي يجعلها ممكنة هو كون الهدف المرجو أن تحققه هو هدف إذا تأملته تلك الفئات كل من وجهة نظرها وجدت أن تحقيقه من مصلحتها.

الهدف الأكبر الذي نسعى لتحقيقه هو درء الخطر الذي يتآمر الغرب بقيادة الولايات المتحدة على إلحاقه لا بهذه الفئة أو تلك من فئات المسلمين، بل بالدين الإسلامي نفسه الذي يجتمع على عموماته كل المسلمين. وهم يسمون حربهم هذه بالحرب الفكرية. فصدنا لها يجب أن يعتمد أولاً على سلاحنا الفكري، وهو بحمد الله تعالى سلاح ماض. فسعينا ينبغي أن يكون في المقام الاول إقناعاً لتلك الفئات بحمل هذا السلاح دفاعاً عن نفسها، وهزيمة لأعدائها ونصرة لدينها.

ونحن لا نتكلم عن هذا الخطر استناداً إلى شيء اسمه بروتوكولات حكماء صهيون التي لا يدرى من مؤلفها، ولا نتكلم تمشياً مع ما يسمى بنظرية المؤامرة التي ترى وراء كل حدث تآمراً، وإنما نتكلم عنه استناداً إلى وثائق جديدة ورسمية. آخر هذه الوثائق مشروع اسمه Muslim World Outreach كتبت عنه مجلة أمريكية

أسبوعية مشهورة. قال كاتبه إنه سمع بهذا المشروع السري وظل لمدة أربعة أشهر يبحث عن معلومات عنه ضمنها في مقاله[1].

مما ذكره الكاتب في هذا المقال:

- في جبهة خفية أمريكا تصرف ملايين الدولارات لتغيير وجه الإسلام نفسه.
- هذه حرب فريدة؛ إنها أول تجربة في "الاتصالات الاستراتيجية".
- اجتمع لتأليفها أهم قادة أمريكا لكسب الحرب الفكرية ضد الإرهاب، اجتمعوا في جامعة الدفاع الوطني في واشنطن العاصمة. كان هنالك مديرو الأزمات من البيت الأبيض، ودبلوماسيون من وزارة الخارجية، ومختصون من البنتاجون في العمليات السايكلوجية.
- قال Marc Ginsberg وهو سفير سابق في الجزائر: كنا في المعركة الفكرية قد نزعنا السلاح من جانب واحد لكن الأمر لم يعد كذلك. فأمريكا الآن ترد.
- إن الولايات المتحدة في معركة سياسية لا مثيل لها منذ القمة التي وصلت إليها الحرب الباردة.
- يشترك فيها رجال من العمليات الحربية السايكلوجية إلى رجال العمليات السرية في السي آي إي، إلى وسائل إعلام ومراكز بحوث تمول علناً.
- إن واشنطن تصخ الملايين من الدولارات في معركة للتأثير لا على المجتمعات الإسلامية فحسب، بل على الإسلام نفسه.
- وافقت الولايات المتحدة على استراتيجية سرية جديدة تقرر لأول مرة أن

(1) Hearts, Minds, and Dollars by David E Kaplan
http://www.usnews.com/usnews/news/articles/050425/25roots.htm
25 April 2005.

للولايات المتحدة مصلحة أمنية في أن تؤثر فيما يجري داخل الإسلام.

- تعمل الولايات المتحدة (لتنفيذ مخططها) عن طريق أطراف ثالثة: الأمم الإسلامية المعتدلة، المؤسسات، والجماعات الإصلاحية[1] لتنشر قيماً مشتركة: الديمقراطية، وحقوق المرأة والتسامح.
- في اثنتي عشرة دولة على الأقل مولت الولايات المتحدة برامج إذاعية وتلفازية، ومقررات إسلامية في المدارس، ومراكز بحوث إسلامية، تدعو إلى الإسلام المعتدل.
- تستهدف السي آي إي وسائل إعلام إسلامية، وقادة دينيين وأحزاباً سياسية، ومدت لهذا الغرض بزيادات ضخمة من المال والرجال لتساعدها على التأثير في المجتمعات الإسلامية.

من تكتيكاتها:

- التعاون مع المتشددين المختلفين مع القاعدة.
- شن خطط هجومية الغرض منها الإساءة إلى سمعة أسوأ معارضي أمريكا.
- إنشاء مواقع جهادية كاذبة.
- تمول في أندونيسيا ثلاثين منظمة إسلامية من برامجها: منتجات إعلامية، ودورات لتدريب الخطباء، ومناهج للمدارس والجامعات، وأحاديث إذاعية عن الإسلام والتسامح تبث من محطات إذاعية في أربعين مدينة، وينشر منها عمود في مئة صحيفة.
- إنشاء مراكز بحوث للتدليل على التوافق بين الإسلام والدمقراطية وحقوق الإنسان.

---

(١) يعنون بها الجماعات التي تسعى لتحريف الإسلام كي يتوافق مع القيم الغربية.

هذا ما جاء عن هذه الاستراتيجية الرسمية. لكن هذه الاستراتيجية تشبه إلى حد كبير استراتيجيات اقترحتها ونشرتها مراكز بحوث معروفة بصلتها بالحكومات، أهمها مركز راند Rand الذي كان قد أصدر دراسة بعنوان: الإسلام المدني الدمقراطي(1). وتشبه آراء صرح بها كتاب من أمثال هنتجتون معروفون بصلتهم بمتخذي القرار ونيلهم لثقتهم واحترامهم. فمما قاله هذا الرجل في كتابه الشهير صدام الحضارات:

المشكلة الأساسية بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية وإنما هي الإسلام: حضارة مختلفة أهلها موقنون بسمو ثقافتهم ومهمومون... والمشكلة الأساسية بالنسبة للمسلمين ليست هي السي آي إي، أو وزارة الدفاع. إنها الغرب: حضارة مختلفة أهلها موقنون بعالمية ثقافتهم، ويعتقدون أن قوتهم المتفوقة - وإن كانت في اضمحلال - تفرض عليهم واجب نشر هذه الثقافة في العالم. هذه هي العناصر الأساسية التي تشعل الصراع بين الإسلام والغرب(2).

لم يعد تآمر الدول الغربية على الإسلام أمراً خافياً إذن رغم التصريحات الكثيرة عن احترامهم للإسلام ووصفه بأنه دين السلام، ورغم كلامهم الكثير عن حرية الاعتقاد وعن حياد نظامهم العلماني.

كيف نجتمع ونتوحد لصد هذا العدوان وللمضي في نصرة ديننا بالدعوة إليه والدفاع عنه؟

إن مسؤولية الفئات المذكورة مسؤولية مشتركة، يصعب أن تقول إن حدود إحداها تنتهي هنا لتبدأ حدود الأخرى، لكننا سنحاول مع ذلك أن نذكر ما نراه يقع بالدرجة الأولى على هذه الفئة أو تلك.

---

(1) Cheryl Benard, Civil Democratic Islam: Partners, Resources and Strategies.

(2) Samuel Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of the World, Simon & Schuster, New York, 1996, pp. 217-8.

مسؤلية العلماء:

بما أن أقوال الناس وأعمالهم الظاهرة حسنة كانت أو سيئة إنما هي تعبير عن أحوال باطنة.

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٨].

وبما أن وحدة المسلمين إنما هي في المقام الأول وحدة قلوب: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وبما أن ما في قلوب الناس إنما هو علم أو جهل وتصور صحيح أو باطل.

وبما أن الغربيين يسمون حربهم هذه بالحرب الفكرية الموجهة إلى قلوب المسلمين وعقولهم؛ فإن العبء الأكبر في تحقيق الوحدة يقع على عاتق العلماء ومن يعينهم من أولي الرأي والخبراء.

علماء الأمة هم الذين يذكرون الأمة بأن كتاب ربهم قد بين لهم أن تآمر الأعداء عليهم أمر لازم لاستمساكهم بدينهم ودعوتهم إليه، فلا غرابة في حدوثه في أي زمان أو مكان.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

ولكن إذا كانت أهداف التآمر قديمة معروفة؛ فإن وسائله متجددة تحتاج إلى رصد ومتابعة، وإعداد الوسائل المضادة المكافئة لها، والقادرة لذلك على درئها وإفشالها. والعلماء ومعاونوهم من أولي الرأي والخبراء هم أقدر الناس على ذلك. قال تعالى:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

كلمة الاستنباط الواردة في الآية الكريمة كلمة مهمة. فهم لا يعرفون الوقائع فقط فهذه قد يعرفها كثير من الناس ومنهم الذين وصفتهم الآية بإذاعتها. لكن المستنبطين يعرفون مصادر الأخبار ومراميها ويعرفون لذلك كيف يدرأ خطرها. قال الشيخ السعدي تعليقاً على قوله تعالى: (﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة)[1].

إن أسلحة الغرب الفكرية تتمثل الآن أكثر ما تتمثل في الدعوة إلى الدمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والتسامح. وهذه الفئة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن منازلة الغرب في هذا الميدان.

إنهم هم المسؤولون عن الإجابة عن الأسئلة التي تثيرها هذه القضايا، وهم المسؤولون عن حماية الأمة من أن تتأثر بشبهاتها، أو أن تتفرق بسببها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار المنار، القاهرة.

قد يتساءل الناس : ما الدمقراطية التي تريدها لنا الولايات المتحدة؟ وما مدى توافقها مع الإسلام؟ وما مصلحة الولايات المتحدة في نشرها؟ ولماذا تريد لنا الحرية؟ ولماذا تكثر من الكلام عن حقوق الإنسان وحقوق المرأة؟ إننا نعلم أنها لا تقول هذا لكونها تراه حقاً وخيراً؛ لأننا نعلم أن أهم دافع يدفعها وأهم سبب تسوغ به سياستها هو ما تراه مصلحة وطنية لبلادها . فما المصلحة الوطنية للبلاد الأمريكية في تبني البلاد العربية للنظم الدمقراطية؟

وماذا يعنون بحقوق المرأة؟ بل ماذا يعنون بحقوق الإنسان؟ إن الغرب ينطلق في كل هذا ـ كما يعترف المنصفون من أبنائه ـ من ثقافته وقيمه ، لكن ساسته يريدون إيهام الناس بأن ما يرونه ليس أمراً خاصاً بهم وإنما هو قضايا إنسانية عالمية كما قال هنتجتون فيما نقلنا عنه . فماذا نقول نحن؟ الإجابة عن هذه الأسئلة هي مسؤولية هذه الفئة ، والإجابة الرشيدة عنها هي من أعظم وسائل جمع المسلمين ووحدتهم .

لكي تؤدي هذه الفئة مهمتها على الوجه الأكمل لا بد أن تكون هنالك صلة قوية وتعاون بينها وبين مراكز اتخاذ القرار . إنهم بحاجة إلى مراكز بحوث توفر لهم المعلومات ، وتمكنهم من الاتصال بغيرهم من رجال الفكر في العالم الغربي ، وتعمل على نشر ما يتوصلون إليه من فكر نظري ومقترحات عملية . وهم بحاجة إلى المؤسسات الإسلامية الرسمية ذات المقدرة على جمعهم في مؤتمرات وندوات وجلسات استشارية . وهم بحاجة إلى عون من رجال الإعلام الذين يتولون نشر فكرهم بطرق عصرية جذابة سواء كان ذلك في شكل كتب أو مقالات أو برامج إذاعية أو تلفازية .

مسؤولية الحكومات:

الحكومات هي القادرة على ترجمة أسباب الوحدة إلى مشاريع عملية تقوم بتنفيذها . وعليه فيدخل في مسؤوليتها :

١ - اتخاذ السياسات التي تساعد على جمع الأمة. وهذا أمر بدهي لأن الحكومة هي الممثلة للأمة فيجب أن تكون سياساتها تعبيراً عن دين هذه الأمة والتزاماً به بقدر المستطاع. لكن الواقع أن كثيراً من حكومات العالم الإسلامي عزلت نفسها عن جماهيرها بالتزامها بأفكار مخالفة للإسلام ظنت أنه لا يمكن لدولة حديثة أن تقوم إلا بها. فجعلت من نفسها باختيارها حكومة أقلية. وهذا من أكبر أسباب بذر عوامل الاختلاف بين الناس حتى في البلد الواحد، ودعك عن الأمة بأسرها، بل هو من أعظم أسباب ضعف الحكومات الذي لا يزيد الأمة إلا تفرقاً.

وقد كان لهذه العزلة سبب آخر هو اعتماد بعض حكوماتنا على التأييد الغربي ولا سيما الأمريكي. ومن المعروف أن هؤلاء لا يؤيدون نظاماً إلا إذا اشترطوا تحقيقه لبعض مصالحهم القومية أو القيمية. كانت أمريكا إلى وقت قريب ترى أنه من مصلحتها أن تؤيد الحكومات غير الدمقراطية لتجعل منها وسائل لمحاربة خصومها من الجماعات الإسلامية. وكانت بعض هذه الحكومات هي الأخرى تستغل هذا الضعف الأمريكي لتسكتها كلما طالبت بما تسميه بالإصلاحات الدمقراطية. أما الآن فإن أمريكا تقول إن عدم الحريات في العالم العربي كان من أسباب وجود الجماعات المتطرفة التي تهدد مصالحها. فهي الآن تريد من الحكومات أن تكون دمقراطية، وتهددها بأنها إن لم تفعل ذلك فستسلط عليها تلك الجماعات المتطرفة بأن تعلن عدم اعتراضها على مجيئها للسلطة إذا ما اختارها الشعب بطريقة دمقراطية!

٢ - والحكومات هي القادرة على تنفيذ السياسات التربوية والإعلامية التي تساعد على وحدة الأمة وعزتها. لكن أعداء الأمة كما رأينا يريدون لهذه السياسات أن تكون خادمة لمصالحهم ومعبرة عن قيمهم.

٣ - وبما أن ضعفنا الاقتصادي والعسكري هو الذي يلجئ كثيراً من حكوماتنا إلى

السمع والطاعة للغرب، وبما أن هذا الالتجاء كثيراً ما يحدث بطريقة فردية - كل دولة تحاول أن تكون هي موضع الثقة عند من تحتاج إلى سنده - فإن هذا مما يزيد من الخلاف والشقاق بين الدول الإسلامية.

٤ - إذا كان سبب هذا الاعتماد على الغرب وما ينتج عنه من مسخ للأمة واختلاف بينها؛ فإن علاجه الحاسم إنما هو بالأخذ بأسباب القوة المادية اللازمة في عصرنا: العلوم الطبيعية والتقنية. وقد أخذت كل من دولنا بحمد الله تعالى حظها من هذه الأسباب، وإن كان بعضها أكثر تقدماً فيها. ماذا لو رسم خبراؤنا مشاريع مشتركة في هذا المجال؟ ماذا لو كانت لنا جامعات علمية عربية يؤمها الطلاب النابغون من كل أنحاء العالم العربي؟ ماذا لو كانت لنا مجلات علمية يكتب فيها المختصون من كل بلادنا ويقرؤها الناس في كل أقطارنا؟ لماذا لا نهتم بتبسيط العلوم وجعلها أمراً ميسراً لعامة المثقفين كما تفعل الدول الغربية بل كما تفعل الهند؟

إن الضعف المادي يكون سبباً في شعور الأمة بالنقص، بل كثيراً ما يستغله الأعداء للتدليل على صحة معتقداتهم وتفوقها:

﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ [مريم: ٧٣ - ٧٤].

مسؤولية المنظمات الإسلامية الرسمية:

هذه المنظمات الرسمية هي التي تقوم بمهمة الوسيط بين الحكومات من ناحية وبين العلماء والمنظمات الشعبية من ناحية أخرى. فهي التي تتابع نشاط أولئك وتعمل على جمعهم وتوثيق الروابط بينهم. وهي بما لديها من إمكانيات قد لا تتوفر لأولئك الذين تدعوهم لمؤتمرات وندوات عالمية أو على مستوى بعض الأقطار. وهي التي تنظر في آرائهم ومقترحاتهم لتحول ما يمكن تحوله منها إلى مشاريع عملية تتولى الحكومات تنفيذها.

مسؤولية المنظمات الإسلامية الشعبية:

المنظمات الإسلامية الشعبية كثيرة وذات أهداف مختلفة، فمنها ما هو أقرب إلى العمل السياسي كالأحزاب الإسلامية، ومنها ما هو أبعد شيء عنه، لكنها كلها قابلة لأن تكون سبباً من أسباب الوحدة بين المسلمين أو سبباً من أسباب تفرقهم واختلافهم.

إن الخلاف نفسه شر، لكن شره يزداد حين يؤدي إلى عدم نصرة المسلمين بعضهم لبعض، ويتعاظم أكثر حين يؤدي ببعضهم إلى نصرة بعضهم للعدو الكافر على المسلم. هذا الأخير في رأيي هو أعظم أسباب ضعف المسلمين وأعظم الأسباب التي تساعد العدو على تنفيذ كيده بهم. ولو أن الفئات التي تسارع إلى الانضمام إلى صفوف العدو تدبرت الأمر لوجدت أنه ليس من مصلحتها، بل لوجدت أنه يساعد العدو على ضربها هي في النهاية.

يعلم العدو مثلاً أن كثيراً من الجماعات الإسلامية على خلاف كبير مع من يسمونهم بالوهابية، فيقول لهم إنه أيضاً عدو للوهابية فتعالوا نتعاون على حربها. فيقولون: ولم لا؟ لكنهم لا يدركون أن حربه للوهابية ليست نهاية المطاف بل نهاية المطاف عند هذا النوع من الأعداء هو أن يتحول المسلمون عن الإسلام إلى دياناتهم هم. ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وإنما يريد أن يبدأ بهم لأنهم يمثلون في رأيه خط الدفاع الأول عن الدين الإسلامي الذي هو هدفه. ولا يدركون أن اختلافه مع الوهابية ليس كخلافهم هم معها، بل إنه ليعاديهم بسبب مشترك بينهم وبين الوهابية. فإذا كانوا هم يعادون الوهابية لأنهم صوفية مثلاً، أو لأنهم أشعرية، أو لأنهم يخالفونها في مسائل عقدية مثل الدعاء والاستغاثة والذبح؛ فإنه لا يحاربهم من أجل هذا، وإنما يحاربهم لأنه يراهم

متشددين في اعتقادهم بأن القرآن كلام الله حقاً، وأن كل ما قاله الرسول فهو حق أيضاً، وأنهم لا يقرون أي تحريف أو تبديل لدين الله، وأنهم يعادون أعداء الله. لكن هذه كلها قضايا يشترك في القول بعموماتها كل المنتسبين إلى الإسلام. فمحاربة الوهابية أو غيرها من الجماعات التي يراها الغرب متشددة في الاستمساك بها هي بداية حرب لسائر المسلمين، وإنه إنما يريد أن يتخذ خصومهم آلات في هذه الحرب، فإذا ما فرغ منهم أقبل على هؤلاء الذين اتخدوه ولياً لهم.

وكما يستغل الخلاف العقدي فإنه يستغل الخلاف في صورته السياسية. حدث هذا في أفغانستان حيث تصور خصوم طالبان أن أمريكا إنما جاءت لتخلصهم من عدوهم الذي اغتصب الحكم منهم فتعيده إليهم. لذلك وقفوا معها وساندوها حتى قضت على حكومة طالبان ثم ركلتهم. وحدث مثل هذا في العراق أيضاً.

إن الخلاف السياسي بين بعض الجماعات وحكوماتها، وبعض المفكرين وحكوماتهم قد يجعل بعضهم يلجأ إلى ما أسميه بالمعارضة الجاهلية، وأعني بها المعارضة التي تركز على تتبع أخطاء الحاكم وزلاته وقصوره وأنواع فشله، فتذيعها وتفرح بها. أما حسناته وإنجازاته فتغض الطرف عنها وترى أن الثناء عليه بها نوع من النفاق. هذه معارضة جاهلية، أما المعارضة العادلة فهي التي لا توافق على الخطأ لكنها تسعى لإصلاحه، ولا تتردد في تأييد الصواب بل تعين عليه. وفي هذا الموقف العادل يقول الإمام ابن القيم تعليقاً على صلح الحديبية:

... ومنها أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وإن منعوا غيره. فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك. فكل من التمس المعونة على محبوب لله مرض له، أجيب

إلى ذلك كائناً من كان، ما لم يترتب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوض لله أعظم منه. وهذا من أدق المواضع وأصعبها، وأشقها على النفوس[١].

ماذا لو أن هذه الجماعات والحكومات قالت إن الشر الناتج عن الخلاف بيننا هو مهما كان أقل من الشر الناتج عن تسلط العدو علينا. فلماذا لا نتصالح على وضع يسد هذه الثغرة التي يدخل منها العدو. لماذا لا نتصالح على نظام سياسي يتناسب مع واقعنا وظروفنا فلا يكون استبدادياً كما كان عدونا يريده، ولا يكون ديمقراطياً بالواصفات التي يريدها الآن، نظام تلتزم فيه الجماعات الإسلامية السياسية بانتهاج الوسائل السلمية، وتلتزم فيه الحكومات بعدم التعرض لها إذا ما هي سلكت هذا السبيل. لماذا لا تدرك الحكومات أن سندها الحقيقي بعد الله تعالى إنما هو السند الذي تجده من شعبها فتحاول أن لا تعادي فريقاً منهم معاداة تلجئه إلى وسائل العنف. ولماذا لا تقول الجماعات لنفسها إننا لن نسمح للخلاف بيننا وبين حكوماتنا أن يكون باباً يدخل منه العدو إلى بلادنا. نعم إننا لسنا راضين عن سياسات حكوماتنا، ونريد لها أن تكون أكثر التزاماً بالإسلام، لكن منازلتها لن تؤدي إلى هذه النتيجة كما أثبتت تجربة بعض الجماعات في مصر فكفوا عن الصراع مع حكومتهم وقالوا في تسويغ ذلك إنه لم يؤد إلا إلى قتل المسلمين من الطرفين.

هنالك جماعات لا يمكن التصالح معها، وأعني بهم أولئك الذين يسميهم العدو بالإصلاحيين الذين هم في الحقيقة حزبه وممثلوه في داخل الوطن الإسلامي. فهم معه في معتقداته وسائر قيمه، ومعه في عاداته وتقاليده، وهم المؤيدون لكل سياساته العدوانية تأييداً يفوق أحياناً تأييد أهل تلك البلاد لها. هؤلاء هم الذين يريد لهم العدو أن يكونوا في مراكز الصدارة في البلاد الإسلامية، في مراكز الصدارة السياسية

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ج ٣، الطبعة ١٥، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الرسالة، ص٣٠٣.

والإعلامية والتربوية والاقتصادية كي يساعدوه على تغيير وجه الإسلام.

هؤلاء المارقون قلة لا جذور لها في الشعوب الإسلامية، لكنها هي الفئة التي يريد العدو فرضها على الحكومات في البلاد الإسلامية. وبما أنها تخدم مصالحه فإنها تعمل ضد مصالح تلك الحكومات وتزيد من بعدها عن شعوبها وهو بعد يستفيد منه العدو؛ لأنه حين يوهن من العلاقة بين الحكومات وشعوبها يزيد من اعتمادها عليه. فهؤلاء المارقون يجب أن يعاملوا معاملة العدو وإن كانوا من أبناء جلدتنا ويتكلمون بلساننا وينتسب بعضهم إلى ديننا. إنهم بمروقهم عن هوية الأمة وانتمائهم إلى أعدائها لا تزداد الأمة بالتصالح معهم إلا وهناً: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧].

مسؤولية الإعلام:

بما أن الحرب حرب فكرية فإن الإعلام من أهم وسائلها. ولذلك فإن الولايات المتحدة أنشأت للتأثير في العالم العربي قنوات ومحطات إذاعة، ومواقع شبكية، ومجلات تمول تمويلاً رسمياً. هذا إلى جانب من يشترونه من رجال الإعلام ومؤسساته في بلادنا.

فإذا كانت فئة العلماء والخبراء هي المسؤولة عن إنتاج الفكر الوحدوي؛ فإن رجال الإعلام (ونساءه) هم المسؤولون عن إيصال هذا الفكر إلى الناس بوسائلهم المتعددة وطرقهم الجذابة. كما أنهم هم المسؤولون عن نقل مشاعر الناس ومشكلاتهم إلى العلماء والخبراء الذين قد يميلون إلى شيء من عدم المخالطة للجماهير.

بيد أن اتخاذ الإعلام وسيلة إلى وحدة الأمة وعزتها ينبغي أن لا يترك لاختيار الأفراد أو الشركات؛ فقد رأينا أن بعضها يمكن أن يشترى ويكون معبراً بلسان عربي عن فكر كله غربي، وبوقاً للدعاية إلى طرق الحياة الغربية، ومدافعاً عن المواقف والمصالح الغربية دفاعاً قد يستحيي المتعصبون من الغربيين عن التفوه بمثله.

لا بد إذن من وضع مواثيق بين الإعلاميين، لا بد من أن يتوحدوا هم في العمل لوحدة الأمة. بل لا بد من أن تتفق الحكومات على حقوق إعلامية للفرد المسلم تمنع من نشر الرذيلة والدعاية لها.

خاتمة:

إننا لا نتحدث بحمد الله تعالى من فراغ، بل إن كثيراً مما ذكرنا هو أمر واقع أو فكر شائع، وكلامنا هذا إنما هو نصرة له وتأييد؛ لأن مثل هذه القضايا لا يكفي لتحقيقها أن تكون مجرد أوراق تقرأ أو لا تقرأ في مؤتمرات وندوات أكادمية، بل يجب لكي تكون فكراً شائعاً ومؤثراً أن يتصرف القول فيها ويكثر الداعون إليها كل بوسيلته وطريقته عسى أن يحقق الله الأمل ويجيب الدعاء. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

حوار حول صراع الحضارات مع مجلة الفيصل(*)

لم يعد في مستطاع الإنسان أن يعيش بمعزل عما يجري في هذا العالم، وأصبح حوار الحضارات مطلباً ينادي به كثير من المفكرين، بينما يرى بعضهم أن الحضارات في اتجاه حتمي نحو التصادم.

وقد شغلت إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب المفكرين من المسلمين والغربيين وأصبحت مجالاً خصباً للدراسات المتعمقة والمقالات والتحليلات، في هذا الحوار يفصح د. جعفر شيخ إدريس عن بعض آرائه حول هذه الإشكالية من واقع انتمائه إلى العالم العربي الإسلامي، ومعرفته بمجتمع الغرب، وما يعج به من آراء وأفكار.

الفيصل: من يقرأ بعض مقالاتك يظن أنكم تحمّلون الغرب تبعة سوء التفاهم مع الإسلام إلى أي مدى يصدق هذا الظن؟

أعتقد أن هذا استنتاج من المحاضرة التي ألقيتها في الجنادرية في العام ١٤١٦هـ بعنوان موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى وقد نشرتها بعض الصحف،

(*) مجلة الفيصل، العدد ٢٥٧ صفحة ٥١-٥٣.

وكان في ذهني وأنا أعد هذه المحاضرة الرد على مقالة كاتب أمريكي مشهور، هو صمويل هنتيجتون، وعنوانها "صدام الحضارات"، وقد لاقت شهرة واسعة، وترجمت إلى كثير من اللغات، وهذه المقالة عندما قرأتها وتأملتها وجدت أن الأمثلة التي أتى بها الكاتب هي أمثلة لهجوم الغرب على الحضارات الأخرى، والصدام في ظني - كمثل صدام السيارت - لا يعني أن يحدث بين سيارتين تسير كل واحدة منهما في الاتجاه المعاكس للأخرى، وإنما من الممكن أن تأتي سيارة مسرعة لتصدم أخرى واقفة، وهذا ما عناه الكاتب الأمريكي الذي كان صريحاً حين أوضح استغلال الغرب للمؤسسات العالمية لتحقيق مآربه، فهو يقول: "إن القرارت التي تتخذها الأمم التحدة ومجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب تبرز للعالم على أنها المعبرة عن مصالح المجتمع، بل إن عبارة (المجتمع الدولي) التي حلت محل عبارة العالم الحر، صارت هي نفسها الاسم الملطف الذي يمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الغربية".

فالغرب لا يخفى أنه مسيطر، وأنه يريد استمرار هذه السيطرة وهو لا يريد للدول الأخرى أن تتقدم لأنه يرى في تقدمها خطراً عليه، وهذا ما يتضح في التعامل الحذر مع أي دولة إسلامية تسعى لامتلاك الأسلحة النووية في حين أن دول الغرب، بالإضافة إلى إسرائيل، تمتلك ترسانة ضخمة من هذه الأسلحة، فالغرب لا يريد للدول الإسلامية أو غيرها من دول العالم كاليابان والصين وروسيا أن تتطور، وتكون في موقف يهدد مصالحه.

الفيصل: ما رأيك فيمن يقول: إن تحكم "نظرية المؤامرة" في تفكير المسلمين من أسباب نشوء سوء التفاهم؟

هناك جماعة من المسلمين تقول بهذه النظرية، ولكن ليس في يد هؤلاء أي سلطة تتيح لهم الحركة في اتجاه مواجهة الغرب، أما الغرب فهو الذي له القدرة على تنفيذ ما

يراه من سياسات ومخططات، بما يمتلك من آليات التنفيذ. وهذا المفهوم سبق لي أن كتبت عنه، وفيه كثير من الوهم، إذ لا يمكن أن تتخيل أن الغربيين يحركون الأشياء والأشخاص كقطع الشطرنج، وأنهم يعرفون كل كبيرة وصغيرة في هذا العالم، وأن كل شيء يستطيعون تسييره بأمرهم، وأن تخطيطهم يتحقق وفق ما يريدون، فهذه أمور تدخل في علم الله؛ لأنه ليس لأي إنسان مهما كانت قدراته أن يكون له علم كاف، يضمن له نجاح كل مخططاته وسياساته. فنحن نعيش في الغرب، ونعرف أنهم كغيرهم من الناس في أي مكان من العالم يختلفون وتتضارب آراؤهم وتخيب توقعاتهم وتتغير سياساتهم حسب تقديراتهم للمواقف المختلفة، وهي تقديرات قد تكون صائبة، ويمكن أن تكون خاطئة.

الفيصل: من واقع استقرائك لمجريات الأحداث ... كيف ستكون طبيعة العلاقة المستقبلية بين الإسلام والغرب، هل هي علاقة صدام أم حوار؟

شكل هذه العلاقة يحدده الناس، ونظرتهم إلى مصالحهم، والوسائل التي تتحقق بها هذه المصالح. فالكاتب الأمريكي هنتيجتون في تحليله ينطلق من كونه عالم اجتماع يرصد الواقع ويفسره، فانتهى من تحليله إلى أن الصدام القادم سيكون بين الحضارة الغربية من جهة والحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية من جهة أخرى، ويعتمد في تحليله على أن الدول الإسلامية بدأت تتعاون مع الصين واليابان وأنهما ستمدان هذه الدول بالأسلحة.

وإذا افترضنا صحة هذا التحليل؛ فإن السبب في ذلك يكون الغرب؛ لأنه لا يريد للدول الإسلامية أن تتطور أو أن تمتلك ما تدافع به عن نفسها.

وإذا كان هنتيجتون يرى الدين مكوناً من أهم مكونات الحضارة؛ فإن ذلك يعني أن المسافة أقرب بين الغرب والإسلام، من تلك المسافة التي بين الإسلام

والكنفوشيوسية؛ لأن النصارى واليهود نسميهم نحن المسلمين أهل الكتاب، ولهم منزلة خاصة في الدين الإسلامي.

وإذن فإن السبب الحقيقي للتعاون القائم بين المسلمين وأصحاب الحضارة الكنفوشيوسية ليس نابعاً من طبيعة الحضارتين، بل من معاملة الحضارة الغربية لهما.

وأنا أستبعد الصدام وبخاصة الصادام المسلح؛ لأن من المعروف أن الأسلحة التي تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تكفي لتدمير العالم كله مرات عدة، فكيف إذا أضيف إليها ما لدى الدول الغربية الأخرى، والصين وروسيا، وغيرها، فليس هناك من أحد سيستفيد في حالة حدوث صدام شامل، وأعتقد أن الغربيين حريصون كغيرهم على الحياة، ولن يكون أي صدام في صالحهم، ولكن هذا لا ينفي أنه سيكون هناك صدامات وحروب محلية، كما هي الحال اليوم.

الفيصل: ألا ترى أن اهتمامنا يتزايد بالغرب، في حين لا نهتم بأصحاب الحضارات الأخرى؟

نحن مهتمون به، وهناك ظاهرة عجيبة في الغرب، فما إن تقرأ ما يكتبه مفكروه الكبار، إلا وتظن أن الغرب في خطر داهم وقريب، ولذلك فهم يتكلمون كثيراً عن العالم الإسلامي، ويعرفونه معرفة جيدة أكثر من معرفتنا نحن بالغرب، بل أحسن مما يعرف كثير منا مجتمعنا، أما اهتمامنا بالغرب فأمر طبيعي؛ لأن حضارته هي المسيطرة عسكرياً وإعلامياً ومادياً، ومصالح كل هذا العالم مرتبطة به، حتى أصحاب الحضارات الأخرى الذين تعنيهم يهتمون بالغرب أكثر من اهتمامهم بنا.

ومع ذلك فإن للعالم الإسلامي علاقات واسعة مع الصين واليابان والهند، ولا توجد مشكلة بيننا وبينهم، أما الغرب فينبغي أن نتعرف إلى حضارته، لأنها التي تسيطر على هذا العالم كله.

الفيصل: انْهيار الحضارة الغربية محل مراهنة من بعض المسلمين فمن المستفيد إذا حدث ذلك؟

"انهيار الحضارة الغربية إذا حدث سيكون بسبب الانحلال الأخلاقي، فانهيار الاتحاد السوفيتي السابق، ربما يقال إنه لعامل اقتصادي، أما انهيار الغرب - إذا حدث - فسيكون لأسباب خُلقية. فأنا أرى أن قضية المخدرات من أخطر القضايا التي تهدد الغرب، وأذكر أنَّ واحداً ممن هداهم الله إلى الإسلام قال لي: إنه عندما تخرج قبل ثلاث سنوات أو أربع كانت نسبة الذين يتعاطون المخدرات بصفة دائمة تصل إلى ٤٠٪، إضافة إلى أن الطلاب جميعهم يمكن أن يكون قد تعاطوها مرة واحدة على الأقل، أما الآن، فإن الذين لا يتعاطون المخدرات أصبحوا يمثلون الأقلية. وهناك مشكلة التفكك الأسري أيضاً من مهددات الحضارة الغربية، فإذا فسد الفرد بالمخدرات وانحلت الأسرة، ماذا بقي في المجتمع؟

ولكن لماذا تقول انهيار، ولا نقول: إن الله يمكن أن يهديهم إن شاء الله إلى الإسلام أو على الأقل أن يتأثروا بالقيم الإسلامية التي بدؤوا يعرفونها، وعلينا أن نرجو لهم الهداية؛ لأنهم إذا اهتدوا حافظوا على كل هذه الإنجازات المادية التي حققها الإنسان في هذا العصر.

ومن الخطأ الظن أن انهيار الحضارة الغربية يعني آلياً سيطرة المسلمين؛ لأن من الممكن أن تؤول السيطرة إلى حضارة أخرى مثل الحضارة اليابانية أو الصينية، وقد تكون الحضارة البديلة أسوأ من الحضارة الغربية، إذ ليس من الإنصاف أن ننكر أن هناك قيماً إنسانية تلتزمها الحضارة الغربية على الرغم من كل علاتها، وسواء بقيت الحضارة الغربية أو انهارت فإن مشكلاتنا ستظل قائمة؛ لأنها نابعة من داخلنا، وليس الغربيون هم الذين يمنعونا من أن نجعل أمتنا أمة شامخة، فالمسلمون منقسمون بين من

يريدون بناء الحياة على أساس الإسلام ومن يريدون تبني العلمانية الغربية، وأحمّل أصحاب الفكر العلماني مسؤولية ما نحن عليه من ضعف لما أحدثوه من انشقاق في داخل العالم الإسلامي.

الفيصل: في مقابل تناولكم لبعض الأخلاقيات المهددة للحضارة الغربية، هناك من يرى أن العالم الإسلامي ليس بمنأى عن بعض الاضطراب في الجانب القيمي؟

نعم يوجد اضطراب في منظومة القيم في العالم الإسلامي، ولكنه ليس في حدة التدهور الأخلاقي في الغرب. فهناك حوادث في الغرب تقشعر لها الأبدان كالاعتداءات الجنسية على المحارم والأطفال، وجرائم القتل التي أصبحت وجبة يومية، ولم يعد مستغرباً أن يُقتل الإنسان من غير جناية ارتكبها إلا أن هناك إنساناً مخدراً يحمل معه سلاحاً يريد استخدامه، أما في عالمنا الإسلامي فلا تزال الأسرة على تكاتفها وتماسكها مهما بدا لنا أن الأمور ليست على ما يرام.

الفيصل: يكثر تناول الجوانب السلبية في الحضارة الغربية، ماذا عن إيجابيات هذه الحضارة؟

إن هذه الحضارة، كما سبق لي أن ذكرت تنطوي على كثير من الإيجابيات. ولو أن بداية الحضارة الغربية كانت بالمخدرات والتفكك الأسري ما كانت لتتطور أبداً، فهذا التطور المادي يحتاج إلى شيء من الخُلق. فلا ننكر ما للنظام الديمقراطي من مزايا، على الرغم مما فيه من عيوب بسبب ارتباطه بالعلمانية، ولكن أن يحتكم الناس إلى القانون من دون أي فوارق، فهذا يمثل جانباً إيجابياً مهماً، كما أن حرية التعبير ليست مسألة سياسية فحسب، وإنما لها آثارها التربوية، فالطفل في ظل الكبت ينشأ على الخوف، والخوف يدفعه إلى الكذب، ومحاولة تسويغ الأخطاء، وقد لاحظت

أن الشباب الأمريكي الذي يهديه الله إلى الإسلام يبدو أكثر جرأة في التعبير عن آرائه، ولا يعتريه الخوف، مهما كان عدد الذين يتحدث إليهم ولا يعرف أغلبهم الكذب، ومثل هذه الفضائل كانت موجودة في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، وقد رسّخها الإسلام، ولذا لا يمكن أن ننزع من الحضارة الغربية ما تتمتع به من قيم إيجابية كثرت أم قلت.

الفيصل: ما دمنا قد عرجنا على التربية، ألا ترى أن المناهج التربوية لدينا ترسخ بعض القيم السلبية في شخصية الطفل المسلم؟

أنا لست متخصصاً في التربية، وإن كنت قد درَّست في الجامعة من قبل، ولكن أستطيع أن أقول: إن طريقتنا في التربية كثيراً ما تكون على أُسُس غير دينية، كما أنها لا تعتمد تجارب علمية، فمثلاً، القسوة الشديدة مع الطفل يولّد في نفسه الخوف وعدم القدرة على الاستيعاب. ويحضرني مثال حي، حيث ذكر لي أحد الإخوان أنه كان يحفظ القرآن الكريم كاملاً قبل أن ينتهي من المرحلة الابتدائية، ولكن بمجرد أن أنهى دراسته نسي ما حفظه؛ لأن الحفظ ارتبط في ذهنه بالضرب والقسوة.

ولا أدري من أين أتينا بهذه الأساليب في التربية، فهي ليست من ديننا ولا من تاريخنا، فالنبي ﷺ من أخلاقه أنه لم يضرب بيديه الكريمتين طفلاً ولا خادماً ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى، فيروي عن خادمه أنس أنه ﷺ لم يسأله أبداً عن شيء فعله لماذا فعله، ولا عن شيء تركه لماذا تركه.

فالأطفال ينبغي أن نغرس في نفوسهم عدم الخوف، ولا ندفعهم بقهرنا لهم إلى الإصابة بما يعرف بالخجل المرضي، فالقسوة تولد التردد، وعدم الثقة بالنفس، وتدفع إلى الكذب.

الفيصل: عودة إلى موضوع العلاقة بين الإسلام والغرب، ألا ترى أن افتقاد عالمنا الإسلامي إلى أدبيات الخلاف لا تؤهله لإقامة حوار حضاري مع الآخرين؟

هذا صحيح وقد عانيته شخصياً، فما إن تنتقد إنساناً، وتُبدي له وجهة نظر مخالفة لما يراه، حتى يضعك في خانة الأعداء. وقد تدربت في المدارس الثانوية وفي جامعة الخرطوم على أيدي أساتذة غربيين على أنْ أقول الصدق. ولكن حين مارست هذا الصدق في بعض المواقف وجدت أن مردوده سلبي جداً! فقد كتبت مرة عن رجل أحبه كثيراً، هو الأستاذ سيد قطب الذي له فضل كبير عليّ، وانتقدت بعض آرائه وفق ما يقتضيه المقام من أدب واحترام، إلا أني فوجئت بأن هناك من كتب عني، كما لو كنت مارقاً من الإسلام أو عدواً للأستاذ سيد قطب.

ولو أن الأطفال مارسوا النقد الموضوعي في المراحل الدراسية المختلفة، واعتادوا احترام الرأي الآخر؛ فإن هذا سيكون له أثره الإيجابي في تطور الفكر؛ لأنه لا يتطور الفكر الإنساني من دون نقد بنّاء إذ كيف يتاح للناس أن يكتشفوا الخطأ ويعرفوا الصواب، ما لم يعبروا عن آرائهم بكل صدق، فلولا اختلاف الآراء والحوار من أجل اكتشاف الأصلح منها ما تقدم الاقتصاد أو السياسة، أو عرف الناس الصواب في أمور دينهم، أو تطورت العلوم الطبيعة، وهذه العلوم الطبيعية هل كان لها أن تتطور إذا اعتقد كل من جاء بنظرية من النظريات أنها صحيحة مائة في المائة، وأبى أي تعديل عليها، ظاناً أنه أتى بما لم تأت به الأوائل. ولكن ما جعل العلوم تتطور هو وجود النقاش والجدل وتبادل الآراء، وتقبل العلماء لذلك كله بروح طيبة، وهذا ما ينبغي أن يكون في كل ناحية من نواحي الحياة.

الفيصل: في زمن التطور الهائل لتقنيات الاتصال في العالم، وانتشار المحطات الفضائية، ألا ترون أن السُّبل قد أتيحت لإيجاد حوار داخلي بين المسلمين أنفسهم، ثم بين الإسلام والغرب؟

الوسائل تعكس ما لدى مستخدميها من رسائل، فإذا لم تتغير أنماط التفكير فإن مشكلة الانقسام في العالم الإسلامي ستظل قائمة، إذ إن بعض المسلمين - للأسف - ليسوا إلا ببغاوات للغرب، وهذا الغرب المشوه الذي يسكن مجتمعنا لا يمكن أن نتفاهم معه، بينما يمكن أن نتفاهم مع الغرب الأصيل، وفي حالة استمرار حالة عدم التفاهم فإن هذه الوسائل ستكون عاملاً مساعداً في تعميق المشكلة، بينما إذا حَسُنت النوايا فإن هذه الوسائل ستكون من العوامل المساعدة على التفاهم والحوار.

الفيصل: ماذا عن دور المسلمين الذين يعيشون في بلاد الغرب؟

هناك مهمتان رئيستان لهؤلاء المسلمين وهم كُثر، الأولى: أن يُعطوا صورة حسنة عن الإسلام بسلوكهم وأساليبهم الحضارية في الحوار مع الغربيين، والاتصال بهم من خلال الوسائل المختلفة، وإبراز القيم الإسلامية الأصيلة قولاً وفعلاً. والثانية: عليهم أن ينقلوا إلى مجتمعاتهم الإسلامية صورة حقيقية عن الغرب، لا أن يتركوا الناس يعيشون في أوهام، كما لو كان هذا الغرب هو (الواق الواق).

حوار حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي مع مجلة البيان(*)

الدكتور جعفر شيخ إدريس علم من أعلام الفكر الإسلامي ومن رواد الدعوة الإسلامية في هذا العصر وقد زار المنتدى الإسلامي محاضراً في الملتقى الثالث عشر وقد اغتنمت البيان هذه الفرصة لإجراء هذا الحوار:

البيان: نود أن نبدأ الحوار معكم من زاوية الهم الثقافي، فهل أنتم راضون عن المستوى الفكري للعمل الإسلامي بعد مرحلة الستينيات، مرحلة سيد قطب والمودودي؟ وهل هناك من جديد أو من تقدم في هذا المجال أم لا؟

من ناحية كتب الثقافة العامة لا أظن أن هناك كتباً في مستوى هؤلاء الرواد الأوائل، لكن الذي حدث - وهو شيء حسن نحمد الله عليه - نشر كثير من كتب السلف، وانتشرت بين كثير من الشباب، خصوصاً في السعودية - البلد الذي أعرفه - وأعرف أنه حصل شيء مماثل في بعض البلاد العربية الأخرى كمصر، وهذه من الظواهر الجديدة

(*) مجلة البيان، العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣هـ الموافق سبتمبر ١٩٩٢م، والعدد ٥٦ ربيع الآخر ١٤١٣هـ الموافق أكتوبر ١٩٩٢م.

التي لم تكن موجودة سابقاً. هذه الكتب الفكرية لها فوائد، وكتب السلف أيضاً لها فوائد، والشيء الأمثل أن يوجد هذا وهذا.

فنحن لا نريد أن نعيش فقط على كتب التراث، بل نريد أن نستفيد أيضاً من هؤلاء الأئمة ومن مناهجهم، ونواجه مشكلاتنا بمستوى ثقافي وعلمي رفيع نرجو أن يتحقق.

البيان: تعني: لم يتحقق تطور قوي في هذه الفترة؟

أظن هذا والله أعلم.

البيان: لا شك في أنه حصل رجوع إلى الأصالة، فأقبل الشباب على الاستزادة من العلم الشرعي، وهو ما أسهم في تصويب مسيرة العمل الإسلامي إلى حد كبير. ولكننا نلاحظ أن مواجهة المسائل المتعلقة بفقه الواقع لا تزال دون المستوى المطلوب؟

لقد كررت هذا الكلام كثيراً وأقوله الآن. أنا متصل بالحضارة الغربية وأنا عندما أنتقد، أنتقد أيضاً نفسي لأني كنت من الذين يُتوقع منهم شيء في هذا السبيل. وأنا ما زلت أقول لإخواني: ينبغي أن لا نخدع أنفسنا ونظن أن الغرب يعدنا تحدياً فكرياً، أنا لا أظن إلى الآن أن الغرب يعدنا تحدياً فكرياً، ربما بعض المستشرقين الذين درسوا الإسلام وعرفوه قد يعدّونه تحدياً فكرياً، لكن عامة المثقفين الغربيين كانوا يعدون الماركسية تحدياً فكرياً ويناقشونها، وتجد أن بعض الطلاب والأساتذة صاروا ماركسيين، لكن لأن الماركسية أيديولوجية غربية انتقدت الرأسمالية، وانتقدت الحياة الغربية بمستوى فكري كبير. أما نحن فإلى الآن لا توجد لدينا كتب تضاهي كتب الأقدمين في نقد النصرانية أو في نقد الفلسفة، ككتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وغيرهم في مواجهة الفكر غير الإسلامي، حتى كتابات الدعاة الكبار التي ذكرناها لا تكفي، لا يوجد لدينا شيء يمكن أن يقرأه المثقف الغربي ويعده نقداً قوياً فينبهر به ويقول: إن هذا نقد قوي.

البيان: أظن أن هناك نوعاً من التبسيط لقضية فهم الغرب وتحديه، الآن "شعار المسلمون قادمون" رفعته مجلات في أمريكا وكتبت مقالات رئيسية في المجلات اليمينية المعروفة، وأساتذة جامعيون كتبوا أن المسلمين قادمون، والإعلام سواء كان المسموع أو المكتوب اهتم بهذه القضية. وهناك نوع من الأحاديث عن الوحدة الأوربية وأثرها في ضبط منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا في المستقبل، وهناك نوع من الكلام والتحركات السياسية والعسكرية وغيرها للمحافظة على النفوذ في العالم الإسلامي في المرحلة القادمة خوفاً من الإسلام، فهل من المناسب الآن أو هل من الحق أن نقول: إنهم لا يشعرون بالتحدي الفكري، أظن أنهم يشعرون أن الإسلام كمجتمعات تشعر بهويتها، ويمكن أن تتحد سياسياً ويمكن أن تكون قوة مواجهة تمثل تحدياً فهم يضايقهم أن الصين ليست في صفهم فكيف إذا ولد عالم إسلامي؟

إنهم لا يشعرون أنه تحدٍّ فكري، أما كونه تحدياً سياسياً اقتصادياً فطبعاً، يمكن لأي قوة أن تصير تحدياً والذي أقوله أنهم لا يعدوننا تحدياً فكرياً. وصورة الإسلام عندهم ليست هي الصورة الصحيحة، حتى الصحفيون الذين يكتبون عن أحوال العالم الإسلامي وعامة المثقفين وحتى الذين يهتمون بالشرق الأوسط والعالم الإسلامي؛ ليست صورة الإسلام عندهم هي الصورة الصحيحة، والذي يخيفهم ليس هو الإسلام الذي نعرفه. وهذا أمر طبيعي فإذا كانت صورة الإسلام ليست هي الصورة الصحيحة حتى في قلوب معظم المسلمين وعقولهم؛ فكيف نتصور أنها تكون هي الصورة الصحيحة عند الغربيين؟! أنا لا أقول إنهم لا يعدوننا تحدياً أو لا يخافون من الإسلام أو أنهم لا يعدون العدة لمواجهة الإسلام؛ لكن أقول أولاً: هذا الإسلام الذي يخيفهم لا يعدونه تحدياً فكرياً. وثانياً: الصورة التي يخافون منها هي في غالبها ليست الصورة الإسلامية الصحيحة وعندهم خلط عجيب، فلا تراهم يفرقون بين رجل يفهم الإسلام وتطبيقه، وبين صدام حسين مثلاً.

البيان: نحن متفقون على أنه في الوقت الحاضر عندنا تراجع في إنتاج دراسات فكرية، أو في تكملة ما بدأه بعض المفكرين الإسلاميين في العصر الحديث، وعندنا الآن فقر فكري شديد، لا شك في ذلك، ما سبب ذلك؟ هل المواضيع التي تصلح أن تكون مدار بحث ودراسة أم أن هناك أسباباً أخرى طرأت كفقدان الحرية مثلاً؟

أنا أقول: إن جزءاً منها راجع إلى الأفكار؛ فهؤلاء الرواد الأوائل عاشوا في أجواء من الحرية، نحن الآن قد لا نتمتع بها، وتثقفوا وكونوا أنفسهم، وهذا التكوين كان شخصياً فالمودودي، وحسن البنا وسيد قطب.. هؤلاء عاشوا في أجواء ديموقراطية نسبية، وكونوا أنفسهم، وهناك سبب قد لا يرضى عن ذكره المتأثرون بالعقليات الحزبية، وهو أن هؤلاء كونوا أنفسهم خارج التنظيمات، ولكن المؤسف أن حركة هؤلاء الرواد التي تحولت إلى تنظيمات كانت هي من أسباب الركود الفكري؛ لأن كثيراً من الشباب اكتفوا بالحركة اليومية والمواجهات السياسية، وظنوا أن ما كتبه الرواد يكفي، والمهم أن نقوم بشيء عملي! مع الأسف عملهم هو الذي أدى إلى هذا الركود.

البيان: لكن إذا قلنا أن التنظيمات هي من الأسباب؛ هناك من الناس خارج التنظيمات وهم مفكرون وعندهم قدرات لماذا لا يكتبون؟ إذاً العامل الرئيسي هو الجو المخيم، انعدام الحرية وحالة اليأس الفاشية بين المسلمين الآن، يقولون: ما الفائدة من الكتابة؟ الإسلام مهدد في عقر داره.

نعم هذا السبب الأول الذي قلناه، وهو سبب إضافي، والذي قلته عن التنظيمات هو شيء معروف ليس فقط في التنظيمات الإسلامية، بل حتى في التنظيمات الأخرى، أحياناً التنظيم يصور للشخص المنتمي إليه أن مجرد الانتماء إليه عمل عظيم، ويكتفي بهذه الاجتماعات، كان بعض الغربيين قد لاحظوا

تشابهاً بين الحزب الشيوعي والكنيسة الكاثوليكية، قالوا: إن كثيراً من المفكرين ضاقوا بالكنيسة الكاثوليكية لأنها تخنقهم، فخرجوا منها، وأن الحزب الشيوعي قد أخذ كثيراً من مواضعات الكنيسة الكاثوليكية فصار قرار الحزب عندهم جزءاً من الشيوعية، كما أن قرار البابا جزء من الدين، وإلى حد ما لولا أن الإسلام فيه كلام واضح عن أن مصادر الدين هي الكتاب والسنة فإن بعض الأحزاب كادت تجعل قراراتها جزءاً من الدين، وإن لم تقل ذلك صراحة؛ لكنها تهتم بالالتزام بها أكثر من اهتمامها بالالتزام بكثير من نصوص الكتاب والسنة، وتجد كثيراً من الشباب المنتمين إلى التنظيمات يلتزم فعلاً ولا يداخله شك في وجوب الالتزام بقرارات التنظيم، وإن داخله شك في الالتزام في بعض النصوص الشرعية أو أنه يتسامح في بعض الأمور الشرعية أكثر من تسامحه في الأمور التنظيمية، على كل حال غاية ما يقال أنه سبب من الأسباب وليس هو السبب الرئيسي.

البيان: ذكرتم في الحديث عن الغرب وقضية المواجهة أن في الغرب الآن عودة إلى الإيمان بالخالق، كيف هذا، وهل نعد هذه نقلة تساعدنا في دعوتهم للإسلام؟

استقر في أذهان الغربيين في الماضي أن مسألة وجود الخالق هذه مسألة انتهت، عندما كنت طالباً أدرس الفلسفة؛ كان الشيء الشائع بين الفلاسفة أن هذا الموضوع انتهى، لكن الذي فتحه الآن ليس الفلاسفة وليس رجال الدين، بل رجال الفيزياء، الفكرة ببساطة أنه في الماضي كان يقال بحسب النظرية الفيزيائية القديمة أن هذه المادة أزلية لم تخلق ولا تنعدم، فالسؤال من أين جاءت لا يطرأ، وهذه هي التي بني عليها الإلحاد الأوروبي تقريباً ولا سيما الإلحاد الماركسي، النظرية الحديثة التي يسمونها الانفجار الكوني العظيم تقول: إن الكون كله كان في شكل ذرة صغيرة وأن هذه الذرة مسبوقة بالعدم، فصار السؤال: من أين جاءت؟ - سؤالاً مشروعاً - ففتح الباب بهذه الطريقة، لكن مع الأسف من الأشياء التي نحن ملامون عليها أنهم عندما

بدؤوا بمناقشة هذا الكلام لم يجدوا عندهم شيئاً إلا كتابات فلاسفتهم وفيها الكثير من الخلط الفكري، وأنا حاولت في مقال سينشر في شكل رسالة صغيرة أن أجمع حججهم الحديثة التي يدافعون بها عن الإلحاد بالرغم من حدوث المادة، وجئت بكلام العلماء المسلمين كالغزالي وابن تيمية في رد الحجج العقلية الشائعة بين الفلاسفة، تستغرب أن عقل إنسان يقول لهم أن شيئاً يأتي من العدم، القرآن يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، يعني إما أحد هذين أو أن له خالقاً، وكل من هذين مستحيل لذلك جاء ذلك في القرآن بصيغة سؤال استنكاري ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ خلقوا أنفسهم؟! هذا مستحيل، الذي يقوله الآن كبار هؤلاء الفيزيائيين والفلاسفة هو أحد هذين: إما أن يقول المادة خلقت نفسها، أو يقول أنها جاءت من العدم، وقليلون هم الذين يقولون ليس هناك مخرج إلا في وجود خالق، فلو أن الفكر الإسلامي كان متصلاً بهذه المسائل، ولو أن المسلمين شاركوا لربما ساعد ذلك على أن يعود هذا العلم الشارد إلى الله، وقد شجعت بعض الإخوان الذين أعرف أنهم متعمقون بعلم الفيزياء ولهم معرفة حسنة بدينهم أن يكتبوا في هذه القضية التي أصبحت الآن مفتوحة.

البيان: لا يسمحون، فهم لا يعترفون بعالم عربي أو مسلم فيزيائي أحب أن يكتب بحثاً في هذا الموضوع. لا أظن أن هناك دورية أو مجلة تنشر له هذا البحث.

ما داموا هم يكتبون تستطيع أن تناقشهم، وبعض الإخوة الآن يكتبون في المجلات الفيزيائية في الاتجاه العادي، أما الموضوع الديني فقد أصبح موضوعاً شائعاً بينهم، والمهتمون بعلم الفلك وأصل الكون يسمحون، ولا يشترط أن أقول لهم هذا إسلام أو غير إسلام، الحجج التي عرفتها من الدين وعلماء المسلمين أذكرها وأبطل بها حججهم.

البيان: لكن أنت سوف تتعرض لأشياء إسلامية استقيتها من القرآن الذي نعتقد - نحن المسلمين - أنه وحي من السماء، وهم يرون أنك تتحدث عن أمور هي عندهم غيبية وليست عالمية.

لا ينبغي أن أطرح هذه المسألة؛ لأن المناقشة عقلية: هل الكون له خالق؟ ومن المفروض أن أواجهه بما عندي من حجج عقلية أخذتها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو بحسب ما وسعها علماء المسلمين وشرحوها، طبعاً لا أواجهه بأن القرآن قال كذا أو السنة قالت كذا؛ لأنه لا يؤمن بالأصل حتى إني قرأت منذ أيام كلاماً لشيخ الإسلام فحواه أن الخطاب في مكة كان: يا أيها الناس؛ لأن الكلام كان عن أصول الدين، والذي لا يؤمن بالأصول لا يخاطب بالفروع، وما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا في المدينة ومعها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فنحن الآن في عصر نقول فيه يا أيها الناس ويا أيها الذين آمنوا، فعندما نقول يا أيها الناس نواجههم بأصول الدين وبحججه العقلية والعلمية لا بالاستناد إلى مصدرها.

البيان: قلتم: إن الفكر الإسلامي لا يمثل تحدياً فكرياً، وعنيتم بالتحدي الفكري الذي يحمل سياسة ويتجسد بقوة، أما الفكرة فلا قيمة لها إلا بآثارها، ومثلتم ذلك بالشيوعية التي كانت تحدياً فكرياً للغرب، هذا التحدي الفكري يحمل فكرة ويحمل نظاماً معيناً، نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.. فهل مثلت الفكرة الشيوعية تحدياً للرأسمالية؟ أم هل تعني أنهم يرون فينا تجمعاً بشرياً مخيفاً فقط؟

يرون فينا - نحن المسلمين - أننا تجمع وأننا أناس رافضون للحضارة الغربية، هذا معروف، حتى فوكوياما هذا الذي كتب كتاب «نهاية التاريخ» كان فحوى كتابه أن كل العالم استسلم للمنهج الأمريكي في السياسة الليبرالية والديمقراطية، وفي

الاقتصاد الحر، واستثنى من ذلك العالم الإسلامي؛ لأنهم ما زالوا يعتقدون أن عندهم بديلاً، لكن هل فوكوياما قرأ كتباً للمسلمين تشرح له ما البديل الذي يرونه؟! هذا الذي أقصده بالفكرة، هل هنالك كتب يقرؤها الغربيون سواء بلغتهم، أو مترجمة عن اللغة العربية وشائعة بينهم كما كان الفكر الماركسي له أنصار ليس لهم علاقة بالدولة الروسية، بل ينتقدون الشيوعية ويميزون بين الفكر الماركسي والشيوعية، وما زال حتى بعد سقوط الشيوعية الكثير من الأفكار الماركسية التي دخلت في الفكر الغربي: في علم الاجتماع، وفي علم الاقتصاد والسياسة، وحتى في البلاد التي سقطت فيها الماركسية، لا تظنوا أن الفكر الماركسي سيسقط كما سقط النظام الشيوعي، إنه ما زال يعيش في عقول الناس، وهذا الذي تربوا عليه، فسيبقى عندهم وستبقى منه آثار كثيرة، وعندما كنا في البوسنة والهرسك - قبل الحرب - قلت لإخواننا هناك: لا تخدعوا أنفسكم وتظنوا أن سقوط الشيوعية معناه أن هذا الفكر خرج من رؤوس أبنائكم ورؤوسكم، فالماركسية كانت تمثل تحدياً فكرياً؛ لأنه ما من قضية من القضايا التي يناقشها الغرب إلا لها فيها رأي مكتوب بتوسع ومعروف عند كثير من المفكرين الغربيين.

البيان: يعني كأنك ترى أن مشكلتنا أننا لسنا حاضرين حضوراً فكرياً في أذهانِهم؟

نعم ولكننا حاضرون سياسياً، أناس يتجمعون، حركات أصولية.. ويخلطون بين الأصولي والقومي؛ لأن كل هؤلاء آتون من هذا الذي يسمونه «الشرق الأوسط» العجيب والمعقد! إنهم ليسوا معجبين بنا، وأذكر أنه في أيام حرب الخليج كتب أحدهم وقال: لماذا نحن مشغولون بهؤلاء الناس؟! إنهم لا يستحقون منا كل هذه الانشغال، الديموقراطية تسري في العالم كله: الدول الشيوعية، جنوب شرق آسيا، إفريقيا..

إلا هذا العالم الذي ليس فيه حاكم واحد منتخب! وبعضهم يربط هذا بالإسلام. أنا لا أماري ولا أشكك في أنهم يخافون من العالم الإسلامي من الناحية السياسية؛ ولكن الذي أقوله دائماً، وبعض الإخوة يختلط عليهم الأمر أحياناً فيظنون أنني أقول إن الغرب لا يعادي الإسلام، ولا يعادي المسلمين أو أنه صديق لهم، أنا لا أقصد ذلك، بل أعني أنه لا يعدنا تحدياً فكرياً - وهذه مسألة أحزن لها - وأمثل لكم بمثال عندما أراد المركز الإسلامي في أكسفورد، وقد تعب بعضهم حتى وافقت الجامعة على إنشائه، فمن ضمن الأشياء التي طرحت كاعتراض على فكرة إقامته: هل في العالم الإسلامي من يكتب بحوثاً في مستوى أكسفورد؟! وهذا لو كان في ذهنه أدنى شك ما قال هذا الكلام، والذين أجابوا قالوا: طبعاً، هناك من يكتب، والمقصود بحوث باللغة الإنجليزية.

البيان: بما أنكم عشتم فترة طويلة في الغرب هل تتوقعون أن يسلم عدد كبير منهم وخاصة المثقفين؟

أولاً كما قلت لكم من الناحية الفكرية بدأت تحصل من العلوم نفسها أشياء تزعزع الأساس الذي قام عليه الإلحاد الغربي، ثانياً: هذه الأمراض التي انتشرت مثل الإيدز زعزعت بعض المسلَّمات عندهم، كان في الغرب شيء يسمى الحرية الجنسية، كانوا يعتقدون أن الإباحية وعدم التقيد بالزواج أمراً إنسانياً، وأنها حررت الإنسان من القيود التي قيده بها الدين ورجاله، وكانوا يعتقدون أن كل ما جاءت به الأديان هي قيود لا داعي لها، وأن الإنسان يمكن أن يتحرر منها دون أن تعود عليه هذه الحرية بالضرر.

لكن انتشار الإيدز قضى على هذه الفكرة، حيث بدأ يعتقد كثير منهم أن الإباحية ليست أمراً طبيعياً، وكذلك انتشار المخدرات التي ينظر إليها في أمريكا والغرب على أنها عدوهم الأول، وأنها مع الإباحية والشذوذ الجنسي هي التي ستقضي على

حضارتهم، وليس قوى من الخارج، فكل هذا يزعزع ثقة الناس بهذه الحضارة، فإذا جاءهم إنسان عنده بديل يحل هذه المشكلات، ويبقي لهم ما هو نافع، وما يفتخرون به من حضارتهم من تقدم علمي وتكنولوجيا؛ أظن أن هذا إن شاء الله سيكون سبباً في إسلام عدد كبير منهم. المتعصبون لن يتغيروا (السياسيون)، لكن عامة الناس، عقول الناس ليست ملكاً لأحد، قد يريد السياسيون شيئاً أما عامة الناس الذين لا يعرفون عن خطر العالم الإسلامي شيئاً هم أفراد عاديون، الإنسان منهم يريد أن ينقذ نفسه، ولو وجد من يدعوه إلى الدين الصحيح بعد أن تزعزعت ثقته سيكون لذلك نتيجة طيبة.

البيان: ما رأيكم بالمراكز الفكرية والدعوية التي قامت في بلاد الغرب؟ وهل سيكون لها أثر في الغرب أو في العالم الإسلامي؟

لا نحب أن نظلم هذه المراكز، لكن ليس لها دور من الناحية الفكرية؛ لأنها نفسها ليست مشغولة بقضايا فكرية، وكثير من الناس فيها يعيشون هموم بلادهم، وكثير من الجاليات الإسلامية في البلاد الأجنبية غير متمسكين بدينهم وإن كان هناك بعض الأشياء عند المسلمين -مهما كانوا ضعفاء- تبهر الغربيين، أذكر أن تاتشر قالت مرة إنها معجبة بالتماسك الأسري عند المسلمين، وهذا أمر يُعتز به بحمد الله، وعلى الرغم من الانحرافات الكثيرة عندنا فما زالت علاقتنا بالوالدين والأقارب أحسن بكثير مما عندهم، وهذا قد يكون له أثر بينهم.

البيان: بما أن لكم تجربة طويلة في الدعوة في البلاد العربية هل ترون أن العمل الإسلامي ومنذ بداية الحركة الإسلامية لم يحقق النتائج المتوقعة، هل هنالك خلل أساسي لم ينتبه المسلمون إليه، أو أنهم عرفوه ولكن لم يستطيعوا إصلاحه؟

أولاً: لا أقيس النجاح بالوصول إلى السلطة.

البيان: نعم ليس النجاح هو السلطة ولكن أن يكونوا قوة واضحة لها تأثيرها وظهورها في المجتمع؟

طبعاً الحركة الإسلامية - بحمد الله- لها تأثير، وسبب جزء من هذا التأثير جهود الإسلاميين، وجزء منه من تزعزع الغرب، مثلاً اليساريون شعروا أن العصا التي يتكئون عليها انكسرت، فالعلمانية لم يعد لها بريق وليس لها قبول، أما عن أخطاء الإسلاميين فقد تحدثنا عن جزء منها في الملتقى، وهي القضية التي أسميناها بقضية المنهج وأنه ليس واضحاً، كثير من الجماعات قامت على أشياء عامة من الإسلام، حتى أن الواحد منهم لا يعرف هل هو شيعي أم سني؟ وأنه لا فرق بين هذا وهذا! وهذه مسائل لا بد من الاهتمام بها، وقد كان يكفي في زمن الرسول ﷺ وفي زمن الخلفاء الراشدين أن يقول الإنسان أنه مسلم لأن هذه الكلمة لها معنى واضح، لكن بعد أن اختلف المسلمون وظهرت الانحرافات لم يعد هذا كافياً، بل لا بد أن يحدد الإنسان أين هو في هذا البحر المتلاطم من الانحرافات والأخطاء القديمة والحديثة، وكثير من الجماعات لم يوضح هذا الأمر، وعدم وضوح التصور يؤدي إلى أخطاء في العمل.

كثير من الجماعات أيضاً موقفها حتى من ناحية التصور بالنسبة للحكام الذين تواجههم أيضاً ليس واضحاً: هل هم مسلمون لا يجوز الخروج عليهم؟ هل هم كفار يجب أن يخرج عليهم؟ هل حكمهم هو الكافر لكنهم بأشخاصهم مسلمون؟! هذه القضايا لم توضح التنظيمات ما موقعها، بعض الناس تصور تنظيماتهم كأنها جماعة المسلمين والذي يخرج منها خرج على جماعة المسلمين، ليس هناك أهداف محددة، هناك هدف عام فضفاض، وأخشى أنه حتى لو وصلت إلى الحكم - ولا تلازم بين وضوح الأهداف وسلامتها وبين الوصول إلى الحكم فالبعثيون والشيوعيون وصلوا إلى الحكم - فإن كثيراً من الناس سيصابون بخيبة الأمل بعد أن يتعبوا ويصلوا إلى الحكم، ثم لا يجدون عندهم ما يقولونه للناس.

البيان: يلاحظ في السنوات الأخيرة أن شعار وحدة العمل ووحدة الصف الإسلامي شعار مقبول من الجميع، ولكن لم يتحقق منه شيء، ما السبب برأيكم؟

ما المقصود بوحدة الصف؟ إذا كانت وحدة الصف معناها وحدة التنظيم فهذا شيء متعذر وليس مفيداً أيضاً.

البيان: أن يكون هناك - على الأقل - تعاون وانسجام بدل الخلاف والتنابذ.

قال لي مرة رجل أعدّه من عقلاء الإسلاميين في العالم، وكان من جيل المودودي، هذا الرجل كان مهتماً بالعمل الإسلامي على مستوى العالم: إن الحركات العالمية كالشيوعية والصهيونية يجتمعون كل ثلاث سنوات أو أربع، ويتذاكرون وينتقد بعضهم بعضاً، ويراجعون عملهم في تلك السنين، وينشرون على الملأ الأخطاء التي وقعوا فيها، أما عندنا فيحصل خطأ في مصر، وبعد خمس سنين يكرر في السودان؛ لأننا لا نعلم أنه خطأ وحدث في مصر، أتمنى أن يسعى بعض إخواننا لمثل ذلك وقد اقترحنا هذا الاقتراح على كثير من إخواننا قبل أكثر من عشر سنوات، وطلبنا منهم أن يجتمعوا اجتماعاً لا تصدر فيه قرارات وتوصيات، ولا يكون من يحضره ممثلين رسميين لجماعتهم، ويحضر هذا الملتقى أشخاص من كل جماعة يجتمعون ثلاثة أو أربعة أيام ويتذاكرون في هذه المسائل، ويذكر كل منهم ملاحظاته على الآخر؛ لأن المؤمن مرآة أخيه.

وكذلك لو أن مجلتكم أو أي مجلة أخرى تتحول إلى منبر عام للمسلمين يتساجلون فيه، لمَ لا يكون ذلك؟ وأن يكون هذا الخلاف فكرياً مفتوحاً لكل الناس في الإطار الإسلامي السني، يتناقشون فيه ويقرؤون كلام بعضهم.

البيان: إن ظروف الحرية الفكرية وحرية النشر قد تمنع من ذلك!

ليس من الضروري أن يدخل هذا الكلام البلاد العربية، بل ينشر في الخارج ولا بد أن يرشح منه شيء إلى من يهتم به. وحتى لو بدأت هذه الفكرة متعثرة فلتكن المجلة منبراً حراً ويكتب فيه كل واحد، وإن لم توزع في كل العالم الإسلامي؟ ففي بعضه، وفي البلاد الأجنبية، فهناك الآلاف من الشباب المسلم فيها.

البيان: للأسف فإننا نلاحظ قلة إقبال هذا الشباب على القراءة وبخاصة بالعربية؟

إن النخبة منهم يقرؤون العربية أو جزء منها بالعربية وجزء بالإنجليزية، فلا بد للناس أن يتناقشوا في القضايا المهمة.

البيان: ذكرتم أن هذا اللقاء والمنبر الحر لا بد أن يكون له إطار ما، هل ترون أنه مما يسرع في وحدة الصف أو التعاون أن يكون هناك شيء واضح يجتمع عليه في البداية مثلاً كالاتفاق على منهج أهل السنة والجماعة؟

هذا مما أراه في النهاية، لكن في البداية لا تجعل هذا شرطاً للكتابة في المجلة؛ لأن المجلة هي نفسها وسيلة لنشر هذا الكلام ومناقشته؛ لأن التنظيمات الحركية ليست جماعات فلسفية، فالجماعة الفلسفية يمكن أن يشترك فيها أناس متباينو الفكر، رغم أني لاحظت في الغرب أنه حتى في الجماعات الفلسفية هذا لا يحدث، لكن أعني أن الجمعية الفلسفية أو الأدبية تتحمل هذا الخلاف؛ لأنها جامدة لا تتحرك. لكن الجماعة التي تريد أن تتحرك لا بد لها من إطار موحد تتحرك فيه، وإلا تقاذفتها الأمواج، ووجد الانتهازيون فرصة للفتك بها وتخريبها من الداخل خصوصاً إذا صارت كبيرة وصار من وراءها نفع، ما أسهل على الجماعة غير محددة الاتجاه أن لا تخترق فقط؛ بل تقاد إلى أهداف غير التي نشأت في البداية من أجلها. ولا يكفي

لتحديد هذا الإطار أن يكون شيئاً كالدستور مكتوباً وينساه الناس ؛ بل لا بد أن يتربى عليه الناس حتى يستطيعوا أن يميزوا في أتباعهم المستقيم من المنحرف، وبدون ذلك لن تكون النتائج بحجم الأهداف العظيمة التي نتحدث عنها دائماً، كيف سنحقق تلك الأهداف إذا لم نكن على منهج محدد وواضح وصحيح؟!

البيان: هناك من يرى أن الحركات الإسلامية في العصر الحديث اهتمت بجانب التجميع، ولم يكن لها تأثير اجتماعي مهم: تأثير في تغيير شيء من ملامح هذا المجتمع في مجال الصناعة أو الاستقلال الاقتصادي، ومشاركتها كانت مشاركة المعترض على السلطة، المحتج الهارب، المسجون أو المختفي، أي تصرفات من يعيش على هامش المجتمع.

هذا قد لا يكون ذنب الحركات الإسلامية، فالحركة إذا بدأت وضيِّق عليها وعورضت لا تستطيع أن تؤثر خصوصاً في مسألة الصناعة التي ذكرتها، لكن في بعض البلاد الحركة الإسلامية لها تأثير في بعض المؤسسات الاقتصادية التعليمية. وأما أنها حتى عندما تجد الفرصة للتأثير تنشغل بالمعارضة؛ فهذا من العيوب وأنا أفرق بين النقد وبين المعارضة، أما المعارض فينشغل طول الوقت بنقد أخطاء الحاكم، وهذه من الأمور التي نكرر فيها الخطأ، وأفرق أيضاً بين النقد وبين الحملة، أنت عندما تنتقد نقداً متواصلاً ولا تذكر للحاكم حسنة، هذه حملة، وقد يتوقع أن عندك شيئاً وليس عندك شيء، كأنك تحشره وتدعوه لضربك، وهذا حصل كثيراً في بعض البلاد ويحدث الآن، وأرى أن يضبط الناس أنفسهم في هذه المسألة وهي صعبة جداً؛ لأن المعارضة سهلة ومغرية لمن يعدّها باباً من أبواب الجهاد، والإنسان بطبعه يحب التحدي، لكن لا بد من الموازنة بين المواجهة وفائدة العمل على المستويات المختلفة الأخرى؛ لأن من الخطأ أن نظن أن مشكلة العالم الإسلامي هي مشكلة الحكام فقط، إن المشكلة هي المجتمع بأسره، فهو المنبع لهذه المشكلات، ولذلك فإن من السذاجة

الاعتقاد بأن التخلص من حاكم هو الحل السحري الذي سيخلص البلاد والعباد من الأزمات والعناء الذي يعانيه، ونسيان أن المجتمع هو الرحم الفاسدة التي تحتاج إلى إصلاح، حيث لا تزال تدفع بمثل هذا الذي نتمنى زواله. وما أشبه حالنا - من غير فخر- بالحال التي يصورها الشاعر العربي الذي يفتخر بقومه:

وإني من القوم الذين هم همُ

إذا مات منهم سيد قام صاحبه

نجوم سماء كلما غاب كوكب

بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

إننا - مع مواجهتنا ونقدنا للسلطة - يجب أن نسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع الذي يفرخ لنا هذه المصائب. كنت أظن وأنا شاب أن المشكلة هي فلان، فذهب فلان وفلان ولم يتغير شيء، إذن المشكلة أبعد من فلان، المشكلة اجتماعية، وهذا ما يجب أن يربى عليه الشباب، حتى تتسع رؤيتهم، ولا يكون عملهم محدوداً ضيق الأفق، وموجهاً إلى شخص معين فقط.

ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟

ظهرت في الغرب في السنين الأخيرة دعوات إلى العودة إلى العهد الإمبريالي لكن بوجه جديد يتناسب مع الظروف الراهنة، وبما أنني كنت قد ناقشت قبلاً جوانب من فكر هذه الدعوات؛ فسأكتفي الآن بمناقشة فرص نجاح هذه الدعوة.

لكن يحسن أن نذكّر في البداية بأن هذه الدعوة ليست أمراً مستغرباً، إذ إن النزوع إلى الإمبريالية - بمعنى الاستيلاء على أراضي الآخرين وتسخير أهلها وخيراتها ومواقعها لخدمة المصالح القومية للدول المعتدية والذي سمي تضليلاً بالاستعمار - أمر عميق الجذور في الحضارة الغربية حتى إنه ليكاد يكون جزءاً من نسيجها الذي لا تعرف إلا به، أقول إنه جزء من نسيجها لأنه ليس أمراً تنفرد به الحكومات أو ينفرد به الساسة، بل هو أمر كانت تكاد تجمع عليه كل فئات المجتمع: المفكرون، والفلاسفة، ورجال الدين، بل حتى الأدباء والشعراء؛ ولذلك فإن سبب تعطل هذه الحركة الإمبريالية لفترة من الزمان لم يكن في مجمله عائداً عوداً خالصاً إلى أسباب إنسانية، وإنما كان بسبب ما سمي بتوازن القوى والحرب الباردة. ولذلك كان من الطبيعي أن تجدد الدعوة إلى إعادة حركته بعد زوال ذلك العائق بسقوط الاتحاد السوفيتي.

قوى الحضارة الغربية:

إن الذي يمكن دولة أو حضارة من القدرة على إخضاع دول أخرى هو شدة قوتها، والقوى أنواع ويمكن أن نقول أن للحضارة الغربية منها قوتين يسمون إحداهما بالقوة الصلبة، والأخرى بالقوة اللينة، فلنناقش كلتيهما مناقشة موجزة لنرى مدى الفرص التي تعطيها للحركة الإمبريالية.

القوة الصلبة:

ويعنون بها القوة المادية العسكرية والتقنية، ومن المعروف أن الدول الغربية ولا سيما الولايات المتحدة تملك من هذه القوة ما يجعلها متفوقة تفوقاً عظيماً على غيرها، ولكن هل تكفي هذه القوة وحدها لتمكين دولة كالولايات المتحدة من فرض نفوذها على الدول الأخرى؟ سأل كثير من المفكرين الغربيين أنفسهم هذا السؤال، وكتبوا في الإجابة عنه كتابات عدة يجيب بعضهم بالنفي، ويذكرون أسباباً سنناقش بعضها ونضيف إليها. من هذه الأسباب:

١ - القوة الأمريكية ليست نتاجاً محلياً، بل إن أمريكا تعتمد في جلب هذه القوة واستدامتها على علاقتها بدول أخرى، ذلك أن البنتاجون كما يقول أحدهم ليس هو الذي يصنع الأسلحة وإنما تصنعها شركات، وأن نصف دخل هذه الشركات آت من منتجات تبيعها في الخارج.

٢ - تطورت صناعة الأسلحة - ولا سيما الكيماوية منها - بحيث صار في مقدور الجماعات الصغيرة، بل الأفراد أن يمتلكوها، ولهذا لم تعد الأسلحة الثقيلة مهما كثر عددها قادرة على أن تحمي البلد الذي يملكها من اعتداء عليه من داخله. وقد نبه إلى ذلك بعض المختصين بالولايات المتحدة حتى قبل حوادث ١١/٩. فقد حذر تقرير صدر من لجنة الكونغرس للأمن القومي كتب في مطلع تلك السنة عن أن "تفوق

أمريكا العسكري لا يحمينا من هجوم عدائي على أرضنا فمن المحتمل أن يقتل عدداً كبيراً من الأمريكان على أرضهم " .

٣- إن العمل العسكري يحتاج إلى تضحية، وإن هذه التضحية كانت متوفرة في عهود الإمبريالية الأولى؛ لأنه كان يحرك الشعوب الغربية آنذاك حب المجد، أما الآن فالذي يغلب عليها هو حب الرفاه وهو أمر يتناقض مع البذل والتضحية.

٤- ولعلنا نضيف إلى المسألة السابقة أن الدين كان أيضاً محركاً؛ لأنهم كانوا آنذاك شديدي الإيمان بالمسيحية، والاعتقاد بأنها خير دين، وأنهم ينقذون الشعوب الأخرى بفرضها عليهم. لكن هذا الأمر أيضاً تغير، ولا سيما في أوروبا فقد كتب أحد البريطانيين مثلاً كتاباً أسماه موت بريطانيا النصرانية وحتى أمريكا التي تعد إلى الآن أكثر البلاد الغربية استمساكاً بالنصرانية، ضعف فيها هذا الاستمساك، وصار في غالبه أمراً شكلياً على حساب العقائد الأساسية. ولعل من أدل الأدلة على ذلك انتخاب رجل يستعلن بشذوذه قساً للكنيسة الإنجيلية بأمريكا، ولذلك عندما كتب المؤلف اليهودي برنارد لويس كتابه عن العالم الإسلامي الذي أسماه: أين الخطأ؟ والذي رأى فيه أنه لا حل لمشكلات العالم الإسلامي إلا بسلوك الطريق الذي سلكته أوروبا، قال أحد عقلاء الكتاب النصارى الذين عرضوا الكتاب: " قد يبدو هذا أمر بين بنفسه ولكن بما أن المجتمعات الغربية قد بدأت تتخلى عن النمط التقليدي للحياة الدينية، وبدأت تفكك مؤسسات الدين التقليدية كمؤسسة الزواج فإن المرء ليتساءل ما إذا كان على النصارى واليهود أن ينضموا إلى الجوقة التي تحث المسلمين بأن عليهم أن يسلكوا الطريق الذي سلكته الحضارة الغربية منذ القرن الثامن عشر».

٥- ونضيف إليه أمراً في غاية الأهمية ـ ولكن قل أن يعترف به أو حتى يذكره المختصون ـ وهو التدهور الخلقي المتزايد الذي يؤدي حتماً إلى إضعاف البلد، بل إلى انهياره مهما امتلك من أنواع الأسلحة؛ من أمثلة هذا الفساد المريع ما ذكرته طبيبة

مختصة بأمراض الفتيان والفتيات قبل سن العشرين، حيث ذكرت في كتاب لها بعنوان الوباء أن الأمراض المتعلقة بالممارسات الجنسية، والتي يسمونها اختصاراً S.T.D تصيب ثمانية آلاف ممن هم في هذه السن كل يوم! إن الأسلحة لا تعمل وحدها وإنما يسيرها البشر، فإذا فسد البشر لم يكن لقوتها من فائدة، وكثيراً ما يذكرنا ربنا في كتابه العزيز بأن القوة المادية لا تنقذ أمة من الهلاك إذا توفرت أسبابه الروحية، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

٦- لكن هذا كله لا يقلل من الأهمية القصوى للقوة الصلبة في إقدار مالكها على الاستيلاء على أراض الآخرين. ولكن يبدو أن أمريكا - كما قال أحد كتابها - إنما تلجأ لمثل هذا التدخل السافر حين يكون البلد ضعيفاً لا قدرة له على المقاومة كما فعلت في عصرنا هذا وما مثال أفغانستان والعراق عنا ببعيد، وهي إذا لم تلجأ للتدخل السافر فإنها تلوح بقوتها الصلبة هذه مهددة كل من يخالفها حتى لو كان دولة قريبة مثل فرنسا. وفي الأخبار مثلاً أنها قررت استثناء البلاد التي لم تشارك في تأييدها باحتلال العراق من المنافسة في عطاءات ما يسمى بإعمار العراق وهو عمل مربح.

القوة اللينة:

المقصود بالقوة اللينة هو قوة الثقافة بمعناها عند علماء الاجتماع الذي يشمل كل ما عند شعب من الشعوب من عقائد وتصورات وعادات وتقاليد، ربما كان التأثير المباشر لهذه القوة الغربية أكثر من تأثير القوة الصلبة، مع العلم بأن تأثيرها إنما كان بسبب من سند لتلك القوة. نقول عن هذه القوة اللينة:

١- مما لا شك فيه أن الثقافة الغربية صارت في عصرنا هذا هي الثقافة الطاغية في كل أنحاء العالم تقريباً. فالناس في كل مكان يرتدي معظمهم أو عدد كبير منهم الزي الغربي، والمثقفون منهم يتكلمون لغة واحدة أو أكثر من اللغات الغربية، ويتبنون مناهج الدراسة الغربية، ويستمعون إلى الإذاعات والقنوات الأمريكية أو الإنجليزية أو الفرنسية، تحاول كثير من دول العالم أن تتبنى نظام الحكم الديمقراطي بشكله الغربي، بل يكاد أن يكون من العقائد الراسخة عند كثير من المتنفذين من السياسيين والكتاب والصحفيين أن النظام الديمقراطي هو خير نظام توصلت إليه البشرية، بل إن بعضهم ليؤمن بالديمقراطية إيماناً خرافياً فيعتقد أنها البلسم الشافي لكل علل الأمة ليس السياسية فحسب، بل الاجتماعية والدينية وغيرها فما على الناس إلا أن ينتخبوا حكامهم ويرضوا بما تراه أغلبيتهم لتختفي كل مشكلاتهم.

٢- ما الذي أدى إلى هذا الإعجاب بالثقافة الغربية؟

الجواب أنه أسباب كثيرة لعل من أهمها:

أ/ الاعتقاد الباطل بأنه ما دام الغرب قد تقدم اقتصادياً وعسكرياً فلابد أن يكون كل شيء في ثقافته من أسباب ذلك التقدم. وقد كنت قد قلت في مقال لي قديم إن مثل المعتقدين لهذا كمثل شاب يعجب برجل عداء ويريد أن يكون مثله في شدة عدوه فيذهب ويشتري ثياباً مثل ثيابه.

ب/ الاعتقاد الآخر الباطل الذي يقول إن من كان أكثر مالاً ونعمة فهو أصح مذهباً ممن هم أفقر منهم، قال تعالى عن الكفار الذين اعتقدوا مثل هذا الاعتقاد الباطل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، ثم رد عليهم سبحانه بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا

مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥].

ت/ الاعتقاد بالباطل - الذي ينشره الغربيون أنفسهم - أن حضارتهم هي حضارة العصر؛ بمعنى أنها هي وحدها المناسبة لظروفنا المعاصرة، وأن كل أمة لا تأخذ بها تكون متخلفة، فهم يخلطون بين التحديث والتغريب وبين ما أسميته في مقال سابق بضرورات العصر وأهواء العصر.

٣- مع الاعتراف بأن مثل هذه التبعية الثقافية العمياء للغرب مضرة غاية الضرر بأناس مختلفين عنه تاريخاً وكانت لهم ثقافات ليس بأقل من ثقافته، بل قد تكون خيراً منها، فإننا نتساءل ماذا يستفيد الغرب من مثل هذه التبعية؟ والجواب أنها تعتمد على نوع المستقبلين المقلدين لهذه الثقافة، فمنهم من قد يعتقد أنها مصدر لقوته، ومساعدة له بأن يكون له من القوة والتطور المادي ما للغرب، من غير أن يكون تابعاً له سياسياً، بل مع استمساكه باستقلاله ووطنيته وشيء من هويته، إن التنافس بين الدول الغربية نفسها شاهد على أن التماثل الثقافي لا ينتج بالضرورة ودّاً بين المتماثلين. لكن مما لا شك فيه أن التبعية الثقافية قد تؤدي أيضاً إلى تبعية سياسية. إن من الناس اليوم في البلاد العربية من يتمنى أن تغزو أمريكا بلاده كما غزت العراق لتخلصه من حكم ديني لا يرضى عنه.

٤- إن من شأن الاعتداء على الشعوب المستضعفة أنه قد يؤثر ثقافياً وروحياً على الشعب المعتدي نفسه، إن أهم ما يعتز به الغرب - ولا سيما أمريكا - ويتباهى به هو قيمة الحرية والديمقراطية، لكن في الوقت الذي تسوغ فيه إدارة بوش غزوها للعراق بأنه من أجل تحريره وإسباغ نعمة الحرية والديمقراطية عليه؛ فإنها اضطرت في سبيل ذلك إلى تقييد حرية الشعب الأمريكي نفسه، حتى إن بعضهم ليقول اليوم إن هذه الإدارة لا تؤمن بحرية ولا تتقيد بديمقراطية. والأمريكان والإنجليز لا يختلفون

مع رؤسائهم فقط بل إنهم ليتهمونهم بالكذب والغش، وقد ألفت في أمريكا كتب كاملة عناوينها أكاذيب بوش. وهذا من شر ما تبتلي به أمة، وقديماً قال زياد: إن كذبة الأمير بلقاء. هذا مع أن الرجل الذي نظّر للإمبريالية الجديدة كان يرى أن يكيل المعتدون بمكيالين يتعاملون فيها بينهم بالصدق والأمانة والشفافية، فإذا اتجهوا إلى غيرهم عاملوهم بالكذب والغش. ويأبى الله إلا أن يكون المكيال، ومن آثار الاعتداء على الشعوب كذلك آثاره الخلقية السيئة التي تتمثل في ازدياد الشعور بالغرور لدى الزعماء القائمين على هذا الاعتداء ولدى الجماهير المؤيدة لهم. وما أكثر ما سمعت المسلمين المتصلين بكتاب ربهم يرددون بهذه المناسبة قوله تعالى عن عاد: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

٥- وكما أنه كان لهذا الغزو ذلك الأثر السيئ داخل أمريكا فقد كان له أثر مماثل، بل أشد خارجها. لقد صار كثير ممن كانوا معجبين بقيم الحرية والعدالة والديمقراطية يتشككون اليوم في صدق أمريكا بالالتزام بها، حتى إنه لتدور في بعض الدول العربية طرفة تقول إن العلمانيين يقولون نحن كنا نريد أن نكون مثل أمريكا لكن اكتشفنا أن أمريكا هي التي تريد أن تكون مثلنا.

٦- مما ذكره ذلك المنظِّر من أسباب لا تساعد على الإمبريالية الجديدة، وهو أمر يتعلق بموضوع القوة اللينة، أن الشعوب الغربية لم تعد تقبل مثل هذا الاعتداء، بل إنها لتعده متناقضاً مع حقوق الإنسان التي صارت جزءاً من ثقافتها.

٧- إننا نعيش في عصر يسمى بعصر المعلومات، وهو أمر لا يساعد على الإمبريالية لأنه كان من بين أسبابها المشجعة عليها جهل الأمم الغربية بالشعوب الأخرى، واعتقادهم بأنهم أقرب ما يكونون إلى الحيوانات التي لا بد من غزوها لتغريبها وتعليمها وتطويرها. أما الآن - ومع أن شعباً كالشعب الأمريكي ما تزال غالبيته العظمى تجهل العالم الخارجي - فإن أعداداً كبيرة من مثقفيه بدأت تعرف كثيراً

عن هذه الشعوب وتقدرها، يحدثني بعض الشباب المسلمين في أمريكا أن من أكثر الناس تقديراً للمسلمين، واحتراماً لهم الأجيال الجديدة من الأمريكان الذين اختلطوا بالطلاب المسلمين أثناء الدراسة.

٨- مما يساعد الحضارة الغربية ويزيد من قوتها كون أقطارها اقتنعت بعد تجارب كثيرة أنه لابد لها من أن تتعاون تعاوناً يكاد يصل حد الاتحاد، فهي كلها ذات نظم سياسية واقتصادية وإلى حد كبير تعليمية متشابهة، ومع أن أهلها يتحدثون لغات مختلفة إلا أنهم يحرصون على تعليم كثير من أبنائهم لغات بعضهم بعضاً، فأوروبا الآن تسير نحو اتحاد تتخلص فيه من مفهوم الدولة الوطنية التي بلتنا بها، ومن مفهوم الحدود الوطنية والمصلحة الوطنية الضيقة. وهنالك تعاون وثيق بين جانبي الأطلسي، ولا سيما أمريكا وبريطانيا، ومما لا شك فيه أن هذا التعاون الوثيق مما يزيد من قوتها في مقابل القوى العالمية الأخرى.

المستقبل لنا

لا أقول لشخص فلان وفلان، وإنما أقول لقيمنا المؤسسة على كتاب ربنا وبيان رسولنا.

ولا أقوله لأستشهد به على صدق الرسالة المحمدية فإن الحق حق في نفسه آمن به الناس أو لم يؤمنوا.

وأعلم أن المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله وإنما أقول ما أقول رجاء وتوقعاً لما أشاهد من علامات أراها دالة عليه.

فهؤلاء السياسيون وأهل الرأي من الغربيين يصرحون بأنه لم يبق بعد سقوط الشيوعية غير الإسلام متحدياً للحضارة الغربية، لكنهم يقولون إن تحديه لها ليس تحدياً بسيف وإنما هو تحد بقيم تغزو العقول والقلوب. وقد بدؤوا لذلك يكثرون من الحديث عن قيمهم، ويبذلون الأموال الطائلة لنشرها في العالم الإسلامي.

لكنهم يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. فالدلائل كلها تشير إلى أن معركتهم هذه معركة خاسرة؛ لأنها دفاع عن قيم فاسدة وباطلة، وأن المستقبل لقيم الحق والخير التي جاءت بها رسل الله ودعا إليها خاتم أنبياء الله. إنها القيم التي ستغزو القيم الباطلة

وتزهقها حتى في عقر دارها، وتضيء لأهلها أنوار الحق فتجعلهم يفيؤون بإذن الله إلى دين الله أفواجاً. ولقيم الحق هذه جنود مجندة في داخل الحضارة الغربية نفسها. فكل ما فيها من حقائق ومناهج علمية، وكل ما فيها من أصوات منكرة للفساد داعية إلى مكارم الأخلاق، وكل ما فيها إنكار لواقعها وبحث عن بديل له أسلحة مناصرة للحق فاتحة لأبواب الخير.

كان بعض الغربيين في الماضي يعتزون بدينهم ويحسبون أن لا دين خير منه لأنه دين الأمم التي قادت الثورة العلمية واستفادت من تقنيتها في غزو العالم والهيمنة عليه، بل كانوا يجعلون نشر دينهم من مسوغات ذلك الغزو. لكن هذا العلم نفسه هو الذي بدأ منذ مدة يكشف لهم أباطيل دينهم وينصر حقائق دين الإسلام. أدت دراستهم لدينهم دراسة علمية إلى حقائق تدل على أن الكتاب الذي لديهم لا يمكن أن يكون كلام عيسى نبي الله، بل لا يمكن أن يكون حتى رواية صحيحة عنه بألفاظ الرواة. فانتهت خرافة أن كل مافي البايبل (هكذا يسمون كتابهم) هو كلام الله. فلم يعد يؤمن بهذا عالم مختص بالدراسات البايبلية، وإنما بقي المؤمنون به عوام لا يعرفون شيئاً عن تلك الحقائق أو دعاة مغرضين لا يعقلون. وتبين لمن عرفوا الإسلام منهم صدق ما قرره من تحريف للكتاب. ثم بدؤوا يدركون ـ مع تطور نظرتهم العقلانية إلى الدين ـ حقيقة كبرى أخرى قررها القرآن وأكدها هي أنه لا يمكن أن يكون عيسى عليه السلام ابناً لله وهو مخلوق من مخلوقاته. ما أكثر الذين صاروا يصرحون بإنكارهم لهذه العقيدة الباطلة، وما أكثر الذين ثابوا إلى الدين الحق بسبب إنكارهم لها.

ثم إن العوام وأولئك المغرضين صاروا يحرجون غاية الحرج في أيامنا هذه مما بدأ ينشر من نصوص البايبل من كلام فاحش مناف لمكارم الأخلاق أدى ببعضهم إلى المطالبة بسحبه من مكتبات التلاميذ، وعده من الأدب الفاحش الذي يمنع الأطفال من الاطلاع عليه!

هل نجحت الأيدلجيات التي حلت محل ذلك الدين في أن تقدم للغربيين بديلاً يغني عن كل دين؟ يقول بعض كبار مفكريهم الآن: كلا.

إن العالم الحديث الذي نسلم بـه...... إنما هو في أساسه نتاج ثورة القرن السابع عشر العلمية، وفترة التنوير التي تبعتها. لقد كانت هذه في حقيقتها بحثاً عن حقيقة مطلقة - غير مأخوذة من أرسطاليس ولا من البايبل - يمكن أن يبنى عليها مجتمع يعامل فيه كل المواطنين بالمساواة.

ثم يقول إن هذا المشروع كان ناجحاً إلى الحد الذي أفرغ فيه مفهوم (الله) من معناه. ثم يقول لكن هذا المشروع فشل كما بين السدير ماكنتير Alisdair McIntyre أحد كبار الفلاسفة المعاصرين. لقد فشلت في إيجاد ذلك الأساس العقلي المطلق كل المحاولات الثلاث المشهورة: الفاشية، والشيوعية، والرأسمالية[1].

لم تبق إذن إلا العلوم الطبيعية. لكن هذه العلوم التي أدت في البداية إلى غرور بعضهم واستكبارهم، واعتقادهم بأنها ستغني البشرية عن الهداية السماوية؛ بدأ يتبين لهم من تجربتهم معها غير ذلك. اكتشفوا أنه لا بد للناس من معتقدات تقوي جانب الخلق الكريم في نفوسهم، وتجعل منهم جماعة متعاونة لا أفراداً أنانيين. لكنهم لا يريدون ديناً يتنافى مع المبادئ التي قام عليها العلم الطبيعي الذي رأوا من ثماره ما جعلهم يعتقدون في صحة منهجه القائم على العقلانية والتجريبية. فلا تقبل فيه دعاوى لا دليل عليها، ولا يقبل فيه دعاوى متنافية مع المبادئ العقلية، أو منافية للحقائق الحسية.

اكتشف بعض من عرف الإسلام منهم أنه لا دين غيره تتوفر فيه هذه الشروط.

(1) Chris Morris, Thinking the Unthinkable, bbc, book of the future, 6 Feb, 2003.

فهو وحده الدين الثابتة نصوصه تاريخياً. حدثني بعض الشباب الأمريكيين المسلمين الذين كانوا يدرسون مقرراً في الأديان المقارنة أن أحد الأساتذة - ولم يكن مسلماً - قال للطلاب إن كنتم تريدون ديناً ثابتاً تاريخياً فلا دين إلا الإسلام.

ثم اكتشف بعض من هداهم الله تعالى من علمائهم الطبيعيين أنه ليس ثابتاً تاريخياً فقط، بل هو الدين الوحيد الذي يمتاز بعدم منافاته للحقائق العلمية، بل يمتاز بأكثر من هذا هو سبقه إلى تقرير حقائق علمية ما عرفت إلا في عصورنا هذه وما كان من الممكن أن يعرفها بشر عادي في العهد المحمدي أو قبله فكانت حقاً معجزات علمية كانت سبباً في إيمان علماء غربيين مختصين اطلعوا عليها.

كان الاهتمام بقضية الإعجاز العلمي هذه خاصاً بعلماء ولدوا مسلمين، لكنه بدأ الآن يجذب إلى البحث فيه علماء هدوا إلى الإسلام. فهذا أستاذ كبير في علوم الحاسوب بجامعة جورج ميسن Georg Mason بالولايات المتحدة يقول إن هنالك برنامجاً حاسوبياً يستعمل في إثبات صحة نسبة النصوص وكونها لمؤلف واحد أو أكثر، ويرى أنه بالإمكان تطبيقها على النص القرآني العربي لإثبات أن مصدره واحد (على عكس البايبل). اطلعت على فكرة المشروع وكتبت تقريظاً لها وقلت إنني لأرجو أن يصل الباحثون ـ بهذا المنهج الحاسوبي ـ ليس فقط إلى أن للقرآن مصدراً واحداً، بل إلى أن ذاك المصدر لا يمكن أن يكون مصدراً بشرياً!

والإسلام هو وحده الدين الذي ليس فيما يقرره في باب العقائد وسائر التشريعات ما يتناقض مع شيء من المبادئ العقلية. وقد انتصرت مناهج العلوم الطبيعية للدين الحق انتصارا في هذا المجال هو إنكارها لما يسمونه الآن بالمادية الغليظة التي كان يقول أصحابها ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] زاعمين أن الدليل الوحيد على دعاوى الحقائق الغيبية هو المشاهدة الحسية. جاءت العلوم الطبيعية بمناهج تعتمد الاستنتاج العقلي والانتقال به من الشاهد إلى الغائب، من الآية المشاهدة إلى الحقيقة الغائبة التي هي آية لها.

والإسلام هو الدين الذي ليس فيه ما يتعارض مع مكارم الأخلاق. كيف وهو الدين الذي يقول نبيه إنه إنما أرسل ليتممها؟ وإنه لمما يبشر بأن المستقبل للإسلام اكتشاف كثير من العقلاء في الغرب أن المساوئ الكثيرة التي يعانونها ترجع إلى أسباب في فكرهم العلماني البعيد عن الدين. وقد كنت عرضت قبل ذلك في بعض المقالات في هذا العمود كتابين لمؤلفين أمريكيين يتحدثان عن هذه المشكلة. وهذا كاردينا كاثوليكي أسترالي كنا قد أشرنا إليه في مقالات سابقة يخشى من أن يؤدي فراغ الدمقراطية الغربية وأنانيتها وفحشها إلى أن يجد الناس في الإسلام بديلاً عنها[1].

هؤلاء قوم عرفوا حضارتهم وعاشوا فيها واستمتعوا بما فيها من خيرات مادية ومعنوية، لكنهم حين هداهم الله إلى الإسلام فعرفوا ربهم وذاقوا حلاوة الإيمان به والسعادة التي تغمر قلوبهم بعبادته؛ لم يعودوا يقدمون عليه شيئاً مما حولهم من خيرات حضارتهم، بل إن بعضهم ممن سجن ظلماً فضل البقاء في السجن على خروج منه على حساب دينه.

---

(1) Barney Zvartz, Democracy must change to counter Islam: Pell, November 12, 2004, the age.com, au.

المصادر



المصادر

القسم الأول:

١ - **العولمة وصراع الحضارات:** مجلة البيان. العدد ١٦٩، رمضان ١٤٢٢هـ الموافق نوفمبر- ديسمبر ٢٠٠١م.

٢ - **موقف الإسلام من الأديان والحضارات الأخرى:** قُدم بمهرجان الجنادرية عام ١٤١٦هـ.

٣ - **صراع الحضارات ومستقبل الدعوة الإسلامية:** بحث قُدم لمؤتمر عقدته مجلة البيان بقاعة الصداقة بالخرطوم يوم ١٧ رجب ١٤٢٣ هـ- الموافق ٢٤سبتمبر سنة ٢٠٠٢م.

٤ - **ودوا لو تكفرون كما كفروا:** مجلة البيان العدد ١٧١، ذو القعدة ١٤٢٢هـ.

٥ - **تصور إسلامي للتعايش السلمي:** ٢٦ يونيو ٢٠٠٧م.

٦ - **أصول إسلامية للعلاقات الدولية:** ندوة الاسلام في شرق آسيا حضارة ومعاصرة، تايبيه بتايوان ١٤٢٥هـ- الموافق ٢٠٠٤م.

٧ - **علاقة الغرب بالعالم:** مؤتمر العلاقات الدولية بين الإسلام والحضارة المعاصرة، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ٢٠٠٣م.

القسم الثاني:

١ - نقد للفكر الغربي بمنهج علمي: الأمة في مواجهة مشاريع التفتيت، ص ١٣، تقرير استراتيجي من إصدارات مجلة البيان ١٤٣١هـ.

٢ - عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القيم الغربية: ورقة كتبت لمؤتمر تعظيم حرمات الإسلام الذي أقيم بالكويت من ٢٢ إلى ٢٤ يناير ٢٠٠٧ بدعوة من مجلة البيان ومبرة الأعمال الخيرية.

٣ - الدعوة الإسلامية والغزو الفكري: قُدم هذا البحث في المؤتمر العالمي للدعوة الإسلامية الذي عُقد بالخرطوم (٢٢-٢٦ جمادى الأولى عام ١٤٠١هـ - الموافق ٢٨ مارس - ١ أبريل ١٩٨١م) بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري.

القسم الثالث:

١ - وحدة لصد الحرب الغربية على الإسلام: مؤتمر وحدة الأمة الإسلامية الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي سنة ٢٠٠٥م.

٢ - ما فرص نجاح الإمبريالية الجديدة؟ مؤتمر الإسلام والغرب في عالم متغير، الخرطوم: وزارة الإرشاد والأوقاف ٢٠٠٣م.

٣ - حوار حول صراع الحضارات مع مجلة الفيصل: مجلة الفيصل، العدد ٢٥٧ صفحة ٥١-٥٣.

٤ - حوار حول الفكر الإسلامي والفكر الغربي مع مجلة البيان: العدد ٥٥ ربيع الأول ١٤١٣هـ - الموافق سبتمبر ١٩٩٢م، العدد ٥٦ ربيع الآخر ١٤١٣هـ الموافق - أكتوبر ١٩٩٢م.

٥ - المستقبل لنا: مجلة البيان العدد ٢٣٩.

فهرس المحتويات